أســرار القــرآن

الجزء الثانى

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١٤٣)

يخبرنا ربنا عن اليهود من معاصرى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ بل وعن المنافقين والمشركين أنهم سيقولون . وقدثبت من غير طريق أنهم قالوا . لأن اليهود قبحهم الله أشاعوا أن تولية رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ هو وأصحابه فى الصلاة إلى الكعبة بعد بيت المقدس تردد، و لم يكن عندهم نسخ فى أحكام التوراة ، فانتهزوا تلك الفرصة، ليشككوا المسلمين، وإن كان سبق منهم ذلك، إلا أن الله سبحانه يجمع فى خبره بين من قالوا ومن سيقولون .

وفى عصرنا هذا نرى المترددين الشاكين من أهل النفوس اللقسة من المسلمين، ومن أعداء الله الكافرين، الذين يريدون أن يفتنوا أهل الإسلام لأغراضهم الاستعمارية، ظنا منهم أن المسلمين ينخدعون بزخرف أقوالهم فى فتح أبواب الفتن، فنراهم يرسلون جيشا مزودا بالمال والقوى يسموهم "المبشرين " وهم جنود الباطل والظلم، ولومكثوا قرونا طويلة، ماوجدوا أجهل مسلم يقبل منهم باطلهم الذى يموهونه بما لايقبله عقل، ولايميل إليه حس.

وقد مضى عليهم قرون من أيام الحروب الصليبية وهم يكيدون للإســـلام، وما سمعنا أن مسلما ممن عاش فى الصحارى والفيافى والقفار إذا سمـــع كلامهـــم ووزنه بما تلقنه فى طفوليته من كلمة التوحيد، إلااعتقد أنهم أضل من الأنعام، لأنه يسمع منهم أن رجلا قتله اليهود على زعمهم الكاذب هو الإله، أوابن الله، أوحل فيه الإله، ولو قالو إن أمة قتلت ملكها أو ابن ملكها لا يصدق، فكيف يصدق أن الله ولد ولدا و قتله أعداؤه اليهود ؟ و بعد أن سمع من أبيه و أمه ﴿لا إلـــه إلا الله محمد رسول الله) و فقه معناها التتريهى، فكيف يفتتن مسلم بعد أن آمن بـــالله و برسوله﴿ ﷺ وآله﴾ بقول كافر بالله يجعل له ندا أو ولدا أو يغير كلامه و أحكامه ؟ ذلك مالا يتصوره إنسان .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾

معجزة من معجزات النبوة، لأنها خبر من الله تعالى لها بضع عشرة مائة من السنين، و لا يزال أهل النفاق و أهل الكفر بالله و أهل الشرك يقولون هذا الكلام . و العليم الحكيم أعلم بعباده و بقواهم العقلية من أنفسهم بهم . هذا سر قوله تعالى : ﴿**سَيَقُولُ**﴾بالسين المفيدة للمستقبل القريب، و السفهاء جمع سفيه . و السفه ضد الحكمة . و هو وضع الشيء فى غير موضعه إفساداً للمال . و كل من وقع فى السفه فأسرف فى ماله يحجر عليه ويقام له وصى، فكيف إذا سفه فى دينه ؟ يكون الحجر عليه أولى . و معنى الحجر عليه أن يعتبر رأيه و عقيدته و مبدؤه كرأى البهائم السائمة لا يعتنى به. وكذلك القائلون هذا الكلام سفهت أحلامهم، فكانوا من شياطين الإنس بالنسبة لسعيهم في صد الناس عن دين الله تعالى، و كانوا كالبهائم الوحشية الضارة التى يجب أن تستأصل من الوجود .

﴿ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾

﴿ مَا ﴾ للاستفهام الإنكارى منهم، كأنهم ينكرون استقبال رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه الكعبة المطهرة فى صلاتهم بعد بيت المقدس، ولم يكن إنكارهم هذا إلاعناداًوبغضاً للحق وأ هله،لأنهم قبحهم الله يعلمون صفات رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ التى أنزلها الله فى التوراة على موسى وعليهم، وأنه﴿ ﷺ وآله﴾ من بنى عمهم إسماعيل كما صح ذلك عن موسى عليه السلام، بل وعن الخليل عليه السلام، وعن عيسى عليه السلام . ومع ذلك فإن خبث نفوسهم وبغضهم للحق دعاهم إلى الإنكار وإلى فتح أبواب الفتن على أهل الحق فقهرهم الله تعالى وأذلهم بقوله سبحانه قل يامحمد ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يعنى أن الجهات الست لله تعالى، فإن المشرق من جهة قطر الشمس من مبدأ شروقها إلى غروبها والمغرب من مبدأ غروبها إلى مبدأ شروقها، فكانت الجهات كلها لله . ومتى كانت كل الجهات لله كان الحكم له سبحانه فى اختصاص أى جة منها لتكون قبلة للصلاة، لأن الخلاق العظيم هو الملك المتصرف فيما أبدع وخلق، ليس لمخلوق مقهور أن ينكر عليه شيئا من حكمه، اللهم إلا أن يلتمس من الله علم حكمة هذا الحكم بذل وخشوع وتواضع لمن خلقه وأبدعه، وأمره ألا ينكر عليه سبحانه وتعالى فى شىء من أحكامه جل جلاله، ومعنى ﴿ وَلاهُمْ ﴾ أى لفت نظرهم عن قبلتهم الأولى حتى استدبروها، ووجهوا وجوههم شطر الكعبة .

﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

الهداية هى بيان الحقيقة جلية والإعانة على العمل بها أوإدراكها . فالهداية هنا هى كشف حقيقة القبلة، وتوفيق الله المسلمين للعلم بها، وإعانتهم على القيام بما أمر الله تعالى، فهو الهادى والموفق والمعين .

وقوله تعالى ﴿**مَنْ يَشَاءُ**﴾ يعنى الذى سبق فى عمله هدايته وإقامته فى محاربه ومراضيه سبحانه . وفى الآية دليل على أن الله تعالى يقـــول لنـــا إنى خصصـــتكم بالهداية إلى الحق، وأبعدت عن الطريق من لم يؤمن بحبيبى﴿ ﷺ **وآله**﴾ فكبت الله بهذه الحجة الدامغة أهل العناد، الذين حسدوا المسلمين على ماآتاهم الله من فضله، وحرصوا على عنادهم الذى دعاهم إليه طمعهم وحظهم وهواهم من الرياسة ومما يزول من حطام الدنيا .﴿**إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ الصراط المستقيم أقرب طريـــق يوصل إلى الغاية، والذى من سلك عليه كان فى أمن وفى عطايا روحانيـــة تزيـــده نشاطا وهمة وإقبالا على مقصده الأعظم، أى ليست فيه عقبات ولاموانع ضـــارة تقتضى العناد والبلاء . فإن مايناله السالك على الصراط المستقيم من مشاهدة آيات الله، ومشاهدة جمالاته العلية، ومما يكاشف به من أســـرار ملكـــوت الســـموات والارض يجعله فانيا عن كل السعادات الكونية والملاذ الشهوانية .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـــونَ الرَّسُـــولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

والمعنى كأن الله تعالي يقول : كما هديناكم الصراط المستقيم جعلناكم أمة وسطا، والأمة هى الجماعة من الناس التى تقوم بنفسها، والوسط من كل شـــيء خياره، والوسط في اللغة هم العدول . وجائز أن يكون الوسط هنا اننا بين اليهود الذين فرطوا في دين الله فغيروا وبدلوا، وبين النصارى الذين أفرطوا في الغلو فاتخذوا لله ولدا وندا. وجائز أن نكون وسطا بين الملائكة وعالم الملك، لما كملنا الله به من معنى خلقنا بيديه، فجعلنا الله وسطا، وجعل من سوانا مـــن الأناســـى بعضـــهم كالبهائم، وبعضهم كالشياطين، وأقمنا جماعة المسلمين وسطا، ورفعنا عن الملائكة قدرا، مع إثبات حقائقنا الإنسانية التى تقتضى فادح الجهـــاد، ووفقنـــا وأعاننـــا

فجاهدنا أنفسنا الجهاد الأكبر، وفضل الله المجاهدين على القاعـــدين، ففضـــلنا الله بسبب ذلك على الملائكة الذين فطروا على عبادة الله وطاعته من غـــير جهـــاد. وجائز أن يكون معنى ﴿ وَسَطًا ﴾ أن الله أقامنا مقام أنبيائه فجعلنا بينـــهم وبـــين خلقه للدلالة على توحيده وبيان أسراره، بدليل قوله سبحانه ﴿ **لِتَكُونُوا شُـــهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ والشهداء عند الله هم العدول وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فأقامتنا هذه الآية هذا المقام، دليـــل علـــى أن الله اختص الأمة المحمدية بما اختص به أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، فطوى النبوة بين جنبى كل مسلم عالم عامل، إلا أنه لا يوحى إليهم ولكن يلهمون، بدليل قوله تعالى :﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـــأْمُرُونَ بِـــالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـــوْنَ عَـــنِ الْمُنْكَرِ**﴾[1] وقوله تعالى : ﴿**فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَـــيْهِمْ مِـــنَ النَّبِـــيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾[2] وأمرنا سبحانه أن نسأله الهداية إلى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم . وقد أخبرنا أننا خير أمة، وإذا كنا خير أمة أخرجت للناس فمن هم الذين أمرنا سبحانه أن نطلب منه أن يهدينا صـــراطهم ؟ بل ومن هم الذين أنعم الله عليهم من قبلنا ؟ هم الرسل الكرام والأنبيـــاء علـــيهم الصلاة والسلام . تلك الآية الكريمة طهور تجذب الأشباح والأرواح إلى حضـــرة الفتاح، فإن الله تعالى ما أخبرنا أننا خير أمة أخرجت للناس وأنه سبحانه جعلنا أمة وسطا لنكون شهداء على الناس فى الدنيا و الآخرة قبل شهادتنا، إلا وقد سبق فى علمه القديم أنه يؤيدنا ويعيننا، ويوفقنا لمحابه ومراضيه، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، والقادر إذا أخبر عن شىء من تقدير العطايا نفذه بقدرة وحكمة

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠.

(٢) سورة فاطر آية ٣٢

﴿ كُنْتُمْ ﴾ يخاطب جميع الأمة وهو الواسع القادر المتفضل، ويـــدل علـــى ذلك قوله تعالى :﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِـــنْهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (١) وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُـمْ مَـا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٣) وأن بيان القرآن أثبت أنه ليس علـى وجـه الأرض موحد لله إلا المسلمون، والكبائر كلها لا تحكم على مرتكبيها بالكفر أبدا لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِـكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (٤).

وعلى هذا، فكل مسلم وإن كان عاصيا الله تعالى فهو محل عناية الله تعـالى، لأن الله جعل قلبه خزانة لنور توحيده سبحانه وتعالى . وقد سأل رجل معاذ بـن جبل رضي الله عنه فقال : إني أسألك عن رجل قوى اليقين قليل الأعمال، وعـن رجـل ضعيف اليقين كثير الأعمال، فقال معاذ : إن ضعف اليقين يمحق أعماله الصالحة، فقال: وما شأن القوى اليقين قليل الأعمال الصالحات ؟ ثم قال الرجل : إذا كـان ضعف يقين الرجل الأول محق أعماله الصالحات، فيكون يقين الثاني محق السيئات، فأخذ معاذ بيده و قال : ما رأيت أعلم منك، وأقره على كلامه . فإذا كان قوى

---

(١) سورة النساء آية ٦٩

(١) سورة الشورى آية ٢٢-٢٣

(٣) سورة النساء آية ٤٨

(٤)سورة الفرقان آية ٧٠

الإيمان وضعيف الإيمان هكذا فكيف يكون الحال بين المشرك بالله و بين الموحـــد بالله و لو بكلمة التوحيد ولو لم يعمل خيراً أبداً ؟

وقال بعضهم : المراد بالخطاب فى﴿**كُنْتُمْ**﴾ خاص بالصـــحابة رضـــى الله عنهم، وهذا مردود عل القائل، لأن الأحكام الشرعية خوطب بها الصحابة وكانوا سببها وخصوص السبب لا يقتدى خصوص الحكم، لأن الله تعالى كلفنا بما كلفهم به وطالبنا بما طالبهم به . وقال بعضهم : الخطاب فى ﴿ **كُنْتُمْ** ﴾ لأبدال الرسل فى كل عصر، ولورثة الأنبياء فى كل زمان من العلماء العارفين العاملين .

وإني أقرر في هذا القول قرارا ، وهو أن العلماء العاملين فى كل زمان يقتدى بهم أهل عصرهم فيكونون علماء وعاملين، والعالم من علم مسألة مـــن العلـــم فى الدين فعمل بها، وكل من جلس أمام العلماء العاملين الراسخين فى العلم فهو عالم وناله قسط من هذا الفضل العظيم بقدره . قال تعالى﴿ **هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ**﴾ (١) وقال تعالى : ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَـــاتٍ** ﴾ (٢) ومدح الله تعالى أهل الإيمان الذين لم يحصلوا جميع العلوم بقوله : ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾(٣) وتلك الآية الكريمة حجة قاصمة لظهور أعداء الإسلام، وبشائر مـــن الله تعالى لأهل الإسلام . أسأل الله تعالى أن يعيننا عل شكر نعمته علينا بالإسلام، وأن يمنحنا العلم النافع بتلقيه عن الراسخين فى العلم .

(١)سورة آل عمران آية ١٦٣

(٢)سورة المجادلة آية ١١

(٣) سورة البقرة آية ٣

وقولنا فى تفسير قوله تعالى :﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى فى الدنيا و الآخرة (ما ورد من أن جنازة مرت على رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فأثنى عليهـــا أصحابه، فقال : وجبت ، ثم مرت أخرى فذكروها بسوء، فقال : وجبت، فقالوا : ما وجبت يا رسول الله ؟ فقال﴿ ﷺ **وآله**﴾: أثنيتم على الأولى فقلت وجبت له الجنة، و لم تثنوا على الثانية فقلت وجبت لها النار، أنتم شهداء الله علـــى خلقـــه) فنحن الشهداء على الخلق فى الدنيا، ونحن الشهداء للرسل يوم القيامة على أممهم إذا أنكروا بعثتهم إليهم .

يقف نوح عليه السلام أمام الله فيسأله عن إجابة أمته له، فيقول كـــذبونى وآذونى فيقول الله لهم : لم كذبتم رسولى ؟ فيقولون : ياربنا و لم نره يبعث إلينا، وهل لـــه شهود على ذلك ؟ فيقول الله تعالى لنوح عليه السلام : ألك شهود على أنك بعثت إليهم فخالفوا ؟ فيقول: نعم، أمة محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾فيؤتى بنا فيسألنا ربنـــا فنقـــول : ياربنا بعث إليهم فكذبوه وآذوه فتقول أمة نوح انظر ياربنا إلى هؤلاء الكـــذابين ، هؤلاء بيننا وبينهم بضع آلاف سنة ويشهدون علينا، فيقول الله لنا : مـــاحجتكم على شهادتكم، فنقول : قولك سبحانك : ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْـــذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُـــدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**﴾ [(1)] الآية . فيقول الله تعالى صدقتم اذهبوا بهم إلى النار، فنحن شهداء الله فى الدنيا والآخرة . ونقول فى تفسير قولـــه تعالى : ﴿**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ أى بعد أن أثبت الله ســـبحانه لنـــا العدالة بأن جعلنا شهداء لرسله على أقوامهم، أخبرنا جل جلاله بأنـــه ســـيؤيدنا

(1) سورة نوح آية 1 — 4

بشهادة الرسول﴿ ﷺ وآله﴾لنا، بأننا قد صدقنا فيما شهدنا به لرسله عليهم السلام .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾

بعد أن أخبرنا الله تعالى بسفاهة من أعمى بصائرهم عن علم حكمة تحويل القبلة إلى الكعبة، وأثبت سبحانه أن المشرق والمغرب له، بالنسبة لتولية وجوهنا عند الصلاة إلى أى جهة يأمرنا بها سبحانه، بعد أن آمنا أن الكون كله خلقه سبحانه وهو القاهر فوقه، وبعد أن بشرنا بأنه هدانا واختصنا بتولية وجوهنا شطر الكعبة، ثم أيد تلك البشرى بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس، وتفضل فجعلنا من العلماء الربانيين الراسخين أبدال الرسل ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن إيمانا كاملا بالله تعالى، ثم تنزل جل جلاله بجماله ونوره لحبيبة ﴿ ﷺ **وآله**﴾ مخاطباً، تأييدا له صلوات الله وسلامه عليه ونصرة له، فقصم ظهور المخالفين المعترضين على تحويل القبلة من اليهود والنصارى والمنافقين وكفار قريش بالحجة الدامغة مبينا سبحانه الحكمة فى تحويل القبلة بآية تقتضى قصر الصفة على الموصوف وهى قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ أىوما حولناك عن القبلة التى كنت عليها وهى بيت المقدس إلالنعلمك ونريك من يتبعك من أهل اليقين، الذين صدقوك فيما جئتهم به من عندى، لايزلزل قلوبهم نسخ بعض الآيات ببعض، أوتحويل وجوههم عند الصلاة عن بيت المقدس إلى الكعبة، لقوة يقينهم بما جئتهم به، ونريك أهل الإيمان الضعيف الذين اتبعوك بألسنتهم لابقلوبهم، وبعقولهم المكتسبة لا بقلوبهم وعقولهم التى تعقل عن الله، ممن ينقدح الشك فى قلوبهم لأقل حادث يحدث، وهم الذين قدرت فى أزلى أنهم ليسوا مؤمنين بالحق، ولكنهم أهل

شك وتردد، وبذلك الاختبار والامتحان يطمئن قلبك بمن اتبعك من المؤمنين، وتثق بهم أن يكونوا أنصاراً لك على القيام بمهام الرسالة، فإن الله تعالى يقول : (وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) [١] وقد ابتلى الله من آمنوا باختبارات وامتحانات شديدة ميزت أهل الحق من أهل الباطل حتى ظهر لأهل الإيمان بالله من آمنوا بقلوبهم وألسنتهم، ومـــن آمنـــوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وفى سورة براءة آيات من الامتحانات الشديدة ميزت المنافقين وأتباعهم، فقد رجع من الجيش الذى كان مع رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾لغزو مملكة الروم فى الشام أكثر من نصف الجيش بسبب تلك الامتحانات مع عبـــد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين، حتى لم يبق مع رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾فى الجـــيش إلاأهل اليقين الكامل، ولاتزال تلك الامتحانات والاختبارات تحصل للمـــؤمن إذا أقبل على الله تعالى حتى يصل إلى الله تعالى مجاهدا فيرفعه إلى المقـــام الأعلـــى، أو يترعج فيرتد على عقبيه، فإذا سلك السالك على يد العالم العامل أنكشـــفت لـــه أسرار الحكمة، فرضى بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد﴿ ﷺ وآلـــه﴾نبيـــا ورسولا . أما السالكون على يد أهل الجهالة فإنهم إذا أصابهم خـــير قـــالوا نحـــن أعطينا، وإن أصابهم شر قالوا إنكم أغضبتمونا . والحقيقـــة أن الله تعـــالى يهـــب أصحاب العلماء الربانيين خيرا ووسعة من فضله بدليل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْـــلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّـــمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [٢] والعلمـــاء الربانيون إذا دخلوا بلدا كمل إيمان أهله واجتمع الناس فى المســـاجد وفى مجـــالس الذكر، لما جملهم الله به من الإيمان والتقوى والعلم والشفقة والذوق والحب .

(١) سورة ص آية ٢٤

(٢) سورة الأعراف آية ٩٦

فقوله تعالى : ﴿ إلا لِنَعْلَمَ ﴾ إن الله تعالى محيط بالواجب والجائز والمستحيل، وبالكليات إجمالا وتفصيلا، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولزم أن نؤول قوله تعالى (لنعلم) لدلالتها الإلزامية، أى لتعلم يامحمد أنت وأصحابك من المخلصون لك من أصحابك ؟ ومن المنافقون الذين يشيعون المنكر ليصدوا عن سبيلى لأن من المستحيل أن علم الله بالحوادث يتوقف على إبرازها ،وهذا كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(١) تنزلا من الله تعالى وتلطفا بخلقه، حتى ينمحق العناد من نفوس من سبق لهم الهدى من الله تعالى، ويقوى عناد من لم تسبق لهم العناية فينقلبون على وجوههم.

فمن يتبع الرسول هو الذى سبقت له الحسنى من الله تعالى والتأييد، ومن ينقلب على عقبيه فهو الذى لم تسبق له العناية من الله تعالى والتوفيق . ثم طمأن قلوبنا جل جلاله بقوله : ﴿ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ (٢) الله تعالى لايضره شيء ولو كان كل من فى السموات والأرض كافراً به جاحداً لأنه سبحانه هو الضار النافع . وفى الآية إشارة ظاهرة لنا، أن الكفار جميعاً إن حاربونا لن يضرونا شيئا مادمنا متبعين رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ولن يصيبنا شر منهم إلا إذا خالفناه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أو تركنا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمن خالف، فنكون كمن أقر المعاصى ولم يعملها فيصيبه ماأصاب عامليها . قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٣) وهذا جزاء ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإذا ترك العلماء الواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،وترك الأمراء

(١) سورة سبأ آية ٢٤

(٢)سورة آل عمران آية ١٤٤

(٣)سورة الأنفال آية٢٥

الواجب عليهم من الضرب على أيدى الظلمة والحكم بالعدل، سلط الله عليهم من لايرحم، كما حصل للأمم الإسلامية من تسليط العدو عليهم ومن خروج بعضهم على بعض . أسأل الله سبحانه أن يعلى كلمته، ويجددسنة نبيــه ﴿ ﷺ وآلــه﴾، ويجمع قلوب المسلمين على الصفاء والوفاء مجيب الدعاء .

﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَــانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

الضمير المستكن فى قوله تعالى : ﴿ كَانَتْ ﴾ جائز أن يكــون راجعــاً للكعبة أوللتولية، أوللصلاة، فإن أمر الله تعالى نبيه وأمته بأن يوجهوا وجــوههم فى الصلاة للكعبة أمر مقبول مطاع لأن الله تعالى له المشرق و المغرب . يكلف عباده المؤمنين بما شاء وبما أحب، ثم ينسخ الحكم بغيره ويأتى بحكم خير منه أو مثلــه، امتحاناً لقلوب عباده هل يطيعونه أو يرتابون ؟ فأهل الإيمان يكون منهم الســمع والطاعة والانقياد والتنفيذ، وأهل النفاق يكون منهم الشك والريــب والتــردد، وتحويل القبلة إلى الكعبة بعد بيت المقدس كبيرة عليهم، لأنهم أفسد الشيطان عليهم أمرهم فقالوا إن محمدا تحير فى دينه، وارتدوا عن الإسلام ،أعاذنا الله تعالى من سوء القضاء . وفى هذه الآية برهان ناصع على مشهد التوحيد الصافى من الشوب، لأن قوله تعالى : ﴿ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ دليل على أن الإنسان ليس لــه حول وقوة لأن يهتدى أو يضل . والله تعالى ينفذ ماسبق فى عملــه أزلاً . ومــن هداهم الله يشكرونه على نعمة الهداية، ومن أضلهم الله يكذبون نبيــه ويرمونــه بالحيرة فى دينه، ولا راد لقضاء الله تعالى عليهم . وهذا معنى قوله تعــالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بعد أن أمر الله تعالى رسوله﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه بأن يوجهوا وجوههم شطر المسجد الحرام، حزن رجال من الصحابة فقالوا : ماذا إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون قبل بيت المقدس ؟ وماذا نعمل فى صلاتنا التى صليناها قبل ؟ فطمأن الله قلوبهم وشرح صدورهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ والمعنى أن الله رؤف رحيم كريم، وهو الذى أمركم أن تصلوا جهه بيت المقدس وحفظ أعمالكم، وهو الذى أمركم أن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام ولم ينقصكم من أعمالكم السابقة والمستقبلة شيئاً، وإنما المراد منكم السمع والطاعة لأمره.

وفى تلك الآية مزيد علم بأن الإيمان عمل، لأنه تعالى يقول :﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾يعنى أعمالكم، وهومذهب أهل الحديث، لأن الإيمان عقيدة وأعمال وأقوال بدليل هذه الآية :﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وأحكام الله الناسخة لايجب على المسلم العمل بها إلا إذا بلغته بوجه صحيح، فإذا لم تبلغه ودام على الصلاة جهة بيت المقدس فصلاته صحيحة مقبولة، حتى يبلغه الأمر بالتحويل.

جاء رجل من الصحابة إلى إخوانه الصحابة فى مسجد قبا وهم راكعون فى صلاة العصر جهة بيت المقدس، فصاح الصحابى قائلا : أشهد لقد صليت العصر مع رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ موجهين وجوهنا شطر المسجد الحرام، فلم يرفع الإمام ولاالمأمومون رؤوسهم وداروا وهم فى الركوع حتى واجهوا الكعبة ثم رفع رأسه وأتم الصلاة، ولو رفع رأسه بعد الشهادة من الصحابى بطلت صلاته . والرأفة هنا هى أعلى مقامات الرحمة . وقد تقدم لك بيان الرحمن الرحيم، فمعنى الرحمن واسع الرحمة والإحسان فى الدنيا، ومعنى الرحيم المحسن إلى أهل الآخرة .

وفى هذه الآية الشريفة بيان يجعل الإنسان يطمع فى مغفرة الله تعالى لكل الناس، حتى من ظلم نفسه بالمعاصى، لأن الله تعالى يقول﴿ بِالنَّــاسِ ﴾ ولم يقــل بالمؤمنين، ففيها تنزل من الله تعالى ولطف ظاهر تنجذب به قلوب الناس إلى الطمع فى عفو الله ومغفرته، وفى الفوز بالنعيم " ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(١)

ومن فقه معنى هذه الآية يطمع فى فضل الله العظيم، وإن كان سياقها فى بيان حكم من عمل بالمنسوخ حتى بلغه نسخه فعمل بما أحكمه الله تعــالى، إلا أن الوسعة تقتضى الطمع والرجاء من الله تعالى، بدليل تأكيد الخبر من الله تعالى ب (إِنَّ) التوكيدية، وجعل الخبر عاماً للناس، ومن ذاق عرف .

قوله تعالى : "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" (١٤٤)

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَــوَلِّ وَجْهَــكَ شَــطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ"﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾بعبارة تدل على المواجهــة والخطــاب، طمأنينة لقلبه ﴿ ﷺ وآله﴾، ومسارعة فى الاستجابة له ﴿ ﷺ وآلــه﴾، فيقــول سبحانه، : "﴿قَدْ نَرَى ﴾ والرؤية تكون بمعنى العلم، وبمعنى البصر، فيعلمه ســبحانه وتعالى أنه يعلم من الأزل إلى الأبد ماعليه رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحال، ويــرى

(١) سورة الشعراء آية:٨٨ - ٨٩

سبحانه وتعالى من الأزل إلى الأبد حالة ابتهاله ﴿ ﷺ وآله﴾، وبين سبحانه حكمة تقلب وجهه ﴿ ﷺ وآله﴾ فى السماء أنها لتعيين القبلة التى يحبها وهـــى الكعبـــة المكرمة، وذلك لأنه﴿ ﷺ وآله﴾كان يرى بنور قلبه أن قبلته الدائمة هى الكعبـــة، وأن الله تعالى مأمره بأن يولى وجهه شطر بيت المقدس إلا لحكمة، فكـــان وهـــو بمكة إذا صلى صلى للكعبة مواجها بيت المقدس، فتكون الكعبة بينه وبـــين بيـــت المقدس، حتى هاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام، فكان يحب أن يجمـــع بـــين الكعبة وبيت المقدس فلم يتمكن لأنه بينهما، وجائز أن يكون تقلـــب وجهـــه فى السماء رغبة أن يجمع بينهما، وجائز أن يكون ذلك تضرعاً إلى الله تعـــالى فى أن يجعل قبلته الكعبة، فلباه الله تعالى وأخبره بأنه بأعينه وسمعه . وقد سبق فى علمـــه القديم أن يجعل قبلته الكعبة ثم أحكم حكمه سبحانة بقوله : ﴿فلنولينـــك قبلـــة ترضها ﴾ بلام القسم، وعينها سبحانه آمراً حبيبه﴿ ﷺ وآله﴾ بقو له : ﴿فَـــوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

وفى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ برهان على محبة الله له﴿ ﷺ وآله﴾ وكمال عنايته به، واختصاصه بمزيد فضله، وقد كان اليهود يقولون إنا بينا لمحمد قبلته وكان لايعلمها، وكان يكره ذلك ويكرهه أصـــحابه . وكـــان ﴿ﷺ وآله﴾ يحب أن يوجه وجهه إلى بيت أبيه الخليل إبراهيم وهممه صلى مؤيدة بروح القدس، فلا يهتم إلا بمراد الله الذى أراده أزلا، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾(١) فإذا كان نطقه بالوحى، فكيف تكون إرادته وهممه ؟ والقبلة التى يرضاها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يخبر الله عنها بأنها هى التى يرضـــاها الله جلـــت

(١) سورة النجم آية ٣

أسماؤه، لاتحاد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾بالله تعالى إرادة وأمرا، لأن الله تعالى صاغه من نور العزة بدليل مارواه الإمام التسترى بسنده قال : قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾: يقول الله فى الحديث القدسى" إنى خلقت محمداً لذاتى، وخلقت آدم لمحمد، وخلقت كل شىء لبنى آدم" وقد أكرمنا الله به فجعلنا خير أمة . وأقامنا مقام الأ نبياء بقوله تعالى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ و بقوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (١) وبأمره لنا كما أمر الأنبياء بقوله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ (٢) كل تلك الآيات دليل على أن الله أكرمنا ورفعنا على جميع الأمم السابقة، تعظيما لحبيبه محمد﴿ ﷺ وآله﴾.

﴿ وحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ بعد أن خاطب حبيبه ومصطفاه تفضل جل جلاله فخاطبنا خطاب القريب للقريب، فأنزلنا مترلة المقربين منه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وحَيْثُ مَا كُنْتُمْ ﴾ أى فى أى مكان كنتم إذا قمتم إلى الصلاة فولوا وجوهكم شطره، وإنما المقصود أ ن يجتهد المصلى حتى يحصل له اليقين بأنه وقف تجاه الكعبة ويصلى، وليفرض أن الكعبة ممتدة بحسب جهته من المشرق إلى المغرب أو من الجنوب إلى الشمال، وإن جبهته تواجهها بيقين، وبذلك تكون صحة صلاته، وإنما وحد الله جهة الصلاة بيانا لأننا أمة التوحيد، فوجوه المسلمين جميعا فى وقت الصلاة موجهة جهة واحدة وهى الكعبة، وقلوبهم موجهة جهة واحدة كعبتها ربها، أو البيت المعمور، أو وجه الله تعالى، بحسب مقامات الرجال . ومن تلك الإشارة يجب أن نشهد التوحيد فىكل شىء، فنجعل رضانا فى الله وغضبنا فى الله، وأعمالنا المعاشية فى الله، بحسب النية

(١) سورة الحج آية ٧٨

(٢) سورة هود آية ١٤

ورعاية الأحكام الشرعية فيكون المسلمون جميعا كأنهم جسد واحـــد، لايتحـــرك الواحد منهم إلانيل الرضا من الله وعن الله، وفى كل حكم من أحكام الشـــريعة كنوز، لو فتحت لجملت كل مسلم بجمال الله تعالى . منحنـــا الله العلـــم النـــافع وكشف لنا أسرار حكمة أحكام وأشهدنا غيبه المصون إنه مجيب الدعاء .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّـــا يَعْمَلُونَ ﴾

يبين لنا الله جل جلاله أنه سبحانه وتعالى أنزل على موسى وعلى عيسى فى كتابيهما صفته، ومولده، وأنه خاتم الرسل، وأن الكعبة تكون قبلته فى صـــلاته عليه الصلاة والسلام، ولكن اليهود والنصارى قبحهم الله تعالى حسدا من عنـــد أنفسهم أنكروا ماأنزل الله تعالى فى كتبهم، خوفا من ضياع سيادتهم، وطمعـــاً فى دوام سلب أموال الناس بالباطل، لأنهم لو كشفوا ماأنزل الله فى التوراة والإنجيل من الآيات المنبئة بفضله﴿ ﷺ **وآله**﴾ وآمن الناس بها لأصبحوا كالعامة بينهم، لأن دين موسى وعيسى عليهما السلام نسخا بالقرآن المجيد، وتأكيد الله تعالى الخبر عنـــهم بإن التوكيدية ولام القسم قصم لظهورهم، وحجة دامغة على كذبهم وفريتهم على الله تعالى، لأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم بالدلائل التى ذكرتها لك.

وشر الخلق أجمعين من علم عن الله أحكاما وغيرها وافتـــرى علـــى الله الكذب لينال حطام الدنيا الفانية . وقد قدمت لك أنهم كانوا يخبرون العرب عـــن ظهوره وقرب أيام بعثته ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ويهددونهم بأنهم سيكونون أنصاراً له بيقين لما علموه عن الله تعالى فى كتبهم المنزلة، ولكنهم بعد بعثته عليه الصلاة والســـلام

أنكروا عليه صلوات الله وسلامه عليه ماجاء به من عند الله، مما هو ثابت فى التوراة والإنجيل عندهم .. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (١)

وما من آية نزلت فى اليهود والنصارى أو فى مشركى العرب إلاجـرت بذيلها أهل النفوس النزاعة إلى الشر والعناد، فإنا نرى المسلمين خصوصا فى هـذا الزمان قد فرق بين قلوبهم الطمع، ففارقوا ماكان عليه السلف الصالح من التراحم بينهم، ومن التآلف والتوادد ومن صرف الأنفاس فى طلب العلم والعمل به ما ومن طلب المغفرة لنا ولمن سبقنا من سلفنا الصالح كما قال تعال فى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ (٢) فنرى أكثر الجهلاء يحقرون المعاصرين لهم من أهل العلم النافع، ويعظمون الموتى،ويصدون طلبة العلم عن العلماء العارفين كمـا فعل اليهود والنصارى بالأنبياء المعاصرين لهم، والمعاصـرة حجـاب، وكشـف الحجاب فى المعاصرة عناية الله تعالى بأحبابه . وقد هدى الله من أحبه من يهود بنى إسرائيل المعاصرين لرسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فبينوا الحق الذى أنزله الله فى التـوراة كما سيأتى .

﴿ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** ﴾ أى أن الله تعالى محيط بكل أعمـالهم القلبية والجسمية التى يؤذوننا بها، و ستكون عليهم حسرة يوم القيامة، حيـث لا ينفع الندم، ومحيط أيضا بما أقامكم فيه مما يحبه ويرضاه . وتكون الآية عما تعملون بتاء المخاطبة لنا جماعة المسلمين .

---

(١) سورة الزمر آية٢٣

(٢)سورة الحشر آية ١٠

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(١٤٥)

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾

يثبت الله تعالى على اليهود بعدهم عن الحق وحرمانهم من نيل الهدايـــة، ومن الفوز بالخير فى الدنيا والآخرة بقوله مقسما بدليل لام القسم . إنك يامحمد لو أتيتهم بكل آية بيانية، أو بكل آية من المعجزات ماوفقوالاتباع قبلتك ، لحرصــهم على السيادة فى الدنيا، ولعنادهم فى الحق عند مجيئه، ولما سبق فى علم الله تعالى لهم من الضلال والخزى فى الدنيا، ومن العذاب الأليم يوم القيامة، لذلك لايمكـــن أن يتبعوا قبلتك لأن الهادى هو الله وهم قوم بهت أهل عناد.

وفى تلك الآية تأييد لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وطمأنينة قلب له، ليتحقق صلوات الله وسلامه عليه أنه ماقصر فى دعوته، ولاعمل عملا يوجـــب عنـــادهم وبغضهم له ﴿ ﷺ وآله﴾ ولكنه قدر الله وإرادته الأزلية .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾

يخاطب الله تعالى حبيبه﴿ ﷺ وآله﴾ خطاب المؤانس بسماع كلام ربه، خبرا منه سبحانه وتعالى عما سبق فى علمه الأزلى من عصمته﴿ ﷺ وآله﴾ مـــن الوقوع فيما يخالف الحق جل جلاله، تشريفا لقدره﴿ ﷺ وآله﴾ وتعظيما وإيذانا من الله تعالى أنه﴿ ﷺ وآله﴾ بلغ من اليقين مبلغا بتأييد الله تعالى لـــه، وإظهـــاره صلوات الله وسلامه على حقيقة الأمر، حتى بلغ مبلغا كان يســـتحيل معـــه مخالفته لصغيرة من الدين أو كبيرة . وبدليل قوله تعـــالى : ﴿ وَمَـــا يَنْطِـــقُ عَـــنِ

الْهَوَى﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٢) وغيرها من الآيات . وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ (٣) برهان حق على مقامه﴿ ﷺ **وآله**﴾ عند الله تعالى، فاستحال شرعا بل وعقلا بعد تلك الحجج الناصعة أن يتبع قبلتهم بعد أمر الله بأن يوجه وجهه شطر المسجد الحرام . ومن كان الله مؤيده وناصره وموفقه كيف يعمل بالهوى أو بالحظ ؟ . هذا ما لا يتصور فى مؤمن كامل، فكيف يتصور فيمن خلقه الله من نور عزته، وجعله فردا لذاته، وأقامه مقامه فى الدنيا والآخرة بقوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ وأكرم لأجله أمته، وبايع لأجله رسله، ثم زاده سبحانه تأييدا بقوله : ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾لأن قبلة اليهود بيت المقدس، وقبلة النصارى جهة مطلع الشمس، وكل فريق منهم حريص على ما ورثه عن آبائه الذين أضلهم الله وأخزاهم، مع أن عيسى عليه السلام كان يوجه وجهه جهة بيت المقدس فى صلاته، ولكن النصارى أهلكهم الله عاندوا اليهود فى ذلك، لأنهم حاربوا عيسى بن مريم عليه السلام، ورموه بأنه ابن زنا، فتركوا الحق عناداً كما كذب اليهود عيسى عليه السلام عنادا . وإنما هى الأهواء والهوى أخو العمى كما قال على عليه السلام . ومن ظهر له الحق وعانده متبعا ما كان عليه آباؤه نحكم عليه بأن نفسه نفس يهودية أو نصرانية، فإن كل واحد من الناس مسئول عن نفسه وله عقل يميز به، فمن ظهر له الحق عقلا وشرعا وتركه كانت نفسه يهودية أو نصرانية وحرم

(١) سورة النجم آية ٣

(٢) سورة النجم أية ١٧-١٨

(٣) سورة الفتح آية ١٠

(٤) سورة الإسراء آية٧٩

حلاوة الإيمان، أو حرم المزيد من العلم بالله إذا كان على حق ودام عليه من غـــير عناد ولا محاربة لله ولرسوله ولأوليائه .

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

أظهر الله الحقيقة التى سبقت فى علمه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْـــتَ بِتَـــابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ وهى وعد من الله تعالى بحفظه﴿ ﷺ **وآله**﴾، وعصمته من الوقـــوع فى مخالفة ربه جل جلاله، وبشرى من الله لحضرته﴿ ﷺ **وآله**﴾ بتأييد الله لـــه . وفى هذه الآية الأخرى بيان لإطلاق حضرة الربوبية، وكمال أدب العبودية لله تعـــالى، ويظهر أنه سبحانه وتعالى يخاطبنا فى ذات حبيبه ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فإذا نحن سمعنا قوله تعالى لمصطفاه المعصوم : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ كيف نكون نحن ولاعصمة لنا ؟ لايكون لنا إلاالاستعاذة بالله والالتجاء إليه من الوقوع فى معصيته . وتلـــك الآية الشريفة أثبتت لنا عبودية رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وحفظت قلوبنا مـــن أن نشهد فيه قداسة أو نزاهة، بل نشهد أنه عبد الله ورسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وبـــذلك نجاتنا يوم القيامة .

وبذلك جعلنا الله خير أمة لتفريدنا ذاته العلية بالألوهية، وبشهادتنا لحبيبه ومصطفاه بالعبودية لذاته . ومن أثبت العبودية لرسول الله﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾ كيـــف يعتقد أن عبداً من أمة محمد ينفع أو يضر بعد اعتقادنا أن رسول الله عبد أكرمه الله تعالى بالرسالة وأكرمنا به ؟. فالله تعالى بعد أن أثبت عصمته من الوقوع فى اتباع قبلة اليهود أو النصارى، بين لنا كمال إطلاقه ليدوم خوفنا منه ســبحانه، ودوام مراقبتنا لجلاله العلى، ولطهارة قلوبنا من أن نرى مخلوقا إلها أو نافعا أو ضارا .

افتتح الله الجملة بلام القسم المؤكدة، وأتى بإن الشرطية بعد لام القســـم فكانت كلمة ﴿اتَّبَعْتَ ﴾ فعل الشرط وكان جواب القسم الذى سد مكان جواب الشرط هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾وجائز أن تكون إن بمعنى لو . وهذه الآية مع مافيها من الشدة هى خير للمسلمين جميعا، لأنهم بفهمهم تلك الآية انكشفت لهم أنوار وعظمة الحق، وأسرار تفريده بالعبادة دون غـــيره، وانجـــذبت قلوبهم إلى طاعة أمره وظهرت لهم مكانة رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ عند الله، فميزوا بين الحضرتين، فرأوا رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ إماما هاديا مقصودا، وشهدوا أن الله إلهاً واحداً معبوداً .

نعظم رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فى قلوبنا بقدر مانلناه منه﴿ ﷺ وآله﴾ من الفوز بالسعادتين، فإن الأنبياء قبله أهلكوا أممهم بما أظهروه من المعجـــزات الـــتى جعلتهم يزعمون أنهم آلهة، أو أبناء الآلهة كما قالت اليهود فى عزير، وكما قالـــت النصارى فى المسيح . ونحن أمة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، مع طول الزمان وبعد المكان وكثرة المعجزات الباهرات له ﴿ ﷺ وآله﴾، ومع بقاء القرآن طريا نضرا، تتجدد بركاته كلما كرر، وأنواره كلما تلى، وأسراره كلما شرح . ولا يزال ولن يـــزال يظهر للمسلمين من فضل الله رجال يكشفون أسراره ، ويبينون أنواره، ويجـــذبون القلوب إلى غيبه المكنون، وسره المصون، وما من مسلم سمع بيان القـــرآن إلا فـــر بقلبه وجسمه إلى الله تعالى، متبعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأنه يرى أن لا نجـــاة إلا باتباع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وبفهم كلام الله تعالى .

وإنا لنرى أن العالم كلما اشتدت الظلمة عليهم، وساد الجهـــال بينـــهم، وخفيت معالم السنة أقام الله عبداً من أحبابه فأقام الحجة وبين المحجة، وجمع عبـــاد

الله على الحق، حتى تشرق أنوار الكتاب والسنة، وتضمحل البدعة وأهلها . وهذا معنى حديث على عليه السلام فى دعائه : (اللَّهُم لا تُخلِ الأَرضَ مِنْ قَائمٍ لَكَ بِحُجَّـةٍ، إمّا ظَاهراً مشهوراً أو باطناً مستوراً لِئلاَّ تَبطُلَ حُججُ اللهِ وبيناتُـه) . وإن كـان الرجال قليلا، إلا أن الله ينفع بهم الكثير من أمة محمد ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾، فقد يجمع الله الأمه برجل يظهر بعد أن تملأ الأرض جورا وظلمة، حين ترى العلمـاء يتبعـون الأهواء،فيخدمون الملوك والأمراء ولو كانوا كفارا، وترىأدعياء الطريق يـدعون العامة بجهالتهم إلى مالا ينفعهم بعمل البدع المضلة، وإثبات النفع والضر إلى رجال موتى يلفتون أنظار الناس بهم إلى غيررسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾، حتى ينسى النـاس السنة، وينسون رسول الله﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ برجال قد يكونون مـاتوا علـى غـير الإسلام، يتبعونهم لا للحق ولكن للشهرة والطمع، فإنهم لو أحبوا الحـق لاتبعـوا العالم العامل بعلمه، المتمسك بالكتاب والسنة، وكيف بعد سماع تلك الآية التى الله فيها لحبيبه : (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّـكَ إِذًا لَمِـنَ الظَّالِمِينَ) نترك سنة رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾، ونتع أهواء العلماء بالدنيا الجهـال بالآخرة وأهواء أهل الطريق الجهلاء بدين الله وبكتابه وسنة رسوله ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾.

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾﴿١٤٦﴾

﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ هم اليهود وقوله﴿يَعْرِفُونَـهُ﴾أى يعرفـون الحكم بالتحويل إلى الكعبة أنه حق لأن الله تعالى بينه فى التوراة بيانا شافيا وجـائز أن نقول يعرفون الحكم فى استقبال الكعبة، ويعرفون رسول الله﴿ صلى الله عليه وسلم **وآله**﴾ كما يعرفون أبناءهم، وق ورد أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام بعد إسلامه عن رسول الله﴿ صلى الله عليه وسلم **وآله**﴾ فأقسم أنه ليعرفه كما يعرف ولده أو أكثـر لأنى لا

أحكم بالعصمة على امرأتى ولكنى أصدق الله فيما أخبرنى به عنه﴿ ﷺ **وآله**﴾ فى التوراة فقبله عمر وهو من أحبار اليهود . وقد أخبر بذلك تميم الدارى أيضا، فمن اجتباهم الله من أحبار اليهود يعرفون رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ واستقبال الكعبة كما يعرفون أنباءهم وأكثر .

وتلك الآية لاتعارض قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾لأن كل عام له خاص .

ولايمنع أن يؤمن برسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ بعض اليهود بدليل تلك الآيــة : ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. أتى بالجملة مؤكدة (بـإن) وأكـد خبرها باللام وأتى به مضارعا ليفيد دوام الإنكار من كل يهودى معاصر لرسـول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ ومن بعده. ولايكون الكتمان إلا بعد العلم ولكن أتى بالجملـة الحالية وهى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بيانا لبهتانهم وتشنيعاً عليهم وتبكيتـاً لهم يعنى : (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) نعت محمد﴿ ﷺ **وآله**﴾ وزمانه وقومه . وأن الكعبـة قبلتهم، وأن يثرب دار هجرته و وأنه من أولاد إسماعيل عليه السلام، وأنه خاتم الأنبيـاء ومع هذا كله كتموا تلك الأ سرار عن عامتهم . وإنى مبين لك ذلك بتفصيل .

قدم أحبار اليهود على رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ فسألوه عن الروح، وعما يترع بالولد إلى أمه أو إلى أبيه، وعن أول طعام أهل الجنة، فأخبرهم ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فاعتقدوا أنه المنعوت فى كتاهم وقاموا من بين يديه﴿ ﷺ **وآله**﴾ وقلوبهم منجذبة إلى الإسلام، ثم توجهوا إلى كعب بن الأشرف وهو أغنى اليهود، وكان يعطـيهم أوسقا من التمر صدقة، فلما حضروا عنده غضب عليهم وأخبرهم أنه حرمهم من عطاياه، فسألوه عن سبب ذلك فقال لهم لأنكم صدقتم هذا السـاحر، فسـلب

الطمع إيمانهم وقالوا لا..إن نبى آخر الزمان من ولد إسحاق، وإنا لم نر فى كتبنا ذكر محمد ولا أن إسماعيل يلد نبيا، وأخذوا أوسق التمر وسافروا وافرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وكذبوا على الله وعلى نبيهم موسى ﷺ . وأمثال هؤلاء الأحبارهم الذين يعنيهم الله تعالى بقوله : ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٤٧)

يخاطب الله نبيه بقوله ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى هذا هو الحق من ربك فاتبعه واعمل به، ولاتكونن من الممترين أى المرتابين الشاكين . وفى تلك الآيات مافيها من بيان كمال العزة الإلهية وكمال إطلاقه سبحانه وتعالى، وأن كل من فى السموات والأرض آتيه عبداله سبحانه، وبيان كمال العبودية لرسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ وهذا الخطاب مخاطب به رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ .والمقصود به الأمة، لأن العصمة تقتضى استحالة الشك منه والريب، وإنما ذلك قد يكون منا نحن ، لأن يقين رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ فوق كل يقين . وأما نحن فيقيننا بقدر مااتضح لنا من الحجج والدلائل التى نحصلها بتلقى العلم من العلماء العاملين بكتاب الله وسنن نبيه﴿ ﷺ **وآله**﴾

وأما من لم يتلق هذا العلم ولو حصل أمثال الجبال من العلوم، وعبد عبادة إبليس، فإنه لايخشى الله إلا عند نزول الفتن أو الأهوال المحيرة . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1] وفى رواية برفع الاسم الشريف، وعلى الروايتين فإن الخشية لاتكون إلامن العلماء الذين أطلعهم الله على مكنون غيبه،

(١) سورة فاطر آية ٢٨

فخشعت قلوبهم أمام الحق جل جلاله، وكذلك التعظيم من الله لايكون إلاللعلماء الذين جملهم بالأدب لحضرته العلية. فإن الخشية من معانيها التعظيم تصحيحاً لمعنى رواية رفع الاسم الشريف، ودليل قوله تعالى: ﴿ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُـــونَ ﴾ فأثبت لهم العلم بالأحكام والأكوان، ونفى عنهم العلم بـــالله وبأيامـــه وبحكمـــة أحكامه الذى يوجب الخشية فى القلوب، فإذا كان العالم بالله وبأيامه وبأحكامـــه وبحكمة أحكامه ، لو أحاطت به الفتن ماخطر على قلبه خاطر يبعده عن مراقبـــة الله، والخشية منه جل جلاله، لأنه ساكن النفس ومطمئن القلب بـــالله ســـبحانه، فكيف يكون ذلك لمن بايع الله له الرسل أزلا؟ ومن أقامه الله سبحانه مقامه فى بيعة الرضوان لأصحابه فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّـــهَ ﴾[1] وقال تعالى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[2] تلك البيانات والحجج الناصعة جعلت العلماء يؤولون تلك الآية، بأن الخطاب للأمـــة فى ذات رســـول الله ﴿ﷺ وآله﴾، زادنا الله تعالى علماً وأيدنا بروح منه حتى نفقه معانى كلامـــه ونشـــهد سرتنزيله .

قوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨)

التنوين فى قوله : "كل" بدل عن محذوف ملحوظ، والمحذوف أهل ملـــة . والمعنى لكل أهل ملة وجهة هو موليها كما دل التنوين فى قوله تعـــالى: ﴿ وَأَنْـــتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾[3] أى يوم إذا بلغت الروح الحلقوم تنظرون الحقـــائق . قولـــه

(١)سورة الفتح آية ١٠

(٢) سورة النساء آية ٨٠

(٣) سورة الواقعة آية ٨٤

تعالى:" وِجْهَةٌ " يعنى قبلة، فلليهود بيت المقدس، وللنصارى جهة المشرق، وأنتم وجهتكم بيت أبيكم إبراهيم وهى الكعبة المشرفة . وكانت قبل إبراهيم يحجها الملائكة والأنبياء، وقد كانت فى زمان نوح ربوة فوق الماء كأنها لؤلؤة بيضاء وقد حجها آدم فمن بعده، حتى أمر الله إبراهيم بجعلها بيتاً بعد أن أخفى أثرها، فجعل الله سبحانه بقدر البيت وأمر إبراهيم أن يبنى على حدودها، وهى كعبة الملائكة والأنبياء والمرسلين . ولكن الله أضل اليهود والنصارى عنها كما أضلهم عن يوم الجمعة التى جعلها الله يوم عبادة، فاتخذ اليهود يوم السبت وأتخذ النصارى يوم الأحد، وهدانا الله إلى اليوم المحبوب لحضرته وهو يوم الجمعة .﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أمر من الله تعالى أن نجعل الكعبة قبلة لنا لنفوز بخيرات الدنيا بالهداية فى الصلاة إلى جهة الكعبة، ونفوز بخيرات الآخرة بأن نكون مع الأنبياء والمرسلين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فإن من أحب أحداً حشر معه .

أتى رجل من الصحابة رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : يارسول الله إنى أحبك ولاأعمل كعملك فقال﴿ ﷺ وآله﴾ المرء مع من أحب، فقال : إنى أحبك يارسول الله، فقال : المرء مع من أحب، فأعادها فقال﴿ ﷺ وآله﴾ : المرء مع من أحب . أنت مع من أحببت ولك مااحتسبت) قال العارف : إن المحب لمن يحب مطيع . والمحبة تقتضى السمع والطاعة . ومن أحب رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ سمع منه وأطاع فكان معه فى الدنيا والآخرة . وفى قوله تعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ أمر من الله تعالى لنا أن نسارع فى الأعمال الصالحات فى تعيين الكعبة عند إقامة الصلاة ومن كثرة نوافلها ومن السعى للكعبة للطواف بها .

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

بعد أن بين الله لنا كعبتنا التى رضيها لنا، وقصم ظهور اليهود والنصارى بالحجة، وجللهم بالخزى والبهتان الذى هم أهله، ذكرنا سبحانه وتعـالى بيـوم القيامة، وبين لنا عجائب قدرته، أنه يجمعنا من أى مكان نكون فيه وقد شـرحت فى كتاب : (النشأة الثانية) مابينه رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ من الأواسـط الـتى جعلها للحياه الثانية، كما ورد ذلك بالرواية عن على بن أبى طالب فى حديثه الذى يقول فيه : (إن الله يترل مطراً من السماء كالمنى أربعين يوماً، أو شهراً أو سنة) لم تصح الرواية بتعيين واحد منها، ثم يرسل أربعة رياح فتعتقم الأرض بعد أن تذوب حتى تكون سائلة . ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ [(١)] وارتجاف الأرض يكون بتلاطم رياحها، لأن كل ريح من جهة من جهات الأرض وتكون الجبال يومئذ كثيباً مهيلاً أى رملاً متهايلاً.

أبين لك ذلك الحديث : يريد على عليه السلام أن السماء تمطر مـاء كمـنى الرجال فيعلو سطح الأرض جميعها، فتذوب فيه حتى تكون كالعجينـة السـائلة وتعتقمها الرياح من جهاقا الأربع، فترجف الأرض رجفا يعنى يتداخل بعضها فى بعض، فكل جسد من أجساد بنى آدم كان فى البر أو البحـر تتقابـل أجـزاؤه فينجذب بعضها إلى بعض . فقد تكون الرأس فى الشـام، والجسـد فى مكـة، والأطراف فى البحر، وعند رجفة الأرض تداخل بعضها فى بعض تلتقـى تلـك الأجزاء المتفرقة فيجمع الله بعضها على بعض بحكمته وقدرته، حتى يكون الإنسان كما كان فى الحياة الدنيا . وقد فصلت لك أيها القارىء هذا الإجمال فى كتاب : (النشأة الثانية) [(٢)] فراجعه إن شئت

---

(١) سورة المزمل آية ١٤.

(٢)هذا الكتاب موجود بمكتبة دار الكتاب الصوفى لمشيخة الطريقة العزمية ١١٤شارع مجلس الشعب

فظهر أن الله يأتى بجميع بنى آدم على ماكانوا عليه فى حياتهم الدنيا حتى يعيد لهم " الغرلة " أى لحمة رأس الذكر التى تقطع عند الختـــان، وذلـــك لأن الله تعالى يحب أن ينعم الأعضاء التى جاعت بالصوم فى حبه، وسهرت الليل فى طاعته، ونالها الألم والتعب والقطع بجهادها فى سبيله، والأعضاء التى آثرت بنعـــيم الـــدنيا غيرها، ورضيت بالعناء والتعب والشقاء فيها، حتى يتجلى ملكا حكمـــاً عـــدلاً متفضلاً وليؤنس الأرواح التى جاهدت مع الأشباح فى الإقبال بها على الله تعـــالى، مع كثرة دواعى الشهوة والتروع إلى الطمع والانتقام والحرص .

وهذا نص القرآن المجيد، لأن الله تعالى أخبرنا بأن فى الجنة أنهارا متنوعة، وفيها أشهى الأطعمة، قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْـــوَاب وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنْفُسُ وَتَلَذُّ الأعْيُنُ ﴾ (١) وقال تعالى :﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْـــدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَاب و أَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَوَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُـــؤِ الْمَكْنُـــونِ ﴾ (٢) وهذا كله لايناسب الأرواح، لأن الأرواح لاتأكل ولاتشـــرب ولاتـــنكح . وإذن فالروح والجسم يبعثان ويحشران ويتنعمان فى الجنة . ومن قال إن البعث للـــروح فقط فقد أنكر مأنزله الله على محمد﴿ ﷺ **وآله**﴾.

ولعلم الله تعالى أن النفوس الخبيثة الإنسانية التى لم يهب الله لها نوراً تفقه به عن الله كلامه لاتؤمن ببعثه الأشباح فأيد الله تعالى خبره بقوله :(إِنَّ اللَّهَ عَلَـــى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)يعنى أن قدرة الله تعالى استعلت على إيجاد مالا يمكن للعقـــل أن

(١)سورة الزخرف آية ٧١

(٢)سورة الواقعة آية ١٧ – ٢٣

يتصوره . وماللعقول ولقدرة الحى القيوم : العقول تعقل الكون ومافيه، فلا يمكنها أن تصل إلى الغيب المصون فتدركه . قال تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِــنِّ وَالْــإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَــارِ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُــذُوا لا تَنْفُــذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يتفضل الله تعالى تنــزلا من حنانه علينا فيبين لنا مناسكنا كل البيــان، فيخاطب حبيبه﴿ ﷺ **وآله**﴾ لأنه المبلغ عن الله أوامره ونواهيه، فيقول سبحانه، " ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾" أى من أى مكان خرجت إلى مكان بعيد عن الكعبـــة، وقمت للصلاة فول وجهك شطر المسجد الحرام، وفى قوله : " شَطْرَ " وسعة لنا، لقيام الحرج بنا إذا أوجب علينا سبحانه أن نجعل الكعبة تجاه وجوهنا فى الصـــلاة، فقال تعالى:﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى جهته، والواجــب علينــا الاقتداء برسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ولكن أراد أن لايجعل عذرا لمتساهل، فقد يقول المتساهل: هذا أمر خاص برسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ ونحن نترك الصلاة مادمنا بعيدين عن الكعبة حتى نرجع إليها كما يفعل اليهود، فبين الله لنا كل البيان تفصيلا بقوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أكد هذا الأمر سبحانه وتعـــالى بتلك الآية المفتتحة بإن التوكيدية، المؤكدة بلام القسم أيضا طمأنينة لقلب رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ وتأييداً لنا، يعنى أن تحويل وجوهنا فى الصلاة إلى الكعبة هو الحق

---

(١) سورة الرحمن آية ٣٣

الذى جاء لرسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ من ربه . وفى هذا الخطــاب مــن التعظــيم لقدره﴿ﷺ وآله﴾ مالا تصل العقول إلى غيبه المصون . وقوله تعالى: " ﴿وَمَا اللَّــهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ عناية من الله تعالى بالمسلمين الذين ظنوا أن صلاقم قبل بيت المقدس لم تقبل، وأن صلاة إخوالهم الذين ماتوا قبل تحويل القبلة لم تقبل، فشـــرح الله صدورهم بقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى أن الله تعالى أحـــاط علمه بأعمالكم االتى أمركم بها من تولية وجوهكم إلى بيت المقدس، وتوليتها بعد إلى الكعبة كما أمر الله تعالى، والله لايينسى ولن ينسى . قال سبحانه : ﴿ فَمَـــنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1] والخير هو كل عمل يأمر الله تعالى به سواء نسخه أو أحكمه كما فى القبلة.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلا الَّــذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُــمْ تَهْتَــدُونَ﴾(١٥٠)

تقدم شرح : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَــكَ شَــطْرَ الْمَسْــجِدِ الْحَرَامِ﴾وليست هذه الآية مكررة ولكنها فى موضعها الحقيقى، ليبين لنا بياناً مرتبا عليها، وهو قوله تعالى : ﴿ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُــوهَكُمْ شَــطْرَهُ﴾حتى يرفع قدرنا سبحانه عنده يجعلنا مأمورين بما أمر به رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وليعلمنا سبحانه وتعالى أنه واجب علينا التشبه به فى كل مايأمره الله تعالى به، إلاماىبين لنــا أنه من خصوصياته، كأمره بقيام الليل، وأمره سبحانه له بقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ

---

(١) سورة الزلزلة آية ٧ـــ٨

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1] وبأمره سبحانه لـه بأنـه ينكح ﴿ﷺ وآله﴾ من أباحهن الله له بعد تعيين ماأباحه للمؤمنين . وأما ما عدا ماخصه الله سبحانه به ﴿ﷺ وآله﴾، فالواجب على آل العزائم أن يتشبهوا به فى كل ذلك بدليل هذه الآية . وقد بينا تولية الوجوه شطر المسجد الحرام فيما تقدم .

﴿لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

الناس هنا هم اليهود، وكانت حجتهم قولهم إنا بينا لمحمد قبلته فكيف لايدين بديننا، وقولهم بعد التحويل إلى الكعبة : ﴿مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

وقول كفار قريش إن محمداً رجع إلى بيت أبيه وسيرجع إلى ديننا و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الذين استثناهم الله تعالى هم أهل النفوس العنادية الذين لايؤمنون بالله ولابرسوله ولاباليوم الآخر. وهم كما أخبرنا الله عنهم أنهم اليهود والنصارى وكفار قريش

﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾

يطمئن الله قلوبنا بأنه سبحانه وتعالى يعصمنا من شرورهم، ويحفظ عقولنا من الميل إليهم بما يودعه فى قلوبنا من العلم به، الذى نتلقاه عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فإن الخشية من صفة القلوب، والقلوب لاتخشى إلا من عرفت . ولو جئت بطفل صغير ووضعت أمامه النار لهم بقبضها لجهله بها . أما العارف فإنه

(١) سورة الأعراف آية ١٩٩

يعرف أنها تحرقه، وكذلك من جهل الله تعالى تعدى حدوده . ومن عرف الله تعالى تأدب لأمره ونهيه . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (1) .

وهنا إشارة . يقول الله تعالى :﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ ﴾ لأنىجعلت قلـــوبكم معمورة بعلمى، وكل قلب عمرته بعلمى كلا على قدر يقينه فصار لايخشـــى إلا الله، ولايسأل إلا الله . وفى ذلك بشرى لأهل الإيمان بالله تعالى أنهم مـــع النبـــيين والصديقين والشهداء، لأن قوله تعالى : ﴿ وَاخْشَوْنِي ﴾ أمر صادر عـــن قـــدرة وحكمة، والكلمة فى قوة كلمة﴿كُنْ ﴾فإذا سمعت قلوب أهل الإيمان هذه الكلمة صغرت فى أعينهم الدنيا وما فيها ومن فيها . رزقنا الله اليقين الحق إنه على كـــل شىء قدير .

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾

ليست منسوخة بقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فإن تلـــك الآية تدل على تمام النعمة علينا بجعل الكعبة قبلة لنا فى الصلاة . وأما قوله تعـــالى :﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أى أصوله وفروعه إلى يوم القيامة . وتمام النعمة الموت على الإسلام . وقال بعضهم : تمام النعمة دخول الجنة . وقال آخرون : تمام النعمة الفوز برضوان الله الأكبر .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

أى لتهتدوا بعدبيان الله لكم مناسك الصلاة . ولعل وعسى فى القـــرآن بمعنى اللآم، لأن عسى ولعل فى غيرالقرآن تفيد جهالة المتكلم بالمســـتقبل، يقـــول

(1) سورة فاطر ٢٨

عسى أن يحصل لى كذا متردداً فى الخبر، ولكنها من الله تعالى للوقوع فقوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى لتهتدوا . والهداية أنواع :

١- الهداية العامة وهى هداية الله تعالى كل نوع من خلقه إلى ماينفعه، قال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (١) فهدى الأطفال إلى الرضاع من أول ولادهم وهدى الطيور إلى التقاط قوها من الأرض من أول فقسها.

٢- هداية البيان وهى من الأنبياء وورثتهم، بدليل قوله تعالى: " وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "(٢)

٣- هداية الإحسان وهى من الله تعالى، قال سبحانه : "﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٣)أى يحسن إلى من يشاء بالهداية فليس لعارف بالله ولالنبى ولالرسول أن يهدى من أحب هداية إحسان .

٤- هداية الدخول فى المكان . قال تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (٤)

فقوله تعالى : ﴿ **وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ أى لتهتدوا هداية الإحسان من الله تعالى.

(١)سورة الأعلى آية ١-٣

(٢) سورة الشورى آية ٥٢

(٣) سورة القصص آية ٥٦

(٤) سورة الأعراف آية ٤٣

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١)

كشف الله الحجاب عن بصائر من اجتباهم للعلم به، وجعلهم من السعداء بدعوة الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام لنا جماعة المسلمين . وأتم سبحانة نعمتة علينا ببعثة رسول الله صل، وبتعيين الكعبة قبلة لنا .

وسيتم نعمته علينا يوم القيامة بالفوز برضوانه الأكبر، وبالنعيم المقيم فى الملك الكبير، كما أتمها علينا بإرسال حبيبه ومصطفاه﴿ ﷺ **وآله**﴾ لنا .

قوله تعالى: ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا** ﴾ جار ومجرور متعلق بقوله : (**وَلِأُتِمَّ** ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ مزيد عناية وعطف بنا، إذ جعله منا، نسمع منه فنفقه ونشهد أعماله فنتشبه به، ونألفه﴿ ﷺ **وآله**﴾ لأنه منا، فله سبحانه وتعالى المنة العظمى بجعلنا من أمته ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وبجعله منا حتى يكون لنا كمال الشرف من الله تعالى بإقامتنا مقاماً جعل منا أفضل رسله، وأكرمنا به بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس، وأن أقامنا مقام رسله الكرام، وأيدنا بإنزال الملائكة لنصرتنا على عدونا، ويكرمنا يوم القيامة بأن ينصر بنا رسله السابقين بشهادتنا لهم على أقوامهم .

ثم تفضل بالمزيد من فضله علينا بأن وصف رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ الذى بعثه إلينا بأنه يتلو علينا آياته. وتلاوة الآيات هى أن يسمعنا كلام الله تعالى، وأن يبين لنا مافى الكون من بدائع إبداع آيات الله الدالة على قدرته وحكمنه، وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ فيه تعظيم لحضرة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، حيث

أقامه سبحانه وتعالى ليتلو الآيات المضافة إلى ضمير المتكلم بلفظ (نَا) الدالة علـــى العظمة، التى يدل معناها على أن الآيات التى تتلى هى ألفاظ الكتاب العزيز، وبيان أسرار الكون مما ظهر للأبصار والعقول، وماغاب عنهما، حتى تحصل لنا الطمأنينة فيكمل اليقين كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُـــوتَ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[1] وبيان الآيات الكـــبرى بعبـــارات الصـــادق كرؤيتها بالعيان من حيث حصول اليقين الحق بها .. قال على علي السلام .. " لو كشف الحجاب ماازددت يقينا" كأنه يقول : إن سماع أخبار الحقائق الغيبية مـــن الصادق كرؤيتها .. ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ الزكاه فى اللغة هى الطهرة، والمراد هنـــا والله أعلم هو تزكية نفوسهم بما يشرحه﴿ ﷺ **وآله**﴾ لنا مـــن أســـرار النشـــأة الأولى والثانية، وبيان حكم الله فى إيجادنا وإمدادنا، وبيان آيات الله الخفية الـــتى لاتعلـــم ولاتشهد إلا ببيانه ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وبعد التزكية أى التطهير تكون النفس مؤهلـــة لتلقى أسرار التوحيد العالية، وتكون قابلة لمواجهة وجه الله تعالى.

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ذكرالتعليم بعد التزكية وبعـــد تـــلاوة الآيات، ليعلمنا الله تعالى كيف نعلم الناس، فنبتدىء أولاً بتلاوة الآيات، ثم نقـــدم الوسائل التى بها تزكو نفوسهم، ثم نأخذهم بالعلم على قدر عقولهم، حتى يحصلوا من العلم مابه تخشى قلوبهم من الله تعالى، والكتاب هو القرآن المجيـــد، وتعليمـــه كشف أسراره وبيان حكمه، وعلم الهيئات فى الأحكام الدالة على العبادة بتفصيل المجمل منها بالعمل، حتى تكمل النفس ويكمل الجسم :﴿وَالْحِكْمَةَ ﴾ الحكمة هى أقوال رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ وأعماله وأحواله التى يتذوقها من سمعـــوا الـــتلاوة وزكت نفوسهم، وتعلموا الكتاب .

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٥.

والظاهر عندى أنن بلوغ الكمال المطلوب فى نيل الفوز برضوان الله تعالى مرتب على تلك الحقائق . وإن كانت الواو لاتقتضى ترتيباً ولا تعقيباً وقد سبقت تلك الآية فى دعوة الخليل عليه السلام فكانت كلمة : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[1] فى آخرها، ولكن تلك الآية هى من كلاّم الله تعالى وليست خبراً عن غيره كالآية السابقة التى هى خبر عن الخليل إبراهيم عليه السلام، والحكمة التى يعلمنا إياها رسول الله﴿ صلى الله عليه وسلم **وآله**﴾ هى الحكمة النظرية، التى بها تقوى النفس بعد طهارتها فتسوح فى عالم الملك والملكوت، وقد تشرف على حضرة العزة والجبروت . والحكمة العملية وهى الجامعة لهيئات العبادات صلاة وصوما وزكاة وحجا، وبذلك يكون المسلم خليفة ربه فى أرضه، يقوم لله بما فرضه عليه من أركان الإسلام، ومن حسن المعاملة والمبادلة، ومن جمال الأخلاق، فيكون غيثا هاطلا على الأرض لينفع إخوته المؤمنين، ولتجديد السنة، وإعلاء الكلمة بما منحه الله من العلوم والصناعات والفنون، وسياسة المجتمعات الأربعة المترلية، والقروية، وسياسة المدن والمجتمع الإسلامى العام.

﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ من العلوم التى لاتحصلها العقول ولاالأبدان، وتلك العلوم نوعان : نوع عملى ونوع شهودى، أما العملى ك فما يتعلق بالواجب على الإنسان لله، والواجب عليه لوالديه، ومن يليه فى مترله، ولجيرانه، ولأهل بلده، وللمسلمين جميعاً أين كانوا . وأما الشهودى: فإن الإنسان لايمكن أن يعلم، مايحبه الله تعالى ويرضاه منه سبحانه بالعقل ولابالجسم، ولكن يحصل تلك الأسرار من رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم **وآله**﴾، وهى الحكمة العالية فى بعثة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وإن كان المجتمع الإسلامى لايهتدى

(١) سورة البقرة آية ١٢٩

إلى خير معاشه ومعاده إلا بالرسل، إلا أن تلك العلوم العالية التى ليس للعقــل أن يحصلها، لأن العقل معقول بالقول، قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِـنِّ وَالْـإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ ﴾ (١)

ولو أن الإنسان يمكنه أن يحصل بعقله محاب الله ومراضيه لكانت بعثة الرسل عبثا وقد ورد أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام فقالوا : يا كليم الله سل ربنا يبين لنا ما يرضيه عنا لنجاهد أنفسنا فى ذلك، فسأل موسى عليه السلام ربه قائلا : رب أنت أعلم بسؤال عبادك، بين لنا ما يرضيك عنهم من الأقوال والأعمــال، فقــال الله لموسى : " يا موسى إنهم لا يطيقون ذلك " فقال : " رب بينه وتفضل علينا " فقال الله له " الذى يرضيني عنهم هو رضاهم عنى " فرجع موسى فرحاً جزلاً وأخبر بنى إسرائيل ففرحوا جميعا وقالوا : رضينا عن الله تعالى . فما مضت أيام إلا وغضــبوا على الله تعالى فقالوا : يا موسى لن نصبر على طعام واحد، وكان قــوتهم المــن والسلوى وهو خير طعام فى الدنيا، يأتيهم الله به من غير مشقة، ولا تعب، وكانوا فى بلاد مصر فى ذل العبودية لفرعون وقومه، يأكلون القديد، وينامون على الخشن، ويشربون الماء الآسن، حتى كان الواحد منهم يتمنى أن يمضى عليه اليوم فى أمــن وفى تيسير قوت فلا يجد . فصدق الله العظيم، وكذب بنو إسرائيل لأنهم لم يطيقوا عمل ما يرضى الله عنهم وكيف لا ؟ وقد جعل رضاه سبحانه عنهم فى رضــاهم عنه فسخطوا على خير عطائه وقالوا : ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ (٢)

(١) سورة الرحمن آية ٣٣

(٢) سورة البقرة آية ٦١

فأستبدلوا الخبيث بالطيب، وحكموا على أنفسهم أهم ليســوا مــن أهــل رضوان الله تعالى ،كما قال تعالي : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ وكأنه سبحانه يقول ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾بأنفسكم . من علم النفس وعلو التوحيد والغيب، وعلوم ما فوق المادة إلى أن تعرفوا الله تعالى، فتكونون معه ويكون سبحانه معكم .

قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢)

هذا مقام كشف يجذب القلوب إلى علام الغيوب حبا فى إحســـانه العلـــى المتوالى لنا، لأنه خصنا بالخطاب في هذه الآية، بعد أن بين ما تفضل به علينـــا فى الآيات السابقة . ففى تلك الآية خصوص لاختصاصها بنا دون غيرنا . بعين ذلك سياق الآيات السابقة، فإنه سبحانه بين أننا خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، واننا نكون شهداء لأنبيائه ورسله يوم القيامة وأننا دعوة الخليل عليه السلام، و أنه سبحانه أتم علينا نعمه بتعيين الكعبة قبلة لنا، وبإرسال حبيبه ومصطفاه لنا، وببيان ما أجراه الله لنا من الفضل عل لسانه ويده﴿ ﷺ **وآله**﴾ مــن تــلاوة الآيات، ومن تعليمنا الكتاب والحكمة، وتعليمنا ما لم نكن نعلم . إذن يــتعين فى قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي ﴾

الذكر الذى يرضيه سبحانه، فإن قوله ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ في هذه الآية يعنى أمنُّ عليكم بذكرى الذى ينيلكم رضاى والنعيم المقيم فى جوار الأنبياء والصديقين .

أما هذه الآية، لو كانت فى غير هذا السياق لــدلت علــى الإطــلاق لا التخصيص . فمن يذكر الله بسوء يذكره بانتقام كالمعترضين على الله فى قضـــائه

وقدره، والمكذبين لأنبيائه، والمخالفين لأحكامه، والضارين لعباده . كل هــؤلا ء يذكرون الله بمالايرضاه، واله يذكرهم بالانتقام منهم وعقوبتهم فى الدنيا . والذكر فى هذه الآية لايكون ذكراً يترتب عليه ذكر الله لنا إلا إذا كان بالقلب أو المراقبــة والمحاسبة . أما ذكر اللسان المجرد عن العلم والقلب فلو ملأ الإنسان مابين السماء والأرض ذكراً بلسانه رجع بالتعب والعناء، ولم ينل خيراً من الله تعالى . وعنــدى أن الدجاجة التى تسجد فى النهار ألف مرة خير منه، لأنها كلما وضعت فمها على الأرض التقطت رزقها . والذاكر الجاهل يحرك لسانه من غير إدراك بقلبه، وقد يبلغ به الذكر بلسانه إلى الغرور لأنه لم يحصل علماً يخشى الله به . وأول واجب علــى كل مسلم قبل العبادة تحصيل العلم بالمعبود . وبآداب الأعمال، والقيام بها علــى ماكان عليه رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ وأصحابه الكرام.

والذكر إما بالقلب وهو استحضار عظمة الله تعالى واليقين الحق بأنه هو الله المعبود الفاعل المختار لما يحب ويشاء ويختار . أو يكون الذكر بسياحة الــروح فى ملكوت الله وملكه حتى تشهد ماأبدعته القدرة، وأحكمته الحكمة، فتزداد علمــاً ويقيناً وهو خير الذكر للسالكين . وأما ذكر الواصلين فهو مراقبــة الله فى كــل حركة وسكنة، وفى كل نومة ويقظة، حتى كأنه يرى الله أمامه، أو كأنه معالم بين عينيه،لايغيب إذا غاب الغافلون، ولايحجب إذا حجب الجاهلون، وهــذا ذكــر الواصلين، ونهاية الفناء فى الله حتى يغيب بشهود وجهه العلى عن كل كائن، وهو بداية ذكر المتمكنين، والمتمكن عبد عرف نفسه وعرف ربه، فقام لله تعالى بما يحب ويرضى، وهو عند الله تعالى أفضل من الملآئكة، وقد تكون نعم الله الكونية علــى الناس من الأمطار والزروع والضروع، إكراماً لهذا العبد المسكين الذى قد يكــون لايملك قوت يومه، ولكن أنفاسه تستضىء بها عوالم عالين، لأنها تصدر عن حضور

مع الله، ووجود بالله وأنس عند ربنا جل جلاله، وهذا هو الذكر الذى يمكـــن أن يسطر على الأوراق محافظة على العقول . أما ذكر الله تعالى الذى اصطفى الله لـــه صفوة الأخيار من عبيده، فذلك مالا يباح إلامن قلب العارفين إلى قلوب الأطهار من خيرة طالبى الله سبحانه وتعالى.

أما قوله تعالى : ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ فقد بين ذلك رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله فى الحديث القدسى، وهو قوله﴿ ﷺ وآله﴾ (قال الله تعالى : أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِى، فَإِنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فى نَفْسِى، وَإِنْ ذَكَرَنِى فى مَلا ذَكَرْتُهُ فى مَلا خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شبْراً تَقَرَّبْتُ منه ذِرَاعاً، وَإِنْ تَقَرّبَ مِنِّـــى ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً وإِنْ أَتَانِى يَسْعَى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) أو كما قال﴿ ﷺ وآلـــه﴾. فجمع عليه الصلاة والسلام مراتب الذكر لأهل الذكر الأكبر، رزقنا الله الفقه عن الله ورسوله .

وهنا أفصل لك بقدر العقول، من ذكرنى بالتوبة غفرت له ذنوبـــه، ومـــن ذكرنى بالإنابة إلى وفقته لطاعتى، ومن ذكرنى بشكر ماأنعمت به عليـــه ذكرتـــه بالمزيد من العلم بى ومن خيرى الدنيا والآخرة، ومن ذكرنى بجمالى وجلالى جملته بمعانى صفاتى وحرمت عليه النار، ومن ذكرنى بكمالى الذاتى فـــلا تعلـــم نفـــس ماأخفى له من قرة أعين . منحنا الله علو الهمة، وأكرمنا بالتشبه بحبيبه ومصـــطفاه ﴿ﷺ وآله﴾ فى قوله وعمله وحاله، حتى نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ظهر لنا بتلك الآية أن الذكر منا لله ننال به التفضيل بذكر الله لنا، وأن الشكر هنا خاص بالله لايجوز لغيره. ولذلك قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

وَاشْكُرُوا لِي ﴾ و لم يقل أشكركم . والشكر هو الاعتراف بأن النعمة من الله تعالى، وطهارة القلب من أن ينسب فضلاً أو نعمة أو إيجاداً أوإمداداً لغير الله تعالى، فالشكر أدق بكثير من الذكر، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(١) والشكر عمل بالجوارح الظاهرة، وبالقوى الباطنة من القلب والنفس والعقل والروح .. قال تعالى :﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾(٢) فالشكر عمل . وإنما يشكر الله تعالى من عرفه بأسمائه الحسنى، فلم ير فى الوجود بأجمعه أثراً لغير الله تعالى، بل الوجود جميعه آثار قدرة الله وحكمته. ومن جهل ذلك كيف يشكر الله ؟

ولايشكر على السراء والضراء إلا الله تعالى، فما من نعمة ولانقمة إلا وهى جواذب من الله لعبده، فالنعمة تسر العبد وتذكره المنعم، والنقمة تخيفه وتذكره المنتقم فيرجع إليه سبحانه، فجعل مقابل الشكر الكفر كما جعل مقابل الحج الكفر فى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ﴾(٣) أى من لم يحج مع الاستطاعة فىموضع الكفر .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَــعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣)

(يأيها الذين امنوا استعينوا بالصبر والصلاة)

أنزل الله نعالى المؤمنين منه منزلة القريب الذى يخاطب ب ﴿ يَـــا ﴾ الدالــة على القرب أحيانا وهذا النداء للمؤمنين فى مقام التلطف نهاية فى الإحسان من الله

(١) سورة سبأ آية ١٣
(٢) سورة سبأ آية ١٣
(٣) سورة آل عمران آية ٩٧

تعالى إليهم، وبعد أن ناداهم هذا النداء أمرهم سبحانه وتعالى بعمل ماهو خـير .
ومأمر الله المسلمين إلابما فيه الخير لهم فى الدنيا والآخرة، وإن لم يلائـم طـبعهم
ولاتميل إليه نفوسهم الأمارة بالسوء، فإن الله تعالى إنما يأمر بما به تزكو نفوسـهم
فيتقربون إلى ربهم . وفى أمره لنا بالاستعانة بالصبر والصلاة فضل منه ونعمة، فإنه
سبحانه أمرنا بالصبر على جهاد عدونا لإعلاء كلمته سبحانه، ولدفع شرورهم عنا
حتى نتفرغ لطاعة ربنا ولتحصيل مالا بد لنا منه مما فرضه علينا من علم وعمل فيما
يحبه ويرضاه، وبالصبر ننال رضوان الله تعالى، وأمرنا بالصلاة لأننا بالصلاة ننـال
الخير العاجل والآجل وقد جمع لنا فى قوله ﴿وَالصَّلاةِ ﴾ القيام بكل العبادات البدنية
والقلبية.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

أكد هذه الآية بقوله ﴿ إِنَّ﴾ لأن الخبر على أن يدركه العقل، فجعل العقول
تأنس بالتوكيد فى هذه الآية، والمعية بحسب العبد لا بحسب الله تعالى . فمن الناس
من يكون الله تعالى معه بالتوبة والإنابةوالإنابة وقبول العمل. ومنهم من يكون معه
بالتوفيق والإلهام . ومنهم من يكون معه بالنصرة والتأييد، ومنهم من يكون معـه
بالتترل والإحسان، أو بالكشف والبيان . قال تعالى مخبرا عن الملائكة ﴿وَمَا مِنَّا إِلا
لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ (١) ولايتأهل الإنسان لتلك المشاهدة العلية، والمقامات السنية، إلا
إذا جاهد نفسه الأمارة بالسوء حتى زكت نفسه فأفلح فصار إنسـانا فى شـكله
وهيئته، ملكا فى همته ونيته . ولأهل القلوب مشاهد فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَـعَ
الصَّابِرِينَ ﴾ نطوى بساطها حتى يتلقاها أهلها سماعا فى الخلوة .

(١) سورة الصافات آية ١٦٤

قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤)

جاء لفظ السبيل فى القرآن المجيد مفردا وجمعا، فجاء مفردا فى قوله تعالى : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وفى قوله ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [(١)] وفى قوله سبحانه ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [(٢)] وجاء جمعا فى قوله سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [(٣)] ومعناه فى الجمع جهاد النفس، والنفس قد تجاهد لمحو الرذائل وللتجمل بالفضائل، وتجاهد لتنطبع على الطاعة مخالفة لفطرها المهملة وحظها وهواها، وقد تجاهد لترغب فى تحصيل العلم وفى صحبة الأخيار ومجالسة الأبرار، وقد تجاهد لتتشبه برسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ،أو لتتخلق بأخلاق الله تعالى، وغير ذلك مما لا يسعه هذا الكتاب لأننا لا نحب الإطالة على طلبة العلم، ولذلك أتى بلفظ السبيل جمعاً، وفى إفراده كما بينت لك فى الآيات السابقة هو جهاد العدو الداخلى حتى تستعلى عليه الآداب الشرعية وذلك فى ذات الله تعالى، ثم جهاد العدو الخارجى وبذلك إما أن يجندل بين الصفين مقدماً نفسه وهو المقصود فى هذه الآية بقوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأنه أقدم على القتل لا طمعا فى جنة، ولا خوفا من نار، ولا رغبة فيما دونهما، ولكنه أقدم ليلقى الأحبة، محمد﴿ ﷺ وآله﴾ وحزبه .

---

(١) سورة الفاتحة آية ٦

(٢) سورة الشورى آية ٥٣

(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩

وهذا الذى نراه قتيلا بين الصفين لم يمت، ولكنه رفع إلى حظيرة القرب حيا يرزق، لا يمضى نفس من الأنفاس إلا وتتوالى عليه الخيرات المعنوية والحسية . أمـــا الخيرات المعنوية فإنه يكتب له فى صحيفته أعمال كل من هداهم الله تعالى علـــى يده، وأعمال من اهتدوا بهداهم إلى يوم القيامة . وقد يكون فى قـــبره وعشـــرات الملايين تعمل بعمله فيكتب الله له أعمالهم فى صحيفته، لا ينقص ذلك من أعمالهم شيئاً . قال﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿مَنْ سَنّ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ فَلَهُ أجْرُهَا وَأجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَـــا إلىَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فذلك هو جزاؤهم، وهم بتلك المثابة أحياء يرزقون خير الأرزاق من حيث لا يعلمون . وكم من رجال قتلوا فى هذا السبيل، ولهم أكبر قسط من عملنا وعلمنا، لأنهم قتلوا فى إعلاء كلمة الله وإحياء سنة رسوله﴿ ﷺ وآله﴾. وهذه هى الشهادة الكبرى، لأنه جاهد نفسه فى ذات الله حتى أفلحت، ثم خرج فاراً إلى الله تعالى حتى قتل بين الصفين، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن أرواح الشـــهداء فى أجواف طيور خضر تسكن سدرة المنتهى، وورد أيضاً أنهم يكونون طيوراً خضراً يسبحون فى الجنة يأوون إلى سدرة المنتهى، فهم فى نعيم مقيم فى الدنيا، ومشاهدة الوجه العلى الجميل يوم القيامة، وورد أيضاً أن الله يفتح لهم وهم في قبورهم بابـــا يشهدون منه أمكنتهم فى الجنة و فيسألون الله السرعة، كمـــا يفـــتح للمنـــافقين والكفار بابا إلى النار فيتمنون تأخير وصولهم إليها.أما الذين يرجعون إلى أهلـــيهم من المجاهدين فى الصف فإنهم يرجعون بالنصرة والغنيمة والمغفرة .

أما الذين يموتون قبل الملحمة فلهم رزقهم فى البرزخ لا كمـــن جنـــدل فى الصف . وإنما عين الله من قيل فى هذا الموقف وخصهم بهذا الفضل العظيم لأنهـــم باعوا أنفسهم وأموالهم . وقد نهانا الله فى هذه الآية أن نقول عنهم إنهـــم أمـــوات وأثبت لهم الحياة عند ربهم : والعندية أعلى مقامات القرب لأهل اليقين الكامل من

الأمة ، وليس فوق هذا المقام إلا مقام الرسول﴿ ﷺ **وآله**﴾ وهو مقام اللدنية . قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[1] (١) ومقام العندية فـــوق مقعد صدق قرباً، لان القوم رضى الله عنهم أعطوا الله الكل فأعطـــاهم ســـبحانه الكل ، فكانوا فى جواره عنده ورفع ﴿ أَحْيَاءٌ﴾ لأنه خبر لمبتدأ تقديره هم أحياء .

﴿ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ أتى بهذه الآية الشريفة حفظاً لقلـــوب المـــؤمنين، وقصما لظهور المنافقين، وكأن مترددا قال كيف يكونون أحياء بعـــد أن مزقـــت أشلاؤهم وعلاهم التراب ؟ فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين ولكن لا تـــروهم، فمعنى : ﴿ تَشْعُرُونَ ﴾ أى ترون وتشهدون ،لان عيون الرؤوس وعيون العقول لا تنكشف لها الغيوب المصونة، ولكنها تنكشف لعيون الأرواح . مـــن أحبـــاب الله الذين هم عنده . فكم من أحياء يمشون على التراب وقلوبهم سابحة فى ملكوت الله الأعلى، لم تحجبهم عن حبيبهم ضروريات الكون و لا كمالياتـــه .،لأن الحقـــائق انكشفت لهم فتحققوا أن ما فوق الأرض فان بدليل قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)[2] وتحققوا أن الكون من العرش إلى الفرش هالك لا دوام له ولا بقاء بدليل قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ﴾[3] وقوم وقعت عيون بصائرهم عـــلى هذا الغيب المصون كيف لا يشهدون مقامات الذين قتلوا فى ســـبيل الله ؟ ومـــن كانت همته بطنه وفرجه فهو أضل من الأنعام فكيف يشهد مقامات اهل الحـــب والعلم بالله تعالى ؟ .

---

(١) سورة النمل آية ٦

(٢) سورة الرحمن آية ٢٦

(٣) سورة القصص آية ٨٨

قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥)

بين الله لنا الحكمة فى إقامتنا فى هذا الكون مقام المجاهدة فيه سبحانه والصبر على القيام بأوامره، وإن ذلك إنما كلفنا الله به لحكمتين عظيمتين : الحكمة الأولى اختبارنا وامتحاننا فى كمال إيماننا به وتصديقنا لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، اعتقادنا فيما أخبرنا به من المغيبات كالجنة والنار والميزان والصراط الحساب والوقوف بين يدى الله فإن كل مصدق بهذا كره الدنيا وما فيها من النعيم الفانى، وفر بقدر ماعمله إما إلى الجنة، أو إلى الرضوان الأكبر، أو إلى الله تعالى . وتلك المقامات بقدر العلم بها . والحكمة الثانية : هى كشف الحقائق وبيان السبيل الموصل إليه سبحانه والإكرام منه عز وجل بالمزيد من الهداية والإحسان . لكشف مقامات القرب والوصل والحب لنرقى إليها ونتنعم فيها.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أى ولنختبرنكم ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل ﴿مِنَ الْخَوْفِ﴾ من عدوكم الذى يناوئكم ويحاربكم ليردكم عن دينكم ﴿وَالْجُوعِ﴾ يعنى بالجدب ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ ﴾، ببذلها فى الجهاد ضد الأعداء ﴿ وَالأَنْفُسِ ﴾ بالقتل فى الجهاد ﴿ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ موت الأولاد وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ أى خوف جهنم . ﴿وَالْجُوعِ﴾ يعنى صيام شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ﴾ يعنى الزكاة ﴿وَالأَنْفُسِ﴾ بالموت الطبيعى ﴿والثمرات ﴾ بموت الأولاد . ولكن تفسير الإمام ابن عباس رضى الله عنهما حق لأهل السلوك ممن لم يقو دينهم . ولأهل الإشارة فى هذه الآية ملاحظة : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ ﴾ وهو مقام الخوف والخشية والرهبة " وَالْجُوعِ "

وهو الزهد فيما سوى الله ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ ﴾ التوبة مما يملك ﴿ وَالأَنْفُسِ ﴾ الفناء عما سوى الله وهو الذى يقولون عنـــه موتـــة الإرادة . قـــال رســـول الله ﴿ﷺوآله﴾ { : ﴿مُوتُوا قَبْلَ أن تَمُوتُوا ﴾ أى موتوا بالإرادة قبل أن تموتوا بالقهر، والموت بالإرادة الفناء عما سوى الله تعالى . والموت بالقهرالموتة العزرائيلية .

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ البشرى خبر لم يسبق لك معرفته ويكـــون بـــالخير والشر . فمن أخبرك خبرا لم تعلمه فهو خبر وبشرى . ومن أخبرك بخبر تعلمه فهو خبر فقط . ولكن البشرى فى هذه الآية للخير . وهنا تشهد الأرواح الطـــاهرة أن جمال العبد عند الله تعالى هو جمال العبودية، لأن الله تعالى على عظيم عن أن يتأثر بالأحداث، أو أن يضره أحد أو ينفعه، والعبد محدث مقهور، ومن جمالـــه تحمـــل الشدائد والمضار، فإن نظرها أنها بقدر الله وفى طاعة الله وصبر عليهـــا منحـــه الله جماله العلى، فصرفه فى الملك والملكوت بكلمة ﴿ كُنْ﴾ فى الدنيا، وبالمشيئة المطلقة يوم القيامة . قال تعالى : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِـــنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (١) أما آجلها فى الآخرة فقال الله تعالى فيها: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ (٢) والحسنى مقعد صدق، والزيادة شهود جمال وجه الله تعالى، فاشتاقت الأرواح إلى معرفة الصابرين فيبين الله للأرواح صفات الصـــابرين لتســـارع إلى أن تتجمـــل

(١) سورة النور آية٥٥

(٢) سورة يونس آية ٢٦

بصفاهم فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَــالُوا إِنَّــا لِلَّــهِ وَإِنَّــا إِلَيْــهِ رَاجِعُونَ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّــهِ وَإِنَّــا إِلَيْــهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦)

فيبين صفاهم و لم يذكر أشخاصهم للوسعة الإلهية، حتى يكون منهم فى زمان رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ وفى الأمة جميعها إلىقيام الساعة . ومن حظر فضل الله على واحد من أمة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ حرم ذلك الفضل فإن فضل الله تعالى لم يقف عند أشخاص معينين، ولا رجال مخصوصين، بل قد يكون من الكفــار فى كل زمان من يهديهم الله تعالى ويجملهم بالفضل العظيم، قال تعالى ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لِلَّــهِ ﴾ أى ملكا وإيجادا وإمداداً، بدليل قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[٣] ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[٤]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وكلمة ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ لم تكن رواية ولا دراية ولكنها شهود عين وخبر عن عيان ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أى كما أن بدايتنا منه فنهايتنا بعد أدوار الكون إليه، وليس معنا إلا أعمالنا التى بها نجــازى أو عليها نحاسب . ومن بلغ به اليقين الحق هذا المقام حتى شهد أنه لله شهود عين،

(١) سورة الحديد آية ٢١

(٢) سورة الشورى آية ٤٩

(٣)سورة الأنباء آية ١٩

(٤)سورةآل عمران آية١٢٩

وتيقين أنه إليه راجع يقيناً حقاً، كان من ضنائن الله التى يضن بها على خلقه، ومن أوليائه الذين أخبرهم بقوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] فيهما .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُــمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧)

تشوقت الأرواح إلى ما يتفضل الله به على أهل هذه المقامات العاليــة، والله عليم بأسرارعباده، فبين الله لهم مابه شرح صدورهم، وطمأنينة قلوبهم، فقال : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ والإشارة إلى من ذكرهم الله فى الآية السابقة . ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ قــال بعض المفسرين إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، فعلى هنا بمعــنى الــلام، فيكون المعنى أولئك لهم صلوات . والأولى رعاية الأدب للقرآن المجيــد . فتكــون معنى : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أى تعلو صلوات الله تعالى على مقتضيات قــواهم البشــرية، فتخرجهم إلى التشبه بالعالم الروحانى، فيكونون أفضل منه لما قاموا به من المجاهدة، قال تعالى ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] وصلوات الله تعالى جمعها سبحانه فى هذه الآية،إشارة إلى أن صلوات الله أنواع، فمنها المغفــرة والتوبة والقبول والرضوان الأكبر والجلوس على منبــر من نور قــدام عــرش الله تعالى يوم القيامة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ ﴾ و لم يقــل علــيهم صلاة . ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾

---

(١)

(٢)

وهنا إشارة خفية يتذوقها أهل العلم بالله تعالى، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّـــهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾[1] وقال هنا ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِـــنْ رَبِّهِـــمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ وشتان بين المقامين، فالصلاة من الله العلى العظيم لاتدركها العقول ولا الأرواح . أما الصلاة من الرب جل جلاله فهى كمال الإنعام متواليا، فإن اســـم الربوبية جامع تسعة وثمانين اسماً من أسمائه تعالى، وقوله تعالى ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ ﴾ يعنى عليهم إحسان أسماء الجمال السبعين والأسم الأعظم ﴿ اللَّهُ ﴾ هو العلم على الذات الواجبة الوجود، الذى لايراعى فيه معنى جمال ولاجلال، بخلاف اسم الرب فإنه يلاحظ فيه جمال وجلال ولذلك قال بعض الأفراد المحبوبين : أنا لاأعبد الرحمن ولاالوهاب، فأفتى علماء عصره بقتله، فقال : أنا لاأعبد إلا الله، لأنى لو عبـــدت الرحمن والوهاب كنت معللاً لعبادته لعله الرحمة والهبة، قال عمر بن الخطاب : نعم العبد صهيب لو يخف الله لم يعصيه . يعنى أن صهيباً ﷺ شهد ســـواطع العظمـــة والكبرياء الإلهى وأنوار كماله سبحانه، فجعله يكمل يقينا بما يتلوه كل يوم أربعـــاً وثلاثين مرة . وهو قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعنى نخصك بالعبادة بألله لذاتك لالعلة أخرى .

ومن عبد الله رغبة فى الجنة أو خوفا من النار أو طلباً فى حطام الـــدنيا عبد غير الله تعالى عند القوم . والرحمة من الله تعالى هى الفضل الذى يوليه عبـــده من عفو وعافية ومال وأولاد فى الدنيا، وستر وصبر وحلم ورضوان ونعيم مقيم فى الآخرة : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ الواو هنا للمدح لاللعطف، لأنها لو كانـــت للعطف لكان ﴿وَأُلَئِكَ﴾ الثانية غير الأولى . والحقيقة كل الأوصاف لمن ذكـــرهم الله تعالى فى الآية السابقة .. فالإشارة الثانية إليهم . وقولـــه : ﴿ هُـــمُ ﴾ يقـــول

(1)

المفسرون ﴿ هُمُ ﴾ ضمير وصل والحقيقة أنه للاختصاص وهو مبتدأ . والمهتـدون بعده خبر . والجملة خبر﴿ أُولَئِكَ ﴾ يعنى أن من أثنى الله عليهم فى الآية السـابقة خصهم الله بالهداية . والهداية هى بيان الحقائق .

ومن انكشفت له الحقائق فى كل مرتبة من المراتـب حفظـه الله مـن الخطايا، فمن رآى نار جهنم ورأى الموصل إليها هل يقارفه ؟ الجواب : لا . قال تعالى: ﴿ كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْـيَقِينِ ﴾(١) لأن الله تعالى هداه فحفظه وهذه هى هداية الإحسان من الله تعالى . وقد خصـها الله بأهل محبته كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ (٢) بتوفيقه وعنايته بكشـف الحقائق أمامهم وبيان السبيل الموصل لهم إليه، وجذبتهم الهداية إليه سبحانه وتعالى . أكرمهم الله عز وجل بالمزيد من الهداية والإحسان ﴿ زَادَهُمْ هُـدًى وَآتَـاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، والمزيد من الهدى هو كشف مقامات القرب والوصل والحب، فيرقون إليها ويتنعمون فيها، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا معهم إنه سميع مجيب .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْـتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِـيمٌ﴾ (١٥٨)

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة مابه الفوز عنده مـن الصـلاة والصبر والجهاد والعلم، بين لنا الحج وأحكامه وفرائضه وواجباته بيانا إجماليا فصله

---

(١)

(٢)

رسوله﴿ ﷺ **وآله**﴾ بعلمه وقوله، وابتدأ فى بيان ماكان مختلفا فيه بين المسلمين والجاهلية. فإن قريشا كانت تطوف بالصفا والمروة فلما أشرقت أنوار الإسلام امتنع المسلمون عن الطواف بالصفا والمروة وعن السعى بينهما، حتى سأل قوم رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ واستفسروا منه عن السعى بين الصفا والمروة، وكان﴿ ﷺ **وآله**﴾ لاينطق عن الهوى فأنزل الله تعالى فى هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أى من مناسكه ومن عبادة الله تعالى .

ثم بين سبحانه ذلك بقوله ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ وبين ذلك رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عملا خصوصا فى حجة الوداع ولكن الصحابة رضى الله عنهم اختلفوا فى تأويل هذه الآية فقال بعضهم ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ أن ذلك نفل لو تركه الحاج لم يبطل حجه، حتى ذهب بعض الصحابة إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فسألها البيان فى هذه الآية بعد أن شرح عقيدته فيها فقالت : لو كان هذا كذلك لقال فلا جناح عليه أن لايطوف بهما قال تعالى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾(1) بل السعى بين الصفا والمروة بعد طواف الإفاضة فريضة على كل مسلم . ولكن الآية منعت الجناح الذى كان يراه المسلمون وعينت الطواف بهما بدليل قوله تعالى ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وتأول هذه الآية بعض الصحابة بأن السعى واجب فى الحج وركن من أركان العمرة، فليس فريضة فى الحج لأن الواجب فى الحج غير الفرض فيه، وليس عند المالكية فرق بين الفرض والواجب إلا فى الحج، فترك الواجب عندهم يجبر بالدم وترك الفرض يبطل الحج، وقد فصلنا ذلك فى كتاب : " هداية السالك إلى علم المناسك " وبعض العلماء تأول هذه الآية بأن السعى بين الصفا والمروة سنة .

---

(1)

والإجماع الآن كما قررت لك أت السعى بين الصفا والمروة فريضة بعد طـــواف الإفاضة، أو بعد طواف القدوم . والصفا جمع صفاة . والصفاة هى الصخرة الملساء التى تشبه الرخام . وهى ككل جمع واحده بالتاء كتمرة وتمر . والمروة جمعها مرو وهو الحصاة .

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

وقد وردت رواية بياء المضارع وهذه الرواية أتت بلفظ الماضى . وقـــد اختلف العلماء فى لفظة ﴿ تَطَوَّعَ ﴾ فقال بعضهم : أى كرر الحـــج فـــإن الأولى فريضة، وقال بعضهم : من تطوع، يعنى اعتمر . وقال بعضهم بالنسبة لمناسبة الآية : من تطوع، يعنى سعى بين الصفا والمروة فى أوقات الحج . وقد بينا هذا الخلاف فيما سبق . والرجوع إلى قول من قال : من تطوع، أى من كرر الحج فهو خير له يعنى رجوعه إلى الحج بعد تأدية الفريضة خير كما قال﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحـــديث القدسى : ﴿وَلاَ يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىّ بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ﴾

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ يخبرنا الله تعالى أن الله يقبل منا الفرائض وهى أحب مايتقرب بها إليه العبد، ثم يتفضل فيقبل النفل وهو التطوع، ثم يحسن سبحانه وهو المحسن فيقبل النفل ويشكر عليه . ومن شكر الله له فلا تعلم نفس ماأخفى له من قرة أعين، والشكر عمل، وشكر الله الإحسان بالمزيد لمن تطوع . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أى مطلع على أعمال العبد ونواياه القلبية وأعماله الجسمية، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولفظة الحج لغة هى القصد . ولفظة العمرة لغة هى الزيارة.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ (١٥٩)

افتتح الله الآية بالتوكيد لبيان الحقيقة مؤكدة إزعاجاً لقلوب اليهود والنصارى، فإن الريبة لاتفارق قلوب المبطلين، فهم وإن كانوا أنكروا مابينه الله تعالى فى التوراة من نعوت رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فإن الحق له صولة على قلوبهم، فإذا سمعوا آيات القرآن تتلى مبينة للحائق التى ينكرونها بعد اعتقادها تخفق قلوبهم خوفا من أن يحصل لهم ما حصل لسلفهم بعد تكذيب الأنبياء من المسخ .

وفى تلك الآية مايذيب قلوب العلماء العارفين بالله تعالى، فيدفعهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهما قابلهم من البلايا فى سبيل ذلك . وقد قال الصحابة لأبى هريرة : أكثرت الكلام عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، يعنى كذبت على رسول الله، فقال : مابالكم ؟ إن إخواننا الأنصار كانوا مشغولين بمزارعهم وإخوتنا المهاجرين بتجارتهم، وكنت أقيم مع رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ أجوع يوما وأشبع يوما والله الذى لاإله إلاهو آية فى كتاب الله ماقال أبو هريرة لولا كلمة، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾ والآية نزلت فى أهل الكتابين، ولكنها جرت بذيلها كل عالم لايبين لعباد الله آيات الله وأسراره إلا بمقابل من مال أو غيره .

﴿ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾

والبينات جمع بينة وهى الآية الظاهرة الجلية، أو بمعنى مبينة وهى الآية التى تبين غوامض أسرار التوحيد أو تبين أيام الله تعالى وأحكامه وحكمة أسرار الكتاب، وقد تقدم لك معناه فيما سبق، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ أى بين تلك الآيات البينة والهدى للناس، أى بإنزاله بلغتهم أو ببعثة الرسل الذين يبينونه مفصلا ،فيكون بيان الرسل والهدى للناس هو بيان الله تعالى لهم، كما قال تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1] ومن قبل من الرسول أيضا فقد قبل من الله، وانما الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أواسط بين الله وبين خلقه، لأنه سبحانه وتعالى اصطفاهم وأهلهم لأن يتلقوا من الملك الموكل بالوحى أو يسمعوا منه سبحانه وتعالى، كما قال جل جلاله : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[2] وكتم تلك الآيات، جائز أن يكون بمنعهم بيانه للناس، أو بتغير عباراته، أو بتأويل ألفاظه إلى غير مراد الله تعالى . وكل ذلك جائز فى الكتم .

﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾

الإشارة إلى اليهود والنصارى الذين وقعوا فى تلك الخطيئة . واللعنة هى سلب الإيمان من القلوب، وهى فى اللغة الطرد والبعد. ولما كان الطرد يكون بحسب الطارد والمطرود، فالطرد من الناس الإبعاد، والطرد من الله تعالى حرمان العبد من فضله وإحسانه حتى يبعد عن محاب الله ومراضيه فيقيمه الله تعالى فى مساخطه، أعاذنا الله تعالى من غضبه سبحانه .

(١) سورة النساء آية ٨٠

(٢)سورة النمل آية٦

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ الاعنون هنا من هداهم الله.، بعـــد أن قطعهـــم وأبعدهم عن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ أحبارهم، فإنهم بعد الهداية يســألون الله أن يلعن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى الذين كتموهم نعـــت رســـول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وهذا عاجل غضب الله على اليهود والنصارى . أما آجله يوم القيامة فإنهم يكونون فى نار جهنم يوم يقولون : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَـــلانَا مِـــنَ الْجِـــنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسْفَلِينَ﴾[1] فإن الذين هداهم الله من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وتميم الدارى، والذين هـــداهم الله مـــن علمـــاء النصارى أو من غير علمائهم إذا علموا بكيد الأحبار والرهبان سألوا الله أن يلعنهم لعنا كبيرا . وقد ورد أن البهائم إذا عضها الجدب قالت هذا من عصاة بنى آدم لعن الله عصاة بنى آدم، معاصيهم سبب الجدب . قال تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [2]

قوله تعالى : ﴿إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠)

كشف الله تعالى للعقول ما كان خفيا عنها مما هو خاص بالحضرة الإلهية، لتقوم الحجة على أنه جل جلاله لا تضره المعاصى ولا تنفعه الطاعات، باســـتثنائه استثناء مفصلا ممن حكم عليهم سبحانه باللعن بسبب ما ارتكبوه من كتمان مـــا أنزله الله فى التوراة والأنجيل من صفات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وتلك الخطيئـــة بحسب الشريعة هى أكبر الكبائر، لأنهم كذبوا على الله تعالى وكتموا أوامره التى بها

(١) سورة فصلت آية٢٩

(٢)سورة الشورى آية ٣٠

إصلاح العالم أجمع، وفى ذلك ما فيه من غضب الله تعالى حتى حكم عليهم بالطرد والبعد والقطيعة عنه سبحانه، وفى تلك الخطايا ما يوجب خلودهم فى النار، ومـــا يجعل هذا الغضب يحيق بهم، ولكنه جل جلاله عطوف رءوف رحيم، بعـــد كـــل تلك الخطايا الموبقة يتعطف جل جلاله فيستثنى منهم ﴿ الَّذِينَ تَابُوا ﴾ ويخبرنا أنـــه سبحانه يقبل توبتهم ويتوب عليهم .

﴿ إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾

والتوبة لغة : الرجوع، ولما كان الرجوع انتقالا من المكان الذى انتـــهى إليه إلى المكان الذى خرج منه، كان المعنى فى التوبة أنه يرجع همه ولمة وأهوائـــه وعلله ونواياه السيئة، إلى حظيرة الإقبال على الله تعالى، مطيعا لأمره ،مسارعا إلى مايحبه ويرضاه، بعد التوبة التى قدمت لك أركانها التى هى الندم على مافعل، والعزم على عدم العودة، والمسارعة إلى استبدال القبائح بالمحاسن، والمخالفات بالطاعـــات والمفاسدبالاصلاح، وذلك بأن ينظر إلى ماأفسده بقوله وعمله وحالـــه فيصـــلحه بحسب مايأمره الله تعالى .

ومن تفصيل هذا المجمل أن يؤمن برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فإنـــه قـــد يتوب من تغيير مانزله الله أو من كتمانه بالإعلانه، ولكنه يصير مكذبا برسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ إن لم يجمل باطنه بالإيمان به﴿ ﷺ وآله﴾ ولن تقبل توبته . فإن الحكم عليهم باللعنة : إنما كان سببه كتمانهم مأنزله الله على موسى، مبينا بـــه صـــفات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وإلا فكل اليهود من بنى إسرائيل كانوا يعتقدون مـــا فى التوراة بالنسبة له عليه الصلاة والسلام ولم يعترهم العناد والإنكار إلا بعد أن بعثه الله تعالى بالحق بشيرا ونذيرا حسدا من عند أنفسهم .

﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ البيان : هو إظهار الحقائق جلية ماكان منها معنويا أو حسيا، ولما كان ما نحن فيه أمورا معنوية، لزم أن يكون البيان فيه بالعبارة المطابقة للحقيقة التى أنزلها الله تعالى، وهذا القيد إنما أنزله الله تعالى لأنه يعلم خبث نفوس اليهـــود، فقد يرجعون إلى الحق فيما بينهم، وتأبى عليهم أنفسهم أن يبينوا لعباد الله الحقائق لينتفعوا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، حرصا على ماينالهم من حطام الدنيا الزائـــل، وعلى الرياسة التى لو بينوا ماكتموه للناس لسلبت منهم، ولذلك يقول الله تعـــالى ﴿وَبَيَّنُوا﴾ فإن لم يبينوا بإخلاص لله رد الله عليهم توبتهم .

وهنا لقائل أن يقول : بعد أن يتوب العبد ويصلح ويبين كيف يقول الله تعالى : ﴿ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ وهل هناك تائب بغير تواب يتـــوب عليـــه ؟ وإذا أتم أركان التوبة هل يقبل الله أولايقبل حتى يقول ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ وهـــل هناك من يستوفى شروط التوبة ولايتوب الله عليه ؟ فنقول لهذا القائل : إن مراد الله وهو سبحانه أعلم بمراده أنه يوفقهم للتوبة ويشرح صدورهم للقيام بها ثم يتفضـــل سبحانه فيبين لهم أنه قبلها، ليعلم عباده أنه قاهر غير مقهور . وأنه سبحانه لايعامل عباده بمقضى العدل ولكن يعاملهم بمقتضى الفضل ماداموا فى تلك الدار الـــدنيا . كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو فى الدار الدنيا ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّـــي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(1) ومن قرأ الآية التى يخبرنا الله فيها عـــن قـــول عيسى عليه السلام ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِـــيم ﴾(2) وفقه مابين الرسولين عليهما السلام وبين آيتيهما رأى أن الخليل عليه السلام يقول ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لطمعه فى مغفرة الله لهم بتوفيقه لهم فى الدنيا

(١)سورة إبراهيم آية٣٦

(٢)سورة المائدة آية١١٨

. وفى قول عيسى عليه السلام يقول : ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ علم أن المغفرة يوم القيامة لاتكون إلا عن عزة وحكمة، ولاتكون عـن رحمـة إلا فى الدنيا ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ الإشارة إلى من استثناهم الله تعالى ممن لعنهم، ويكون المعنى فهؤلاء أتوب عليهم أى أرجع عليهم بما سبق لهم فى قدرى من الهداية والتوفيق ﴿ وَأَنَا التَّوَّابُ ﴾ الذى أتوب على الخلق وأقبل منـهم وأبدل سيئاهم حسنات ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الذى أمن على عبـادى بـالخير الـدنيوى والأخروى، ونقدم معنى ﴿الرَّحِيمُ ﴾ فيما سبق .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١٦١)

أتى الله بحرف التوكيد فى هذه الآية الشريفة ليقطع طمع من مات كافرا، والكفر هو الستر، والجن والغفر بمعنى واحد، إلا أن الكفر ستر الحق عمن سـجل عليهم القضاء شقاءهم والغفر ستر العيوب . والجنة ستر الذات وكل ما استتر عن الأبصار من الأنواع الحية يسمى جنا، وماستر مافيه بسورة يسمى جنة . فالـذين كفروا : يعنى ستر عنهم الحق فلم يقبلوا عن الله آياته، ولم تقبل عقـولهم الأدلـة والبراهين القائمة على تفريد الله، وانفراده بالوحدانية، واختصاصه بالعبـادة دون غيره . والكفار أنواع . منهم أهل الجحود الذين حجبتهم المادة بكمها وكيفهـا وخصوصياتها فوقفوا عندها وهم الذين بحثوا بعقولهم حتى انتهت بهم العقـول إلى نهايتها الكبرى، التى نهايتها الوقوف عند المادة . قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَـرَ الْجِـنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا

بِسُلْطَانٍ ﴾[1] ومنهم أهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة الرسل، فإنهم وإن كانوا من أهل الجحود ولكن لهم العذر ولا يتعين الكفر إلا بعد بعثة الرسل وتبليغ الـــدعوة، ومنهم من فسدت فطرهم فلم يميزوا بين التشبيه والتتريه، فاتخذوا الأنبيـــاء الـــذين أجرى الله على أيديهم معجزات مادية، كإحياء الموتى وإبراء الأكمـــه والأبـــرص وفلق البحر، وكالموت مائة سنة والإحياء بعدها، فعجزت قواهم العقلية عن فقـــه غرائب قدرة الله فاتخذوهم أربابا أو أولادا لله سبحانه وتعـــالى :. ومنـــهم أهـــل النفوس العنادية الذين يدعوهم الكبر والحسد ولإنكار ماأثبته الدين . ومن أنكـــر معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر . ومنهم أهل الشك والريب، ومنهم ومنهم . إلخ . تلك الأنواع كلها من مات منهم حكم عليه بوعيد الله فيه ووعيد الله فيـــه حكمه عليهم بيئة سبحانه بقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَـــةِ وَالنَّـــاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

وقد بينت لك معنى اللعنة فيما تقدم فلانطيل بذكرها . ومعنى عليهم أى استغرقتهم اللعنة واستعلت عليهم فكبكبوا فى النار، ولعنة الملائكة معلومة، وإنمـــا الخلاف فى قوله تعالى : ﴿ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ولكن خصص بعضهم فقـــال : (الـــ) للعهد والمراد المؤمنون يلعنوهم، وهذا التأويل لايؤيـــده صـــريح القـــرآن . والتأويل الذى يتحد مع صريح القرآن هو أن الناس جميعا يلعنون الظالم . والكافر هو الظالم . ولك أن تقول إن الناس أجمعين إنما أضل الكافرين منـــهم الزعمـــاء والدعاة إلى النار فإذا انكشفت الحقائق يوم القيامة لعن المؤمنون الكافرين أجمعين،

(١) سورة الرحمن آية ٣٣

ولعن الكفار من أضلهم وأوقعهم فى الكفر، ولعن الزعماء الكافرين الذين أضلوهم فصحت اللعنة من الناس أجمعين، كما قال تعالى مخبرا عن الشيطان : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾[1] وهذه الجملة من الشيطان من قوة اللعنة منه على من اتبعه وتبرأ منه يوم القيامة، فكذلك يكون الدعاة إلى النار يوم القيامة يلعن بعضهم بعضا

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾(١٦٢)

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ الخلود معلوم وهو البقاء فيها إلا أنه هنا ملاحظ فيه معنى الأبدية وإن لم يذكر لفظ أبداً بعدها، لأن الذى ورد فى الشريعة أن الكافر يخلد فى النار أبداً، وأن عصاة المسلمين لايخلدون فيها أبداً، وقد صرح القرآن فى غير هذه الآية بالأبدية للكفار دون المؤمنبن، ولقائل أن يقول إن أطول أعمار الناس لا يتجاوز الألف سنة، فمن عاش ألف سنة كافرا كان من العدل أن يعذب بقدر عمره، كما أن المؤمن الذى يعيش ألف سنة ينعم بقدر عمره، إلا أن نقول : فضل الله للمؤمن يعلمنا المزيد من إحسانه، أما عدل الله تعالى فيقتضى معاملة الكفار بقدر أعمارهم . وهنا نرد على صاحب هذا القول بأن نبين له سر الحكمة فى ذلك، وهو أن الله تعالى لو أبقاهم فى الدنيا إلى الأبد لداموا على الكفر . ولو أبقى الله المؤمنين فى الدنيا إلى الأبدلداموا على الطاعة وهذه هى حكمة بقاء كل منهما فيما قدره الله له أزلا . والواجب على كل مسلم أن يسلم لله أحكامه، ويؤمن بالغيب حتى يمنحه الله العلم بأسرار حكمته تعالى.

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢

﴿ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

التخفيف قد يكون بجعل أوقات للعذاب وأوقات للإفاقة منه، أو بوعـــد من الله بإخراجهم منه، أو بأن يمنحهم الله نظرة ينتظرون فيها فرج الله تعـــالى أو خفى لطفه بهم، فقطع رجاءهم سبحانه وتعالى لأنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى، بعد إقامة الحجة ووضوح المحجة . قال تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ)[1] وإنما ثبت كفرهم بعد أن كذبوا محمد﴿ ﷺ وآله﴾ لأنه أتى علية الصلاة والسلام بالبيان الذى تقبله العقول ، ولكن نفوسهم الأمارة بالسوء أعمت غيون عقـــولهم عن تعقل ماجاء به﴿ ﷺ وآله﴾.

قوله تعالى : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(١٦٣)

يبين الله تعالى فى هذه الآية الشريفة حقيقة التوحيـــد بحججـــه البالغـــة التىتقبلها العقول السليمة من الهوى، والنفوس الطاهرة من الخبث، إقامة للحجـــة على من أشرك بالله واتخذ له ندا وشريكا ونظيرا وشبيها من خلقه فابتـــدأ الآيـــة الشريفة بقوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِد ﴾ ومن بيان ذلك :

١- الإله : هو الغنى عماسواه، المفتقر إليه كل ماعداه . والإله هو من يأله إليـــه الناس جميعا فلا ينكر ألوهيتة أحد من الخلق . ولكن كفر من كفر لم يكـــن بجحود ألوهيته، بل بالخطأ فى توحيده سبحانه، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَلَـئِنْ

---

(١)

سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (١) ولكنهم عبدوا غيره من الأوثان والأفلاك والأملاك، ومن الأنبياء والملائكة بتأويل أهم أبناء الله وأهـــم شفعاء عند الله أو يقربوهم إلى الله زلفى، والحكم هنا بتلـــك الآيـــة إثبـــات الوحدانية لله تعالى لأن الأناسى فطروا على الدين .

٢- وقد عرف بعض الحكماء الإنسان بأنه حيوان دينى بالطبع، فلـــيس عنـــدهم شك فى إثبات الأولوهية، ولكن الكفر والجحود إنما حصلا فى معرفة هذا الإله جل جلاله . ولذلك يقول الله تعالى : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ والوحـــدة هنـــا ليست كالوحدة فى المشهود المحسوس الملموس من تلك الآثار ومافيها ولكنها وحدة تناسب من هىوصف له .

٣-والله تعالى ليس كمثله شيء وكذلك أسماؤه وصفاته وأفعاله، وغاية مايمكن أن يبينه المعبر أن يقول : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى أنه سبحانه واحد بمعنى أنـــه ليس من شيء، ولا منه شيء ولافى شيء، ولافيه شيء، فليس فى ذات الحـــق إلا الحق، وليس فى الكون إلا الكون، والله سبحانه على عن العقول والأرواح، وعن الكم والكيف، وعن الزمان والمكان .

٤- وإن الواحد فى قومه من لامثيل له ولانظير له فيهم، وقد يقال لشيئين متماثلين فى المعنى هما واحد، ويقال للممتاز بصفات عالية أو سالفة هو واحد أو هـــو نسيج وحدة، ويقال للمنفرد عن الخلق بجماله وجلاله وكماله هـــو واحـــد، وهذه الوحدة هى التى تأولها بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

---

(١) سورة لقمان آية٢٥

وعندى أن البيان الأول هو الذى يناسب هذا المقام . وأما الأقوال الأربعة فقد يقرب منها إلى هذا المقام البيان الرابع، ولكنه لايحصر المعنى الذى يناسب الجلالة الإلهية . والمراد كله اليقين بواحدنية الله تعالى إيمانا بالغيب، حتى تقوم الحجج، وتستبين الدلائل، وتنكشف للنفس أنوار الغيب المصون، فإن التوحيد هو رأس إيمان المؤمن، ومن خرج به من الدنيا غفر الله له ذنوبه ولو كانت من الكبائر، حاشا الشرك بالله لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [1] وقد فصلت مجمل التوحيد فى رسالة : (عقيدة النجاة) فليراجعها طالب النجاة .

﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

حصر الألوهية فى ذاته بما بينه من القصر فى هذه الآية، فإن قصر الصفة على الموصوف يقتضى عدم خروج الصفة عن الموصوف مع جواز اتصاف الموصوف بغيرها، وقصر الموصوف على الصفة يقتضى قصر الموصوف على الصفة، وقد تكون الصفة لغيره، وهنا قصر الصفة على الموصوف . فصفة الألوهية مقصورة على ذات الله تعالى لاتتعداه لغيره أبدا . فإن من سواه وماسواه آثار مخلوقة بقدرته سبحانه وتعالى، وعباد مربوبون لربوبية جل جلاله، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2] و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ﴾ [3] وهو جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يمتزج بشىء،و لم يزدوج بشىء وهو قبل كل شىء، وليس قبله شىء .

---

(١) سورة النساء آية ١١٦

(٢) سورة فاطر آية ٤٥

(٣) سورة البقرة آية ٣-٥

سأل رجل أمير المؤمنين علياً عليه السلام فقال : أين كان ربنا قبل خلقنا ؟ قال : كان ولا أين . وبهذا الجواب أثبت أن هذا السؤال باطل، وأن سائله شاك مرتاب . فإن الله تعالى يقول لزكريا : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[1] وهـــذا حكم على الجزء، والحكم على الجزء حكم على الكل .

وقوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ فى هذا السياق وإن كنا بينا معـــنى الرحمن الرحيم فيما سبق، إلاأنا لانخلى كتابنا هذا من مزيـــد فى تلـــك الآيـــة — فالرحمن هو المنعم بجلائل النعم فى تلك الدار الدنيا، والرحيم هو المنعم بالخير الدائم فى الآخرة، وفى ذكرهما فى هذه الآية إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى عامـــل العـــالم بالرحمن الرحيم، فأبدعهم وأنشأهم وخلقهم بمشيئته وإرادته، لا لعلة ولا سبب، بل بفضله وبرحمته، وأمدهم بما به قوام حياتهم ضروريا وكماليا . بحيث لو فقد عنصر من عناصر هذا الكون لهلك العالم أجمع، ومثال ذلك المـــاء والهـــواء والشـــمس والأرض المنبسطة التى يسر لنا حرثها والبناء عليها والسير فيها، ولو كانت أباطح وجبالا لهلك الإنسان لتعذر الحياة عليها، ولذلك ورد فى الأثر الشريف : ﴿سَبَقَتْ رَحْمتِ غَضَبى﴾ ولو أن الغضب سبق الرحمة ما أبقى على ظهرها من دابة . قـــال تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[2] وقد بين الله تعالى التوحيد بيانا مفصلا لا يحتاج إلى بيان بعده . ومن تلقى عقيدة التوحيـــد من غير القرآن هوى فى هاوية الحجاب .

(١)

(٢)

وأول بدعة مضلة اشتغال العلماء من زمان المأمون بالرد على من تلقـــوا فلسفة اليونان والرومان والبابليين، وجعلوا المنطق الذي هو ضرورى للإنســـان فى تدبير مترله وتدبير المدن وسياسة الأمم، لأن أصغر طفل يعلم البديهيات المنطقيـــة، وكلما كبر قويت عنده المبادىء المنطقية فتراه وهو صغير إذا أعطته أمـــه رغيفـــا وأخذت منه لقمة بكى لأنه يعلم أن الجزء ينقص الكل، ويعتقد أن السماء فـــوق والأرض تحت، فيدرك البديهيات، فإذا كبر أدرك التصورات، فـــإذا كـــبر أدرك التصديق، ثم يدرك القضايا، ثم يحكم بالنتائج .فإن المنطق من ضروريات الإنسان، ووضع العلماء له كوضع الحساب والهندسة والطب والبيطـــرة مـــن الصـــناعات الضرورية للمجتمعات، ولم يوضع لتقوم به الحجة لله تعـــالى، لأن اليقينيـــات فى المنطق هى المحسوسات، والحق هو الحاكم ويعلوا قدره أن يدركه الحس أو يحـــيط به علما فضلا عن إدراكه، وما عرف الله تعالى إلا من فقهه الله فىكتابه العزيـــز فعرَّفه بكلامه .

والبدعة التى ابتدعها من ترجموا كتب الفلاسفة فى الرد على أهل الإنكار والجحود فبالغوا فيها حتى حكموا أن من لم يعلمها كافر بعد قول الله تعـــالى ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُـــونَ ﴾ إلى قولـــه : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) حكم هؤلاء القوم على أنفسهم بالجهالـــة لأنهـــم لم يفقهوا الفرق بين الإيمان والعلم، ولو فهموا الفرق بينهما لتحاشوا الوقوع فى تلك الكبائر . وإنى أبين الإيمان و العلم :

---

(١)

أما الإيمان فهو تصديق المخبر فى خبره حتي يبلغ تصديقه التسليم له، فإذا سلم له أخذ يبين له العلم بقدر عقله حتى يحصله .

أما العلم فهو تصور النفس رسوم المعلوم تصورا يجعل المعلوم كأنه معالم بين عينيه، مع نزاهة المعلوم وقداسته عن أن تحوم الأرواح والعقول حوالى قداسة نزاهته، كما قال على عليه السلام : ﴿ لَوْ كُشِفَ الْحِجَابُ مَا ازْدَدْتُ يقيناً ﴾ لأنه علم علماً تصور به رسم المعلوم على جوهر نفسه .

إذا علمت الفرق بين العلم والإيمان حكمت أن الذين يؤمنون بالغيب لهم الزلفى عند الله تعالى، سواء علموا الدلائل أو لم يعلموها، وقد يرفعهم الله تعالى مقاما عليا . أما أهل العلم بالله الذين عقلوا عن الله أسرار كلامه حتى منحهم الله اليقين، فلهم درجات عالية عند الله . قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) فالذين آمنوا بالغيب يرفعهم الله تعالى، والذين أوتوا العلم أعد لهم درجات عنده سبحانه . وقد بشر الله المؤمنين بالغيب بماعلمته، ثم حثهم على طلب العلم . قال تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ (٢) وقال سبحانه ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٣) فأهل الهمم العالية من المؤمنين لاتقف همتهم عند الإيمان بل يهاجرون إلى الصين وأبعد منها ليحصلوا العلم النافع، شوقا إلى الفوز عند الله تعالى بالدرجات العلا التى يمن الله بها على أهل العلم . قال تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ودليلنا

---

(١)سورة المجادلة آية١١

(٢)سورة الحشر آية ٢

(٣)سورة يونس آية ١٠٣

(٤) سورة الزمر آية ٩

على أن الإيمان غير العلم قوله نعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْــمَ وَالْإِيمَــانَ ﴾[1] فعطف الإيمان على العلم يقتضى المغايرة ولكن الجهلاء من الأدعياء جعلوا العلــم والإيمان سواء فقالوا : الإيمان من طريق النقل والعلم علم من طريق العقل، فما ورد من طريق النقل علم، وماورد من طريق العقل فهو علم، وقــد قــال تعــالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾[2] وكم تراهم لجهلهم بهــاتين الحقيقتين يلعن بعضهم بعضا كما أخبرنا الله تعالى عن أهل جهنم : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[3] حفظ الله أمة محمد﴿ ﷺ **وآله**﴾ من تلك الفتنة، وتفضــل علينا سبحانه بأن يجعل لنا نوراً فى قلوبنا نهتدى به إلى سواء السبيل .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾س١٦٤)

يخاطب الله تعالى العقل بالحجة القاهرة، مبينا له سبحانه أن كل إنســان لايعقل عن الله خبره عن الحقيقة التى هى هو بالنسبة لنا فى قوله تعالى : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لايكون له عقل موهوب كما تفضل الله على أهل محبنه . بل يحتاج كل عقل لم يكن موهوبا للفضل مــن الله تعــالى، لأن الإنسان حيوان مستقيم القامة، سوى ليس مكبا على وجهه. وبما تقتضيه قواه التى

(١) سورة الروم آية٥٦

(٢) سورة الجاثيةآية٢٣

(٣) سورة الأعراف آية ٣٨

تركب منها احتياج إلى جميع العوالم علوا وسفلا، وقد تكون ضـــرورياته ميســـرة فتستعمل مباشرة بدون كد ولا عناء كالماء والهواء والشـــمس ونباتـــات الأرض وشجرها، وكالمن والسلوى مما لم يجعل الله للإنسان فى نيله عملا وبذل جهود ولا كدا، أو ما كنزه الله للإنسان فى الأرض من إســـتخراج معادنهـــا و تخليصـــها، واستنبات زروعها التى يحصل منها مالا بد له من ضرورياته وكمالياته من مأكـــل ومشرب وفراش، وبيوت يستخفها يوم ظعنه وبيوت لإقامته مما يحتاج إلى العقـــل المفكر والأعضاء العاملة لاختراع الآلات والأدوات التى تيسر له مايحتاج إليـــه فى حله ورحتاله، وفى مرضه وصحته، وفى طفولته وشبابه وهرمه، وفى مجتمعه المنـــزلى والقروى والمدنى، وفى المجتمع العام الإسلامى والإنسانى .

كل تلك الحاجيات لاتتيسر بسهولة إلا بالعقل الإنسانى الـــذى يكـــون عاملاً فى الجسم الصحيح الأعضاء، فإذا مرض الجسم عجز هذا العقل أن يدبر هذا الجسم لضعفه عن القيام بما يريده العقل . وهذا العقل هو الذى يحصل علوم ظاهر هذه الحياه الدنيا . ومن لم يهب الله له عقلاً يعقل عنه فهو حيوان راق كالحيوانات المفكرة مثل الخيل والقردة والنسانيس، وبعض الطيـــور والأسمـــاك فى البحـــار، وكالنحل، وكل تلك الأنواع من الحيوانات مؤهلة لجلب النفـــع ودفـــع الضـــر بقدرها، وكذلك الأناسى من أهل الكفر بالله وبرسله عليهم السلام هم من فصيلة تلك الحيوانات الراقية إلا أنهم لكثرة احتباجاتهم كان رقيهم بقـــدر احتياجـــاتهم، وكانت البهائم أهدى منهم، لأن البهائم لم يطالبها الله بما كلف به الإنسان فليس لها بعث بعد الموت .

أما هذا الإنسان الذى هو العالم الوسط بين من دونه من عوالم الجمادات والنباتات والحيوانات، وبين من فوقه من عوالم الملكوت، فوهب لمن سبقت لهـــم

الحسنى منه سبحانه عقلا يعقل عنه فيؤمن بالغيب بمجرد خبره، فإذا قال الله تعالى : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قــال : صــدقت لانفــرادك بالألوهية دون غيرك، ولواسع رحمتك فى الدنيا يــارحمن، وعميمــا فى الأخــرى يارحيم، فإذا أقام الحجج والدلائل زادهم الله إيماناً حتى يبلغوا مقــام الــيقين بمــا ينكشف لهم من الآيات المنبلجة فيما أبدعه الله تعالى، وتكون تلك الحجــج لهــم لاعليهم، مزيد إحسان من الله تعالى .

وأما من لم يهب الله لهم العقل الذى يعقلون به عنه سبحانه ،فإن الله إذا أخبرهم بمثل تلك الآية أنكروا، كما فعلت قريش حيث قالوا : كيف يســع إلــه واحد هذا الخلق ؟ وسألوا اليهود : مالذى جاءكم به موسى ؟ قالوا أتانا بالعصــا وباليد البيضاء، وسألوا النصارى بم جاءكم عيسى ؟ فقالوا جاءنا بإحيــاء الميــت وشفاء الأكمه والأبرص، فتوجهوا إلىرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وقالوا : إجعل لنا الصفا ذهبا، فقال الله له : إنى أجعله لهم ذهبا فإن كذبوا بعد ذلك فإنى أعــذبهم عذاباً أحداً من العالمين، ورسول الله كما أخبرنا الله تعالى رءوف رحيم بالمؤمنين، فأبت عليه رأفته ورحمته﴿ ﷺ **وآله**﴾ أن يدخل قومه فى التجارب والامتحانــات الإلهية، قال : دعنى ياربى أدع قومى يوما فيوما وأسألك لهم الهداية، وأنزل الله تلك الآيات التى هى روح وريحان لمن جعل الله لهم نوراً فى قلوبهم، وقصما لظهور من لم يؤمنوا بالغيب، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

افتتح الآية بالتوكيد ثم قال : ﴿ فِي خَلْــقِ ﴾ و لم يقــل فى الســموات والأرض، لحكمة عالية اختلف فيها العلماء، لأنهم فهموا تلك الآية بقدر عقولهم،

لأهم لم يتلقوا من رهم بقلوهم حكمة التتريل ولا أسرار التأويل، فقال بعضـــهم : إن الخلق غير المخلوق، استدلوا على تأويلهم بما يناسب المحسوس الملموس، وقـــال بعضهم : هو عين المخلوق، واستدلوا على ذلك أيضا بما يناسب المشهود مع رعاية الأدب .

والأولى لمن يريد أن يفقه عن الله، ملآزمة التقوى رعاية لقوله تعـــالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (١) فإنه فى تلك الآية الشريفة قال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وفى غيرها قال : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) لفت العقل هنا إلى إيجاد السموات والأرض، ثم عدد بعد ذلك مافيهما من الأنواع المحيرة للعقل التى هى برهان روحانى فوق براهين العقول، ولذلك قال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى فى إيجادها من العدم، من غير مادة كانت أو صـــورة، ومن غير آلات وأدوات، ولا همامة نفس تجول فى تركيب، بل بإرادة خصصـــت، وقدرة أبرزت، وكلمة أظهرت .

والبحث فى أن الخلق غير المخلوق أو عين المخلـــوق، كالبحـــث فى أإن الوجود غير الموجود أو أن الوجود عين الموجود، وهى المباحث التى تحجب الروح عن سياحاها فى ملكوت السماوات و الأرض لينكشف لها غيب الله المكنـــون فى مكوناته .

كأن الله تعالى يقول لأهل الإيمان بالغيب : إنى وهبت لكم نـــوراً مـــن نورى يبين لكم غرائب قدرتى وعجائب حكمتى، وسر إرادتى فى إيجاد السموات

(١) سورة البقرةآية ٢٨٢

(٢) سورة الجاثية آية ٣

والأرض بعد أن لم تكن شيئا، إمدادا لكم وجعلتها مسخرة لكم لتشهدوا لآياتنـــا التى تجذبكم إلى العلم بأنى إله واحد رحمن رحيم، وفى خلق الســـموات وخلـــق الأرض بما فيهما من بدائع إبداع صنعى فى السموات من أفلآك ثابتاتوســـائرات، ومن أرواح عاليات، لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون، ومن حملة العرش ومن حولهم، ومن ملآئكة هم رسل الله لتصريف أقداره، وأمناؤه علـــى وحيـــه، ومعقباته الذين هم يحفظون عباده . وما فى تلك الأفلاك من الخواص التىعجـــزت العقول عن إدراكها من حيث كمها وكيفمها ودورانها وما هو منها ثابت، فما من كوكب يرى أو لايرى إلا وله خصوصية عجيبة جداً جعلها الله تعالى لخير العـــالم الأرضى، فمنها الشمس التى تخزن حرارتها فى أجسام الأشجار فينتفع بها الناس فى إبقاد النار، ومنها كواكب تكسب النباتات ألوانا، ومنها مايخزن الزيـــوت فيهـــا، ومنها مايجعله الله تعالى لوضع الآلوان والطعوم والروائح، فلاترى معدنا ولانباتـــاً ولاحيواناً على الأرض إلا ولكل كوكب فى السماء خصوصية تكون بها منفعـــة، فللقمر منفعة أودعها الله فيه لنفع النباتات التى لاساق لها . ولمد البحار وجزرهـــا عند تمها، ولبقاء صحة العيون للطافة نوره، ولإصلاح الألوان فيمـــا لالـــون لـــه كالنباتات فى بدئها، ولإفساد الألوان لماله لون، كإفساد ألوان الملابس الموضـــوعة تحت نورهمن غير حائل وقد أودع الله تأثيرا به يضر الأجسام التى تجلس فى نوره أو تنام فيه، وله خواص مكن حيث شهود آيات الله الدالة على جماله وبهائه وضـــيائه ونوره لاتفى العبارة بها، ولكنها تشهد بعيون الكشف، وهو أقرب الكواكـــب إلى الأرض .

ومابينه المنجمون عن الأفلاك من حيث ألوانها وأشكالها ودورانها وأبعادها فتخريص تكذبه عيون الكشف، وقد بينا طرفا مما يناسب أهـــل العلـــم بـــالله فى

كتاب: (شراب الأرواح) فى مثل هذه المواضيع، وإنى أنبه السالكين إلى أن يتلقوا هذا العلم من الله تعالى إلهاماً، أو مراقبة، أو مشاهدة بعد الإيمان الكامل بقبوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾[1] فإن كشف تلك الأسرار بالرصد أو بالحدس والتخمين لاتنكشف به الحقائق، والحكم به على مايعجز العقل عن إدراكه باطل .

إنما خلق الله تلك الكائنات ليعرف ويظهر جل جلاله . ومن حجبته تلك الكائنات عما أودعه الله فيها من أسرار حكمته وبدائع قدرته، ووقف عند الانتفاع بخواصها، أو بيان أسرارها التى لاتنال إلا بعد إتقان الصناعات وعلوم الرياضيات أهلك نفسه وغيره، وفاز بأجره بما يناله من شهرة ومال وجاه فى تلك الدار الدنيا، ولم يظفر من جهوده إلا بشىء قليل مما فى السموات والأرض من الأسرار والحكم . والسعادة كل السعادة أن تنكشف للسالك غوامض أسرار هذا الكون وما فيه من العجائب والغرائب، التى تحتاج فى معرفة مظاهرها إلى سبعين ألف علم بينْها الله فى كتابه العزيز، فقهها من فقهها، وحجب عنها من حجب ومن شغله العلم عن المعلوم باء بالخيبة، فإن العلم الحقيقى هو تصور النفس رسوم المعلوم بعد صفاء جوهرها، حتى تكون مرآة تنقش عليها الحقائق من حيث هى حقائق .

﴿ وَالأَرْضِ ﴾ ذكر السماوات بصيغة الجمع والأرض بصيغة الإفراد لأنه يخاطب العقول، والعقول أدركت أن الكواكب السيارة سبعة وكل كوكب منها فى سماء، وهى زحل فى السماء السابعة، والمشترى فى السماء السادسة، والمريخ فى

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢

الخامسة، والشمس فى الرابعة، والزهرة فى الثالثة، وعطارد فى الثانية، والقمـــر فى الأولي.

والآية إنما سيقت للحجة الواضحة على العقول، ولكن فوق زحل فلـــك يسمى : (نبتون) أو الكرسى، وفوقه : (الأطلس الأعظم) وهو العرش، وفـــوق العرش لا خلاء ولا ملاء،ولا يعلم علم ذلك إلا الله تعالى أو من أسرى به إليه

﴿ ﷺ وآله﴾، فأطلعه على غوامض أسراره فى كل مكوناته، ليريه آياتـــه مما غاب عن العقول والأرواح، مما لا يعلم علمه إلا الله، ليحيط﴿ ﷺ وآله﴾ بكل ما أبدعه الله تعالى، فإن العلم بتلك الآثار العظيمة يجعل العالم بهـــا عارفـــا بـــالله وبأسمائه وصفاته وبآثار أسمائه .

وإنما أفرد الأرض لأنها كوكب واحد من الكواكب المنتشرة ممالا يحصـــى أحد عدّها، موضوعة فى هذا الجو الفسيح وهى كمركز العالم . ولما كانت أقرب الأفلاك إلينا وكانت محل إيجاد مالا بد لنا منه كان التدليل بها على وحدانيـــة الله وقدرته وإحسانه وفضله ألصق بالعقول من السماوات، لأن الذى علمنا بعقولنا من السماوات لم يكن عيانا لأبصارنا وبصائرنا إلا إذا كشف الله الحجاب عنا . ولكن ما فى الارض أدركناه بعضو السمع والشم والذوق والبصر واللمس، وتحققنا قدر إحتياجنا إليه، وعجزنا أن نوجده لانفسنا، وأنه فضل من الله تعالى تفضل به علينا . وفى الأرض أسرار وغرائب إذا كوشف بها السالك تجلت له معانى صفات الحق جل جلاله منبلجة فحيرت عقله، وأدهشت لبه، وجعلته يدرك عجزه عـــن إدراك حقيقة ذرة منها وهى أثر القدرة . فكيف يدرك قوة أبـــدعت وإرادة خصصـــت وكلمة نفذت ؟ .

وهنا تقهره الحقائق فيقول سبحانك ماعرفناك حق معرفتك، سبحانك لاتدركك الأبصار وأنت تدرك الأبصار وأنت اللطيف الخبير . وبقدر مايعلمه من تلك الحقائق يكون علمه بالله، وبقدر ما يجهله من تلك الحقائق يكون جهله بالله، ولذلك يقول﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةً عَلَى كُلِّ مُسلْمٍ وَ مُسْلِمَةٍ ﴾ والذى أراه أن مراده﴿ ﷺ وآله﴾ والله أعلم، طلب المعرفة بآثار قدرة الله وغرائب حكمته، لترسم تلك الحقائق على جوهر نفسه .

﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾

يبين الله سبحانه حقيقة محسوسة تكشف لمن نظر إليهانظرة عبرة، أن القادر الحكيم هو الذى أبدع تلك الآية بسر إذا كشف، حكم العقل بانفراده بالألوهة، وبأنه واحد أحد لايزدوج، متره عن النظير والضد والند ،

فاختلاف : أى تعاقب الليل والنهار بمعنى أن الليل يخلف النهار، والنهار يخلف الليل، فهى من الخلف ولفظها بمعنى الافتعال، وتأولها بعض العلماء بأنها من الاختلاف أى المخالفة . ومعنى هذا أن الليل والنهار لايفقدان، فقد يكون عندنا عصر وفى بلاد مراكش ظهر، وقد يكون عندنا نهار وعند غيرنا ليل، وقد يكون النهار بضع عشرة ساعة كأيام الصيف والليل بضع ساعات .

وهذا الاختلاف لخير العالم لالضررهم، فهى أية كبرى لأن الله سبحانه جعلهما مختلفين، والعادة أن المختلفين يحصل منها الضرر، إلا اختلاف الليل والنهار فإنهما لنفع كل ماعلى الأرض من دابة أوطير ومافيها من معدن أو جماد أو ماء ،وفى اختلاف الليل والنهار من طول الليل وقصر النهار، أو طول النهار وقصر

الليل، وتعاقب آثار العناصر الأربعة فى اليوم الواح بل وفى كل الســـنة، فتـــرىمن ثلث الليل الأخير إلى الفجر الصادق برداً ورطوبة تناسب الماء، وترى من الفجـــر الصادق إلى شروق الشمس برداً ويبوسة وسكون هواء يناسب التراب . وترى من الضحوة إلى مابعد الزوال حرارة ويبوسة تناسب النار. وترى من وقت الأصيل إلى جوف الليل حاراً رطباً يناسب الهواء وماهو فى اليوم الواحد تراه فى السنة كلـــها، فترى فى السنة انقلابين واعتدالين، فمن الاعتدال الربيعى يستوى الليل والنـــهار ثم يأخذ الليل فى النقصان واالنهار فى الزيادة، إلى الانقلاب الصيفى ومنه إلى الاعتدال الخريفى فيعتدل الليل والنهار ويأخذ الليل فى الزيادة والنـــهار فى النقصـــان، إلى الانقلاب الشتوى وكل هذه التغيرات من كبريات الآيات التى بها حفـــظ حيـــاه العالم، متمتعا بما لابدله منه من ضرورياته وكمالياته، فإن كل فصل يناسب اعتدال أمزجة وزروع وضروع، وشفاء من أمراض اقتضاها السن والزمان والمكان .

وفى اختلاف الليل والنهار من أسرار الحكمة وواسع الرحمـــة وعمـــيم النعمة، مابه يشاهد من جعل الله له نوراً فى قلبه جمال ربه جليا تشـــهده روحـــه، ويلحظه قلبه، ويفرح به جسمه، فينجذب الإنسان بكل حقائقه إلى شـــكر ربـــه العلى العظيم، الذى هيأله قبل وجوده فى هذا الكون مابه ينال السعادات الكونيـــة فى بسط وأمن ويسر، ومابه ينال السعادات الأخروية قى جوار ربه العلـــى، مـــع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بما أمده به أمده به فى هذا الكون من ماء أنزله من السماء فوق أرض خصبة وأجراه علـــى الأرض أنهاراً مرتفعا عن سطحها، مسوراً بجبال تحفظه من أن تمتصه الرمال، أو أن يتسرب فى التراب فيضيع من غير أن ينتفع به بنوالإنسان ،وجعل الأرض منبســـطة أمـــام

الناظر ليسهل على الإنسان زرعه وبناؤه وسفره وغير ذلك مما لايتم صفاء الحيـــاة إلابه .

ففى اختلاف الليل والنهار من غير أحوالهما من وقت لطيف بين حرارة وبرودة ينشط للعمل ،إلى وقت حار يلزم الإنسان أن يستريح من العمل، إلى وقت ألطف من حيث النسيم العليل البليل . فالبرد المناسب الذى يجعل الناس تسكن إلى فراشها، لتهجع من شواغلها، فتكون أنواع التغيرات فى اليوم الواحد سبباً فى حفظ قوة الإنسان وحياته. ولولا تلك التغيرات فى كل يوم لهلك العالم أجمع، بحيث لـــو اشتدت الحرارة حتى فقد الهواء من الجو وتنفس الإنسان نـــاراً حاميـــة لهلـــك، ولواشتدت البرودة حتى تقلصت الأجسام لهلك الإنسان . وسبحان المدبر الحكيم الخبير اللطيف الرءوف الرحيم .

ولو اجتمع الإنسان المغرور بما منحه الله من الصناعات والفنون على أن يغير مايريد الله تعالى أن يترله به من الصواعق والزوابع، وهزات الأرض، وطغيـــان الماءِ وكان كل إنسان من الأناسى علم من الصناعات مابه يقهر المعادن والجمادات والنباتات والحيوانات، لعجزوا جميعاً عن دفع أصغر آفة من تلك البليات . ولكـــن قتل الإنسان ماأكفره، يتفضل الله عليه بسوابغ النعم تتوالى عليه من البحار والأنهار والأرض اليابسة، الجبال والتلال والمناجم، ومن الهواء ومافوقـــه مـــن الســـحب، ومافوق ذلك من الكواكب السيارة والثابتة، ومافوق ذلك مـــن قـــدرة القـــادر، وحكمة الحكيم، وإحسان المنعم المتفضل، وكرم الغفور الصبور الشكور الســـتار، وغير ذلك مما أخفاه الله عن الصناع والمخترعين والفلاسفة مـــن جمالـــه وفضلـــه وجوده الذى أودعه فى كل ذرة من ذرات العالم، قال تعالى ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ

عَلِيمٌ ﴾ (١) وقال سبحانه ليقهر من غرهم علم ظاهر الحياه الدنيا : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلًا ﴾ (٢) .

هذا مايمكن أن يسطر فى صفحات الأوراق، وفى غصون اختلاف الليل والنهار وسرعة تغيرهما فى كل نفس دليل عل حسن تدبير الله تعالى وواسع رحمته . وعلى أنه سبحانه الأحد الصمد القادر، وأن كل من سواه وماسواه محدث جديد أوجده سبحانه من لاشىء، ليظهر جل جلاله بكماله وجماله وجلاله ونوره وبهائه وضيائه، ولكنه سبحانه هو الرب الكبير المتعال ،الذى لايضره كفر عباده جميعاً، ولاينفعه إيمانهم وطاعتهم، سخر لهم كل شىء فى ملكه، ووهب لهم العقول المكتسبة بالتثقيف والتهذيب، وجعلهم لا حياه لهم إلابضروريات كثيرة يسر لهم منها مالاغنى لهم عنه نفسا واحدا كالأرض التى تقلهم، والسماء المزينة بالكواكب التى تظلهم، وكالماء والهواء والحرارة والحيوانات والنباتات والمعادن، وخلق لهم أعضاء كالآلات والأدوات ينوعون بها مواد تلك الحقائق، وينتفعون بماكتره الله لهم فيما أحاط بهم من الموجودات بإلهام من الله تعالى، أوبتعليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم .

فإن الله تعالى علم الأنبياء الصناعات وعلموها لأممهم، فعلم آدم االزراعة وعلم أولاده فىزمنه تربية الحيوانات، وعلم نوحا النجارة، وعلم إدريس الحياكة، وعلم إبراهيم الحكمة النظرية، وعلم موسى الحكمة العملية، وعلم داود الحدادة، وعلم عيسى الطب، وجمع لخاتم الأنبياء كل الصناعات الجسمانية والروحانية فعلمه

(١) سورة يوسف آية٧٦

(٢)سورة الإسراء آية ٨٥

رعى الدواب صبيا والتجارة شابا، والزراعة، وعلو الهمة فى إتقـــان الصـــناعات االضرورية والكمالية،فكان﴿ ﷺ وآله﴾ طبيبا رفيقا وعلمه السياسة الحكيمـــة فى تدبيرالمترل والقرية والمدينة والمجتمع العام وعلمه﴿ ﷺ وآله﴾ أكمـــل سياســـات الجهاد، وفوق ذلك علمه ﴿ ﷺ وآله﴾ علم الغيب المصون الذى به الفوز بالملـــك الكبير فى جوار رب العالمين ، وعلمه سبحانه ما به كمال الأشباح حـــتى يكـــون الإنسان عالما أصغر ينطوى فيه العالم الأكبر، فكان بما تفضل الله بـــه عليـــه﴿ ﷺ وآله﴾ الحقيقة التى جملها الله تعالى بما يحبه ويرضاه من خلقه ،وبما ينال به الخلـــق كمال النعمة ودوام المسرات ، وكأن الله تعالى يقول : إن حبيبى محمداً﴿ ﷺوآله﴾ جملته بما أحبه من خلقى عقيدة وعبادة وأخلاقاً ومعاملة وأحوالاً، وكلف عبـــادى أن يطيعوه فيما أمرته به بقدر استطاعتهم، وأن ينتهوا عما نهـــاهم مـــرة واحـــدة إلاماأكرهوا عليه. ﴿ **وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ** ﴾

يذكر الله الإنسان بما أنعم به عليه من ماء سائل مستبحر، وهواء متوسط بين نسيم عليل بليل وريح عاصف عقيم، وعقل مخترع، وأعضاء عاملـــة تـــتقن الصناعة، وأشجار ضخمة نأخذ منها الأخشاب الازمة للصناعة واختراع منشآت للشحن والنقل كالسمك يسهل مرورها فى الماء ودورانها فيه وهى السفن وسميت فلكاً لأنها مستديرة، وتلك السفن التى يقيم الله بها الحجة لأهل العقول التى تعقـــل عنه، وعلى أهل البعد عنه إذا نظر إليها أهل العقل وإلى ما يلزمها لتجـــرى لنفـــع الناس حكم بالبديهة أن كل تلك الحقائق الازمة لسيرها لا يقدر على إيجادهـــا إلا الله تعالى، لأنه جل جلاله أوجد الإنسان من لا شىء روحاً، وأوجده من العناصر الكونية جسماً . وتلك العناصر التى خلق الإنسان منها خلقت من لا شىء . قال

سبحانه لزكريا عليه السلام : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَــكُ شَــيْئًا ﴾ [1] فكشــف للعقول فى تلك الآية حكمة إمداده بتلك الحقائق، لتشهد جماله الظاهر الجلى فيها فتذكره ولا تنساه، وتطيعه ولا تعصيه، وتشكره ولا تكفره .

وفى تفصيل ما أجملناه فى تلك الحقائق طول على السالك، وفيما قررنــاه بيان يكفى السالكين قال تعالى ﴿ واتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ بما علمتم ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [2] ما لم تكونوا تعلمون . وإنما تعلم الإنسان صناعات الفلك من الرسول الكريم نوح عليه السلام . ومن ساحت روحه الفاضلة فى ملكوت السماوات والأرض بعد أن زكت نفسه، ورسمت تلك الآيات المكونات على جوهر نفسه ذكر وحضر، ولربه شكر .

فانظر بعين الفكرة فى الفلك التى تجرى على الماء يجريها الله تعالى بالهواء وبالبخار، تحمل للناس أقواتهم من بلاد غير بلادهم، وتحمل إليهم مايحتاجون إليــه من مال أو صناعات أوآ لآت أو قوت أوملابس فيحصل التبادل الذى به حيــاة المجتمعات الإنسانية .وفى الفلك لأهل البصيرة مزيــد علــم فى إقــدام الإنســان وشجاعته، وإلقاء نفسه فى المهالك لنيل ضرورياته، وذكرها فى القرآن دليل علــى إباحة الله للتجارة والأمر بالعمل فى طلب المعاش، وفيها ظهور خفــى لطــف الله تعالى للمسافرين فى البحر عند سقوط زوابع الرياح، وعجز الربان والنوتيــة عــن حفظ السفينة من هيجان البحر، ونجاه السفينة من تلك الإخطار عنــد مــايعجز

---

(١) سورة مريم آية ٩

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٢

المسافرون عليها عن حفظها، ويفوضون أمورهم إلى خفى الألطاف، فيتـــداركهم اللطف الخفى، فيخرجون من السفينة وقد كمل إيمانهم لمعرفتهم أنفسهم بالعجز ..

وهنا أبين لك مثلاً تتذوق منه التوكل على الله تعالى، فإن المسافرين على السفينة مهما هاج البحر بزوابع الريح فإنهم يعتمدون على النوتية والربان، فتطمئن قلوبهم كلما رأوهم مطمئنين، فإذا انزعج النوتية التفتوا إلى الربان، فإذا يئس الربان من النجاه أقبلوا بكليتهم على الله متوكلين عليه بإخلاص، وهذا التوكل حقـــا . ومسلم يعتمد على غير الله من مال أو ولد أو حاكم ويدعى أنه متوكل علـــى الله تعالى فهو كاذب حتى يكسر تلك الأصنام من قلبه بشـــهود أو بحـــادث مهلـــع، وبذلك يكون صادقاً فى توكله .

﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ البحر هو الواسع المتنائى الأطراف . يقال فلان بحر فى العلم أى واسع الإطلاع، وفى اللغة البحر هو الشق فى الأرض، واصطلح الناس على أن يسمى الشق الذى يجرى فيه الماء الملح بحراً والشق الـــذى يجرى فيه الماء العذب نهراً وقد بين علماء تخطيط الأرض بحارها وأنهارها فليراجـــع ذلك من أراد معرفتها. ولكنى هنا أبين لك الحكمة فى أن جعل الله ثلاثة أخمـــاس الأرض بحاراً ملحة، وخمسين منها يبساً وأنهارا. تعلم أن الله تعالى جعل الماء الملـــح أجاجا وخلقه ينفع الناس مدة بقاء هذا الكون، فلو جعله عذباً لأسن وتعفن فأفسد الهواء بعفونته وأهلك العالم أجمع، فجعله ملحاً حفظاً للماء وطهارة للهواء . أمـــا الأنهار العذبة فإنه سبحانه جعل منابعها من أرفع شواهق الجبال وأجراها ســـبحانه منها إلى منبسط من الأرض إلى أن تصب فى البحار الملحة بعد أن تنفع الأنـــواع الحية كلها وهنا أبين لك مذاهب الناس فى البحاروالأنهار :

قال بعضهم : إن الشمس تبخر طبقة كثيفة من ماء البحار فى الأقطار التى تسامتها بحسب تغير فصول السنة فترتفع إلى الأفق إلى أن تصل إلى درجة الزمهرير، فتتجمد وتحملها الرياح بتقدير الله تعالى، ثم تسقط بها إلى أن تصل قـــرب الأرض فتتفرق وتصب عليها وتترل سيولاً إلى الأنهار . وقال بعضهم : أنه يترل من السماء كما أخبرنا الله تعالى .

وكلا القولين يقيمان الحجة على عجائب القدرة، وعلى حسن تدبير الله تعالى وإكرامه لخلقه . فإن الذى جعل الشمس التى تبخر الماء، وخلق الماء الغزيـــر الذى يتبخر بحرارة الشمس فيخرج عذباً نقياً، وخلق الهواء الـــذى يحمـــل تلـــك القطرات إلى حيث شدة البرودة فتتجمد وتكون سحاباً، أى مسحوباً بقـــدرة الله ورحمته إلى الأماكن التى قدر الله أن ينفعها به، والله تعالى هو الذى جعـــل تلـــك السحب إذا قربت من الأرض ذابت ونزلت قطرات لنفع الخلق، لأنه لـــو أنزلهـــا كمرات كبيرة لهدمت المنازل، وخددت الألاض، وأهلكـــت الـــزرع والضـــرع والحرث والنسل .

وكل تلك الآيات دلائل حق على أن الله واحد أحد فرد صمد تتره عن العلة والغرض . وسعت رحمته كل شىء ولو أن العالم أجمع شر من إبليس وأضـــر من الوحوش الكاسرة لما منع منه تلك الرحمة، وهذا الفضل لأنه رب تعالى . خلق الخلق لاحاجة إليهم ومنحهم فضله وجوده وبره لالعبادة تقربوا بهـــا إليـــه قبـــل وجودهم فى هذا الكون، ولكنه محسن كريم حليم شكور . وهذا الـــرب القـــوى القادر الخلاق الرزاق قادر أن يترل تلك الأمطارمن السماء مباشرة، ولكنى أرى أن وجود البحار الملحة العظيمة فيه أسرار عظيمة وحكم عالية وإن كان لها حكـــم أخرى فى حفظ الأرض من أن تميد بنا حيث قابلت الجبال، إلا أنها يكون وجودها

عبثاً إذا لم يكن فى إيجادها وإبداعها أسرار غامضة تحيرأكمل العقول فيمـا ينفـع الناس ويكمل به إيمان المؤمنين . وتتره الله تعالى عن العبث . فإذا انكشـف لنـا حكمة إيجادها والسر فى إبداعها من حيث نفع الخلق بها لكان ذلك أقوى لإيماننـا وأقرب إلى كمال يقيننا لأننا كلما انكشفت لنا حكمة من حكم الكون، وتحققنا عجزنا عن إدراك الحقائق المحيطة بهذا الكون، نكون أعظم عجزاً عن إدراك غيـب الغيب المصون، فسبحان من حير أكمل العقول فى بدائع إبداع صنعه، وفى علـى آياته الجلية للعقول تتره وتعالى .

ولنا أن نقول : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴾ أى من المكـان العالى عنا، لأن السماء كل عال من السمو ويكون للعقل فى هذا الفهم سـياحة تكشف له مابه يطمئن القلب، فإن القادر القوى المتين يخلق مايشاء من غير شىء، ويخلق مايشاء من شىء هو سبب له، وإنما الذى نخشاه هو وقوف أهل الجهالة عند الأسباب وقوفاً يجعلهم يرتدون إلى أسفل سافلين الطبيعة، فتحجبهم الأسباب عن واضعها وهم الملحدون الجاحدون . وإن جهنم لمحيطةبالكافرين قال تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾(١) وقـد علمـت فيماتقدم الأسباب التى وضعها الله لجريان الفلك فى البحر .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ يعنى أنه سبحانه وتعالى أمد الإنسان بكل كائن فى السماء وطبقاتها وأجوائهـا، وفى الأرض وأرجائهـا، وفى الريـاح ومهابها، وفى الأفلاك ومداراتها، فما من ذرة فى العالم من علوه إلى أسفله، بل من العرش إلى الفرش إلا وفيها خواص لنفع العالم والكون كله لمصالح النـاس . قـال

---

(١) سورة الكهف آية ١٧

سبحانه ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِـي الأَرْضِ جَمِيعًـا مِنْـهُ ﴾ (١) فسبحانه الغنى عمن سواه الذى، أغدق نعمه وفضله وجوده بالإحسان على جميع خلقه، فهو الرزاق اللطيف الرحيم بالدودة فى جوف الحجر، وهو الرازق الكـريم الحفيظ بالسمندل (حيوان يعيش فى جوف النار) وهو العطوف الرءوف بالأسماك فى جوف المحيط الشما لى والجنوبى اللذين يتجمدان أكثر العام، فيجرى لها تيارات حارة تحت الثلج، ويخلق لها نباتات فوق أرض البحار رحمة بها وحفظاً لها وتيسيراً لقوتها. قال سبحانه ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (٢) كل هذه الحقـائق تنكشف للنفوس الزكية حتى ترتسم على جواهرها، فتشهد بعيون الأرواح جمـال الخلاق العظيم الواسع الكريم، الذى سبقت رحمته غضبه.

فقوله : ﴿ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ والناس منهم المؤمن والكافر فللكافر نفـع بالمادة لنيل السعادة الكونية الفانية لأن الله تعالى يمنحه وسعة الرزق بقدر جهوده . وللمؤمنين نفع فوق هذا النفع، فإنهم ينتفعون بما ينتفع به الكافر لوجوب السـعى عليهم بقوله تعالى: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِـهِ ﴾ (٣) ويزيـدهم الله شهوداً بعيون الإيمان لما أودعه من معانى صفاته العلية فى الكائنات، حيث تحجـب أنوار معانى الصفات تلك الآثار والكائنات، ويظهر نور الخلاق الـرزاق المعطـى الوهاب الهادى الموفق القريب المجيب، بل تظهر معانى صفات أسماء الجمال والجلال بحسب ما يتوالى عليهم مما يلائمهم أولا يلائمهم، فسبحان من خلـق الإنسـان وخلق له جميع الكائنات ليعبده فلايجحده، ويشكره فلايكفره، ويطيعه فلا يعصيه،

---

(١)سورة المجادلة آية١٣

(٢)سورة النحل آية١٨

(٣)سورة الملك آية١٥

ويذكره فلا ينساه، فمن وفقه الله لهذا فقد أتم عليه نعمته، وجمله بأخلاقه، ومنحه الملك الكبير ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴾[1] ومن أضله الله، وعن الفوز بهـذا الخيـر أقصاه، وقف عند الأسباب فبحث، حتى وقف عقله خاسئا وحسـبرا، وزعم لجهله أنه أدرك الحقائق، والله تعالى يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾[2] ويقول سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ﴾[3] فليفرح بفضل الله وبرحمته من نفعه الله بما نفع به أنبيـاءه ورسـله والشهداء والصالحين، ولينظر إلى نعمة الله عليه فى إقامته فى محابه ومراضيه، وليدم الشكر إذا رأى إنساناً نظيره جاحداً ضالا مضلا، يحكم بهواه وعماه حكماً باطلاً على الحقائق، منكراً أن لهذا الكون العجيب ربا حكيما مدبراً . نسأل الله أن يحفظ لنا إيماننا، وأن يديم لنا شهودنا بحفظه وعنايته.

﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴾

قد بينا تأويل إنزال الماء من السماء، ولكنى هنا أتكلم مع أهـل الإيمـان الذين جعل الله لهم نوراً فى قلوبهم.

أسند الله إنزال الماء من السماء إليه سبحانه، ليكشف لك الحجاب عـن حقيقة يكمل بها يقين العبد عند انبلا جهاله، وهى أنه سبحانه إذا أسند إليه ايجـاد خير للعالم يكون ذلك الخير كخيرات الجنة، ليس لنا فيـه عمـل ولافى تحصـيله

(١) سورة الشعراء ءية ٨٨

(٢)سورة الكف آية٥١

(٣)سورة الرحمن ٣٣

جهود، كالماء المترل من السماء، والرياح التى بها حياة العالم، وكالشـــمس الـــتى لولاها لهلك الخلق، وكوجود الأرض التى قد مدها الله ومهدها للإنسان لينتفع بها فى حياته، وكوجود التراب بها قابلاً للزرع، وغير ذلك، وإن كان مايناله الإننسان بالجهود كالمصنوعات من المعادن والأخشاب والخام فإن ذلك خلقه لنـــا ليقيمنـــا عمالاً له فى أرضه، وخلفاء عنه فى ملكه، فكان إنزال الماء من السماء يذكرنا بالجنة كما قال﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ سَيْحُونُ وَجَيْحُونُ وَالنِّيلُ وَٱلْفُرَاتُ مِنَ الْجَنَّة ﴾ وعلـــى ذلك فالأنهار والبحار من الجنة . ومعنى كونها من الجنة يعنى أن الإنسان ليس له فى تحصيلها عمل ولابذل مجهود مع أنها أشد ضروريات الإنسان .

﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾

الحياة أنواع : منها حياة المعادن، وحياة النباتات، وحيـــاة الحيوانـــات، وحياة الأناسى، وكل حياه بنسبتها إلى النوع الحى، فالماء المترل من السماء يحـــيى كل تلك الأنواع، وفيه إشارة للعقول أن هذا الماء المترل من السماء أحيا الله بـــه موات كل تلك الأنواع . فإذا أفنى الله من على وجه الأرض أعاد حياة الأناســـى بماء يترله من السماء قد بينته فى كتاب : (النشأة الثانية) فراجعه، ويكون هـــذا سبباً فى إحياء بنى آدم للبعث والنشور، وفى هذا الوقت يكـــون الجمـــال الإلهـــى الصرف قد غمر من سبقت لهم الحسنى، ويكون الجلال والقهر قد أوبق أهل الكفر بالله . أقول لك الجمال الصرف لأن جماله سبحانه فى هذه الدار الـــدنيا مشـــوب بالجلال .

وفى قوله : ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ إشارة إلى الجدب والزلازل وغيرها . وفيـــه إشارة إلى إحياء القلوب ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإقامة ورثتهم الذين

كانت ساعة واحدة من رجل منهم خيرا من أربعين سنة مطراً، لأن الناس لوفقهوا أن الأمطار تحيى النباتات والحيوانات والجمادات، وأما الماء الذى يتزله الله من سماء القلوب إلى أرض القلوب فإنه يحيى النفوس فيزكيها، والأرواح فيخلصها من سجن الهياكل، ويحيى العقول فيشهدها جمال آيات الله فى الكائنات، ويحـيى اللأجسـام فيقيمها فى محابه ومراضيه، وبذلك تملاء الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن كانت ملئت ظلماً وجوراً . وشتان بين نور الشمس الذى يبين تلك الآثار المادية، وبين نور الله تعالى الذى يسطع من القلوب العامرة به، فيبين جمال الله، ويشهد عجائب بـديع آياته، فيكون العبد المشاهد فرحاً بفضل الله تعالى ورحمته، أوحاضراً مع الله تعـالى أو عنده أو لدنه، أو آنساً بالفناء سبحانه عما سواه .

وقد جعل الله تلك الحقيقة المحسوسة الملموسة التى هى إنزال المـاء مـن السماء مثالا يتزله سبحانه : من سماء فضله على من يشاء من رسـله لتحيـا بـه القلوب فتشرق بأنوار علام الغيوب قال سبحانه ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَـالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ (١) وإن شاء الله تعالى نبين ذلك بعد .

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾

يظهر للعقول سبحانه ماستره عنها الحس بوقوفه عند منفعة الأشـباح، حاجباً الأرواح عن أن ترى آيات الله بتوفيقه لها فيما أبدعه لنفع الحس والجسـم، ولتحصيل الروح مزيد العلم بالله بشهود مافى تلك الأنواع . يقـول سـبحانه : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى فرق فى الأرض أنواعاً كثيرة من الدواب . وهنـا

(١) سورة الرعد آية ١٧

غلب ما يدب فى الأرض على مايطير فى الجو، وأن مراد الله تعالى فى هـــذه الآيـــة وهو أعلم، أن يمن علينا بما خلقه لأجلنا من الحيوانات التى تدب علـــى الأرض، أو تسبح فى البحار، أو تطير فى الأجواء كما تقول النيران للشمس والقمر، والعمران لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وقد بينت فى كتاب : (شراب الأرواح) بعض عجائب القدرة المودعة فى بعض الحيوانات .

وأكمل العجائب المحيرة للعقول القاصمة لظهور الملحدين مافى الإنســـان من الآيات التى جمعت فيه العالم الأكبر، لأنك تراه وهو العالم الوسط الذى جمـــع الله فيه معانى صفاته كلها، فوهب له عقلاً يفتح به كنوز الأرض فيستخرج منـــها ماأودعه الله فيها من أنواع المعادن، وكنوز النباتات ويستخرج منها ماينـــال بـــه السعادة فى الدنيا من حفظ الصحة وإعادتها بعد فقدها وكنوز الأجواء والأرجـــاء فيتحصل منها على تيسير المواصلات، وسخر كل شىء من الكون لهذا العقل فيقهر به أنواع الحقائق لينتفع بها فى نيل السعادة الكونية، وجعل تلك السعادة الكونيـــة ميسرة لكل من استعمل عقله وكد نفسه فى أى نوع من أنواع الأعمال الكونية، من صناعات ومخترعات وتجارات وزراعات وطب وبيطـــرة وفنـــون ضـــرورية للمجتمع وأعان هذا العقل بأعضاء تنفذ له مايتصوره نافعاً.

فلا ترى خيراً وسعادة وعمراناً ومدنية وأمنا وعافية ورخاء إلاوالإنســـان سببه إذا عمل مستمداً من الله القوة والعون، شاكراً له أنعمه، ومتابعا لرســـول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ، عاملاً بهدى السلف الصالح، لأن الإنسان خليفة ربه فى أرضـــه، ولاترى خراباً ودماراً ووباء وزلزالا وصواعق وإبادة إلا والإنسان سببها إذا نســـى ربه واليوم الآخر،وآثر نفسه على من يجب عليه أن يحب له مايحـــب لنفســـه، لأن الحق جل جلاآله الذى أقامه خليفة عنه فى أرضه بشره بالوعد وأنـــذره بالوعيـــد

فالإنسان هوآية الآيات، ولاترى على الأرض من قام يحارب ربه وينسى نفسه إلا الإنسان فهو شر من إبليس، ولاترى من إذا هم للضرر أضر مجتمعاً كالإنسان فهو أضر من النار المسعرة ومن الوحوش الكاسرة، بل ولاترى من قربه الله فيتقرب إليه حتى يسمع كلآمه . كفاحاً ويرى جماله عياناً إلا الإنسان فهو خيرمن الملائكـــة، وأفضل من الأرواح الهائمة فى جلال الله، فإن شئت أن تـــرى مـــدعياً الألوهيـــة بالباطل طالباً من أمثاله اتخاذه رباً بالبهتان فلا ترى إلا الإنسان، ولاترى متخلقـــاً بأخلاق الله قائماً مقام ربه فى محابه ومراضيه إلا الإنسان .

وهذا الإنسان الذى قال تعالى فيه ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) وصدق الله العظيم، فإن الإنسان يخرج من بطن أمه لا يتصور ولا يحكم على شئ، بل هو كالنبات الذى يتغذى وينمو إلي أن يستوى، فيخرق العادات بذكائه وفطنته وتحصيله العلوم، بخلاف جميع الأنواع الحية التى تخرج من بطون أمهاتها ملهمة عمل كل ضرورياتها وكمالياتها فلا تزداد باستوائها علماً بل تزداد قوة . قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقدْ عَرفَ رَبَّهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) فما فرق الله فى الأرض من الدواب وسخرها للإنسان دليل على أن الإنسان هو الذى خلقه الله لعبادته وخلق لأجله جميع خلقه .

---

(١) سورة النحل آية ٧٨

(٢)سورة الذاريات آية ٢٠-٢١

وقد شرح بعض العلماء العبادة أنها هى المعرفة والعمل بمقتضـــاها، لأن الإنسان متى عرف نفسه بما جمله الله به من معانى صفاته، وبما أظهره له من نشأته الكونية التى هى النطفة الجارية فى مجرى البول مرتين، ثم صوره جـــل جلالـــه فى الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضغة لحم إلى عظام ثم كسا العظام لحماً ثم أنشـــأه خلقاً آخر مجرداً من كل إدراك وشعور وعلم، كأنه نبات يأكل ويشرب من لبـــان أمه ،وينمو ويتحرك من غير إرادة وشعور، ثم سخر له الكون، ثم أقامه خليفة عنه ،ثم اصطفى من شاء فرفعه عن ملائكته وعن حملة عرشه كما قال تعالى : ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ [1] ورد من يشاء فيجعله أسفل من الشـــياطين، قـــال تعـــالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [2] خلق الإنسان على صورة الرحمن، ورفع من أحبهم إلى أن أجلسهم على منابر من نور قدام عرش الـــرحمن، لايخـــافون إذا خاف الناس، ولايفزعون إذا فزع الناس، لايردون نارا، ولا يرون صراطا فى الآخرة ولا بشعرون بحسيس جهنم، بل يجعل الله لهم أحجنحة من نور يطيرون بها إلىربهم ليظهر كماله وفضله وإحسانه ونزاهته عن العلة والغرض، وغنـــاه عـــن العبـــادة والتقوى، وأرسل لقوم ممن سجل عليهم سوء القضاء زبانية جهنم يسوقوهم بمقامع من حديد حتى يكبوهم فى النار على وجوههم، ليظهر كمال قهره وعزة ربوبيتـــه جزاء لمن كفر بأنعمه .

هذا رذاذ مما أودعه الله تعالى فى الإنسان من الآيات التى تدركها العقول السليمة من الهوى . أما مافيه من القوى الظاهرة والباطنة التى تسمى قوى النفس، فقد زعم الخراصون الذين بحثوا فى العلوم والطبيعية بقوة الهوى والحظ أن النفـــوس

(١)سورة محمد آية ٣٥

(٢)سورة النساء آية ١٤٥

فى الهيكل الإنسانى ثلاثة : الحس والجسم والنفس . وكذبوا لأن النفوس لوكانت ثلاثة وفقد الحس بالنوم أو بالإغماء أو بضياع قوة من قواه المركزيـــة كالســـمع والبصر أو الشم أو الذوق لفقدت النفوس كلها، أو فقد الجسم أطرافـــه بـــالبتر لفقدت النفوس كلها، وإنا لنرى الإنسان يفقد حسه بالنوم أو بالإغماء أو بمـــرض عضال وهو حى يرزق . والحقيقة أن النفس واحدة ولها ثلاث قوى ولكل قـــوة منها أعمال خاصة، وقد بينت ذلك بالتفصيل فى كتاب : (معارج المقـــربين) [(١)] وكتاب : (النور المبين) [(٢)] وكتاب : (تذكرة المرشدين والمسترشدين) [(٣)]

وهنا ألمع إليك بسر عجيب وسع السموات والأرض ولم يتجاوز شبرا فى شبر، وهو الوجه والرأس، فتجد فى الوجه آلات السمع والبصر والشم والـــذوق والنطق التى بها إدراك الحقائق الكونية، وتجد فى الرأس قوة الخيال والوهم والإدراك والحافظة والمخيلة والحاكمة، فسبحان من جمع فى هذا العضو الصغير مـــا جعـــل الإنسان عالما كبيرا ينطوى فيه العالم الأكبر . أما ماعدا تلك الأسرار من سر الغيب المصون فلايكون إلا بعد تزكية النفس وصفائها حتى ترسم عليهـــا آيـــات تلـــك الحقائق العلويةوالسفلية التى بها يعرف الإنسان نفسه فيعرف ربه، وبهـــا تحصـــل البهجة والأنس للنفس باستجلاء معانى الصفات العلية، فلنمسك اللسان عن هـــذا الغيب المصون حتى يعلمه الله تعالى أهل التقوى من خاصة عباده الصالحين بإلهـــام منه سبحانه، أنه بإقامة مرشد عارف به يبين للسالكين بعد المجاهدة أنوار المراقبـــة

---

(١)،(٢)،(٣) تطلب هذه الكتب من مكتبة دار الكتاب الصوفى التابعة لمشيخة الطريقة العزمية ١١٤ شارع مجلس الشعب

(4) سورة البقرة آية ٢٨٢

(5)سورة فاطر آية ٢٨

فالمشاهدة . قال تعالى : ﴿ واتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [1] وكفى أهل العلم شرفا قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [2] برفع لفظة العلمـــاء أو بنصبها فتكون : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ ﴾ بالرفع ﴿مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ﴾ بـــالفتح لأن العلماء مفعول به، ولما كان من معانى الخشية التعظيم فيكون تأويل الآية إنما يعظم الله من عباده العلماء .

أما باقى الأنواع الحية من الأرواح العاليات، والملائكة عمار الســـموات، ومادهم من الكائنات السابحات فى الأجواء والأرجاء ومن الحيوانات التى تـــدب على الأرض،ومن النبات التى تأكل وتشرب وتنمو وتعيش وتموت ، ومن المعـــادن التى تتربى فى طبقات الأرض ومن الأنواع التى لها حياه نسبية كالأفلاك والجبـــال والتلال والماء فقدكتب عنها العلماء من المنجمين ومن أهـــل الطـــب والبيطـــرة واليازرجة وعلماء الزراعة والفلاحة، وعلماء الكيمياء، وعلمـــاء النفـــوس غـــير الإنسانية، فلا نطيل الكلام فيها فى هذا المختصر . ومن هداهم الله بسابق إرادتـــه يصلون إلى الله تعالى – بعد الإيمان برسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ والعمـــل بســـنته – بالفكر فى أصغر ذرة من ذرات الكون . قال العربى : (البعرة تدل على الـــبعير) ومن أضلهم الله تعالى فإنهم لايصلون إلى الله ولو كانوا فى حضانة نوح والخليـــل والكليم عليهم السلام . قال سبحانه : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْـــلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [3] وقد رأيت بعينى راسى دودة فى حجرة حولها رطوبة ماء وخضرة نبات، فسبحان الله اللطيف الخبير الحكيم العليم .

---

(٣) سورة الكهف آية ١٧

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَـــاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

ريح جمع الرياح، واسمه مأخوذ من الروح لأنه حياة العالم أجمع فهو كأنه روح الوجود المادى، لأنه لو فقد نفساً لفقد كل حى . وقد ورد اليح فى القـــرآن المجيد بلفظ الجمع ولفظ الإفراد . وبعض العلماء يرى أن لفظة الـــريح بـــــ(أَلْ) تكون فيه (أَل) للجنس فيكون بمعنى الرياح، وبعضهم يفهم أن لفظة الريح بالإفراد تدل على ريح مخصوصة وهى الريح العقيم التى تضر ولاتنفع . ولفظة الرياح تدل على الرياح النافعة للعالم . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ [(١)] وقال تعالى ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [(٢)] وقال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ﴿اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً وَلاَ تَجْعَلْهَا رِيحاً ﴾ عندما كان يرى هبوب الـــريح . وفى قولـــه : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ يقظة لأهل القلوب المطمئنة، وسبحان المعطى الوهاب الفتاح العليم القائل سبحانه: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [(٣)] والقائل جل جلاله : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [(٤)] .

قوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ يقظة لأهل القلوب المطمئنة بذكر الله تعالى، فإن تصريف الرياح وتغيرها بأن تكون شمالية أوجنوبية أو صبا أو دبـــورا . وفى هذا التصريف، المنافع العامة لمصالح العالم أجمع، وهناك تيارات دورية وهـــو التيار الذى يأتى من جهه القطب الشمالى فيمر على نصف الأرض الشمالى حـــتى

(١)سورة الروم آية ٤٦

(٢)سورة الذرات آية ٤١

(٣)سورة يوسف آية ٧٦

(٤)سورة ق آية ٣٥

يصل إلى خط الاستواء (المنطقة المحترقة) فيتبخر ويرتفع ملتهباً جــداً متجهـــاً إلى القطب الشمالىحيث المنطقة الثلجية، فيثقل وينزل إلى الأرض حاراً فيحيـــا بـــه ماهنالك من الحيوانات والنباتات والأناسى فى هذا الأفق المتجمد ثم يأتى بارداً إلى البحر الأبيض المتوسط ماراً على البحر الأسود فبحر بلطيق ويمر على شمال أفريقيا محملا بالبرودة التى يكتسبها من الشمال . ويمر على خط الإستواء . وهناك تيـــار دورى أيضاً، يأتى من القطب الجنوبى إلى خط الإستواء فيتبخر هنـــاك بحرارتـــه الشديدة، ويرتفع إلى الأفق الأعلى ثم يميل إلى الجنوب لنفع العالم عنـــد القطـــب الجنوبى، وهكذا يفعل كما يفعل التيار الشمالى.وهناك رياح تسمى الرياح الموسمية، وتلك الرياح تتولد من مصادمة تلك التيارات الدورية بالجبال الشاهقة فيتغير مجراها ،فقسم منها بانفعال المصادمة ينصرف إلى الغرب ،وقسم ينصرف إلى الشرق ،وقد تتغيـــر تلك التيارات بتغييـــرات الظواهر الجوية من حرارة شـــديدة إلى بـــرودة شديدة فيثقل تيار من التيارين ،فيحصل اصطدام الهواء بعضه ببعض فتتولـــد منـــه الزوابع الى تقتلع النباتات وتغرق السفن وقد تهدم البيوت بشدة تصادمها وضغطها.

وتلك الرياح المختلفة هى التى تلقح النباتات فتأتى بذكور النباتـــات إلى إناثها كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[1] وقد تنقل تلك الزوابع بذور نباتات إلى بلاد لم تكن فيها تلك النباتات. وفى كل ذلك من تطهـــير الهـــواء فى الآفاق، ونقائه من الأوساخ والكائنات الصغيرة السامة كالذباب والناموس ومـــا دونه من البعوض ولولا ذلك التصريف لفقد أكثر النـــاس صـــحتهم .وفى هـــذا التصريف حجة قاصمة لظهور الملحدين ،لأن هذا النظام والتركيب لا يكون عبثا ولا لغير حكمة، لكنه بقدرة وإرادة ومشيئة ،يريد فاعله سبحانه أن ينفـــع خلقـــه

(١) سورة الحجر آية٢٢

جميعا بهذا التصريف ،ولو نظر أهل القلوب العامرة بنور الله تعالى إلى تصريف الهواء فى يوم واحد لشهدوا جمال الله تعالى فى كل نفس من أنفاسهم ،ولعجزوا عن شكر الله لإنعامه عليهم ،.فسبحان مصرف الرياح الذى أودع فيها فضـــله وإحســـانه وإمداده لخلقه.

ولو أن الله أمسك الهواء أن يتصرف حتى فقد من أفق من الآفـــاق لمـــا وجد على ظهرها دابة بل ولا نبات . ولو أنك حسبت الهواء عن الحيوان لمـــات فوراً أو عن النبات لذبل وفقد حياته . قال تعالى . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ ولـــو فى نوع واحد من أنواع العناصر من نعمه ﴿ لا تُحْصُوهَا ﴾ (١) فكيف يمكن بـــنى الإنسان أن يحصوا نعمه فى كل خلقه من العرش إلى الفرش بالنسبة لنا؟ ،إذا عجزنا عن حصر نعمه الهواء فكيف يمكننا أن نقدره سبحانه حق قدره أو نحيط به علماً؟ فسبحان من أعجز العقول عن علم آياته فى مكوناته، وأعجز الأرواح عـــن علـــم حقيقة أسمائه وصفاته، وتتره تعالى على أن تحوم الأرواح العاليات حـــوالى قـــدس عظيمة وكبريائه. قال تعالى: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَـــرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٢)

﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾

تقدم أن بينت لك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴾ معنى السحاب وكيف يكون إنزال الماء من السماء. وهنا أزيدك علماً أن السحاب يعنى المسحوب الذى تسحبه قدرة الله تعالى إلى حيث شاء الله أن يـــترل مـــاءه،

(١) سورة النحل آية ١٨

(٢)سورة الملك آية ٣-٤

فالسحاب مسخرللإنسان ولكن ليس للإنسان حكم على فضل الله تعالى، وقد يمنع الله السحاب عن قوم حتى يحصل الجدب فيهلك الحرث والنسل والزرع والضرع، وقد يترله سبحانه على سواحل الأنهار لمن لاحاجة لهم إليه، ةقد يترله تتره وتعالى على قوم فيهلكهم به ويصير عليهم عذابا من الغرق كما يحصل فى بلاد أوربا . وقد يمنعه أهل الحاجة إليه مع شدة الضرورة فيحصل لهم الجدب وله فى ذلك حكمة عالية تنادى بأفصح عبارة : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ ﴾(١) وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ويمنعه عمن يشاء

وهذا هو سر التسخير – منحنا الله الأدب مع المنعم جل جلاله – لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾(٢) لالأننا نستحق ذلك بعمل أو بخصوصيةفينا، بل هذا التسخير بفضل الله وإرادته وقدرته لامعقب لحكمه، وإنما يكون هذا الخير العظيم نافعاً فى الدنيا والآخرة لمن كشف الله عنهم الحجاب فشهدوا معانى صفاته فى آياته، وانتفعوا بنعمه فى مرضاته.

وأما من بدلوا نعمة الله كفراً فتكون تلك النعم عليهم نقماً فى الدنيا بالمنافسة فىنيلها، وبالحروب التى تبيد العالم حرصاً على تحصيلها، وتكون يوم القيامة عذاباً أليماً على استعملها فى غضب الله تعالى، فهى نعم فى الحقيقة ونفس الأمر ولكن المنعم الوهاب لايسأل عما يفعل . ومن حرص على النعمة وجهل

(١) سورة يوسف آية ٦٧

(٢) سورة الجاثية آيه ١٣

المنعم وغفل عنه كانت عليه نقمة، ومن عرف المنعم بالنعمة فاستعملهافى محابه ومراضيه وشكره عليها كانت مسرة له فى الدنيا ونال بها الملك الكبير يوم القيامة .

وفى قوله تعالى : ﴿ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ إشارة إلى أن عمار السموات لايحتاجون لماء ولاسحاب، وقوتهم التسبيح والتهليل والتمجيد، قال تعالى : ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١)

وفى الآية دليل على أن المطر يترل من السحاب .

﴿ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

أى لدلائل على صحة التوحيد، وعلى تفريد الله تعالى بالألوهة دون غيره، وعلى وجوب الشكر علينا له، وعلى اعترافنا بالعجز عن أن ننال بحولنا وقوتناماينفعنا إذ لاحول ولاقوة إلا بالله، وبرهان جلى للعقول التى لم يعمها الهوى عن أن الفاعل المختار هو الله . وعن أن كل شىء فى الوجود من مادة قطعت أهلها، وأنواع نباتية وحيوانية ومعادن أبعدت الواقف عندها بل ومن أعضائنا المجترحة، كل ذلك بقوة الله تعالى وقدرته وإرادته . فلا فاعل فى الوجود غيره . وإنما وضع الأسباب ليتعرف بها إلى خلقه ليعرفوه، وليشهد جماله العلى أهل العقول التى تعقل عنه . لأنه عظيم عن أن يعلم أو يدرك . فأظهر معانى صفاته فى الكائنات لتستحضره القلوب الموقنة، والنفوس الزكية، والأرواح المجردة من ملابسة الحظ والهوى.

---

(١) سورة التحريم آية ٦

قوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لمن وهب الله له العقل الذى يعقل عنه، فتلك الآيات التى بين الله بها آثار رحمته فى الكون حجج جاذبة لقلوب أهل العقول الكاملة، وحجج الله على أهل البعد تقوم عليهم يوم القيامة ليظهر عدلـه فـيهم وفضله على من اجتباهم .

وقد اختلف العلماء فى العقل اختلافا كثيراً، وهو من الحقائق التى لاتعرف إلا بآثارها كالكهرباء وكالشيطان وكالنفس، فإن الإنسان لايعلم منها إلا آثارها، فإذا وقع الإنسان فى معصية قال : لعنة الله على الشيطان، وإذا وفق لعمل نافع قال الناس : هذا لرجاحة عقله، ةإذا رأوا عملاً يعجز كثيراً قالوا : قوة الكهرباء .

والذى أستحسنه هو أن العقل نور من الله تعالى يجعله فى قلـب الإنسـان يتصل شعاعه برأسه، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا ﴾ أى عقلاً يعقـل عن الله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [1] وقد حرم أهل الدنيا بهجة الأرواح ومسراتها فلـم يروا إلا مايلآئم أجسامهم من المادة من مأكل شهى، وملبس بهى وفراش وطـى، ومنكح رضى، وهذه هى السعادات كلها عندهم، ولو تفكروا لـرأوا أن تلـك السعادات بأكمل معانيها قد فازت بها البهائم بأكثر مما فاز بها الإنسان، فإن الديك متمتع من حيث الوقاع بما لايتمتع به الإنسان، والطاوس من حيث اللباس بمـالا يتمتع به الإنسان ، والختزير من حيث الطعام بأشهى مما يتمتـع بـه الإنسـان، والوحوش من حيث نفوذ الكلمة والقهر متمتعة بأعظم مما يتمتع بـه الإنسـان، ومابقى للإنسان من سعادات إلا السعادات الروحانية فإذا فقدها كان كالأنعام بل

(١) سورة النور آية ٤٠

أضل، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَـــالِمُونَ ﴾ [1] فحظر على أهل الجهل به سبحانه أن يعقلوا عنه شئاً.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾(١٦٥)

بعد أن قرر سبحانه وتعالى دلائل التوحيد المحسوسة الملموســـة، وأرقـــام البرهان على أنه إله واحد منفرد سبحانه وتعالى بالألوهة والقدرة والقوة والحكمة فهو الواحد القادر الحكيم العليم الخبير، حتى أسجد العقول التى تعقل عنه سبحانه بهذا البيان، حتى حكمت العقول بعد أن بلغت اليقين الحق بهذا البيان أن أحـــداًمن الأناسى لاينكر وجود الحق ولاتفريده بالكمال والجمال والبهاء والنور والضـــياء، فبين الله لتلك العقول أن تسليمها له وإيمانها به نعمة فوق نعمـــة الدلالـــة، لأنـــه سبحانه وتعالى جعل لها نوراً قابلاً للفهم عن الله تعالى بما بينه لها مـــن أن أكثـــر الأناسى لم يتفضل الله تعالى عليهم بهذا النور، لتعلم العقول التى تعقل عنه سبحانه أن الله أتم عليهم النعمة فتسارع إلى شكره ومحابه ومراضيه .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾

أتى بـــ﴿مَنْ ﴾ التى تفيد التبعيض لحقارة أهل الكفر بالله وقلتهم فى الحقيقة مع كثرتهم فى الوجود الكونى لأنهم مع كثرتهم أقل عدداً من أى نوع من الأنـــواع الحية كالبعوض والجرذان، فإنك ترى البيت فيه من تلك الأنواع مايتجاوز الألف

(١) سورة العنكبوت آية ٤٣

عداً وفيه من الأناسى بضعة أشخاص . أما أهل الإيمان الواحد منهم يوزن عند الله بكثير من الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ النَّاس﴾ يراد بهم المعلومون وهم أهل الكفر بالله، والمنافقون الذين اتخذوا أهواءهم آلهة والمارقون من الذين كما يمرق السهم من القوس بما أشربوا فى قلوبهم من حب المال والجاه والرفعة والتمكين فى الأرض بغير الحق، وهم الذين أخبر الله عنهم فى كتابه بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾(1) الآية . فكل من تولى أعداء الله تعالى واستعان بهم على المؤمنين فهو داخل فى هذه الآية .

﴿ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾ الاتخاذ معلوم والند كما بينا فيما سبق هوالمثل المنازع أو العدل المساوى، وقد قال العلماء إن الأنداد هى الأوثان المعبودة من دون الله، والأفلاك والبهائم كالعجل معبود المصرين القدماء والبقر معبود المجوس فى الهند والصين، لكن يرد عليهم قول تعالى : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ ﴾ فإن الهاء والميم من ضمائر العقلاء، فيكون التأويل أن الأنداد فى هذه الآية هم دعاة الضلالة من الملوك ومن دعاه الجهالة الذين يتمكنون من قلوب الناس بخبثهم وطلاقة ألسنتهم بالباطل إإلى أن يتخذهم الناس أنداداً من دون الله يقومون لهم بالطاعة العمياء، ومن بذل الأموال لهم وتنفيذ كلمتهم وعقد القلب على مايلقون إليهم من الأباطيل المضلة والعقائد المفسدة فى التوحيد، حتى يرون الحق فيهم فيميلون عما أنزل الله تعالى، فقد تكرر فى القرآن المجيد التشنيع على عباد الأوثان وقصم ظهورهم بالحجة بعد الحجة ..

(1) سورة المائدة آية ٥١

﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾

يعنى أهم إن كانوا يعرفون الله تكون محبتهم لهم مساوية لمحبة الله تعـــالى، وإن كانوا لايعرفونه سبحانه فتكون محبتهم لهم كمحبة المؤمنين لله تعالى، أو أهـــم يترلوهم فى مترلة الإله سبحانه وتعالى فى العقيدة والطاعة لهم . وذكر تلك الآيـــة بعد تقرير دلائل التوحيد مناسب جداً كما قال العربى : ويضدها تتميز الأشياء .. ليقوم المؤمنون بالشكر لله على ماتفضل به عليهم، وإنك لترى الإنسان الصـــحيح لايشعر بالصحة حتى إذا مرض تذكرها وحن إليها وتمناها .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾

يكشف الله تعالى الحجاب عن القلوب التى جعل لها نوراً فتشهد جمال الله ظاهراً فيما أظهره سبحانه فى هذا الكون من الحقائق التى أبدعها لخـــير الأنـــواع الحية، وسخرها لبنى الإنسان، فتتجلى لجواهر نفوسهم بعد رفع الحجـــاب معـــانى صفات الله تعالى، فتتصور النفوس التى زكاها الله تعالى رسوم المعلوم بعد العلـــم، فيكون هذا الجمال العلى معالم بين أعين قلوهم لايغيبون عنه، فلايمضى نفـــس أو لمحة أو لحظة إلا وتنبلج لهم حقائق تلك الآيات فتجذهم بدافع المحبة إلى شهود الحق جل جلاله، حتى تبلغ المحبة مبلغ الغرام والهيام الذىيستغرق كلية من تفضـــل الله عليهم هذا المشهد، فيفرون إلى الله بالفناء عنهم وعما يحجبهم أو من يحجبهم كما حجب الذين قالوا : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّـبِيلَ ﴾ (١) وهـــم الأنداد من دون الله، وأهل الجهالة أطاعوهم نصرة للباطل على الحق كما يطيـــع

(١) سورة الأحزاب آية ٦٧

بعض الهمج الرعاع زعماء السوء من غير بصيرة فيهلكوهم وهم يحسبون أهم يحسنون صنعاً .

وهنا ألمع إليك ببيان رذاذ من غامض المحبة لأنها فوق أن تدرك حقيقتها العقول، لأنها سر من أسرار الله وغيب من غيوبه سبحانه يتفضل بها على من سبقت لهم الحسنى، وما تقول فى قوم قد أحبهم الله من الأزل لالعمل عملوه، ولالقربة تقربوا بها إليه، ولكن بمحض الفضل أظهرهم فى الكون أحباباً له، وقال لهم افعلوا ماشئتم فقد غفرت لكم.

وانظر إلى أحوال أهل المحبة . أتى عزرائيل إلى الخليل يستأذنه فى قبض روحه فقال الخليل لعزرائيل : هل الخليل يميت خليله؟ فأوحى الله إلى عزرائيل قل له : وهل الخليل يكره لقاء خليله؟ والله سبحانه ينادى الأمم بأسماء أنبيائهم فيقول : ياأمة إبراهيم وياأمة موسى وياأمة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، وينادى أهل المحبة بياأوليائى .

والحجة فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (١) فأمر الحبيب ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أن يصبر مع أحبائه سبحانه وتعالى، وفى الحديث القدسى : ﴿ يَا دَاوُد اطْلُبْنِي عِندَ الْمُنكَسِرَةِ قُلُوبُهمْ مِنْ أَجْلِي ﴾ وقد أنكر بعض العلماء محبة العبد لله ومحبة الله للعبد، وقالوا إن المحبة إرادة وإرادة الحادث لاتتعلق بالقديم ، وأولوا المحبة بأنها الرغبة فى نيل غفو الله ومغفرته وإنعامه وإحسانه، وأولوا محبة الله للعبد بتقدير الإحسان والفضل عليه، وذلك بأن المحبة أبعد من أن تعرف وأعلى من أن توصف .

(١) سورة الكهف آية ٢٨

وماذا تقول فى سر بين العبد وبين ربه لايطلع عليه غيره؟ حتى قال بعـــض العارفين : من ادعى المحبة وأشار إليها كذب فى دعواه فإن الذين منحهم الله المحبة منه وتفضل عليهم بأن جعلهم يحبونه هم ضنائنه من خلقه، إن أظهرهم فى الكون غاروا على المحبة أن يشيروا إليها حتى تسلب عقولهم التى يعقلون بها عن الكـــون، فتطيش أحلامهم فيفنوا عن شهود وجوههم بوجود شهودهم، فيكونون من غـــير كون ويكون ربهم وطنهم كما قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـــهُ اللَّـــهِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ (٢)

وإنى أجارى العلماء فى تأويلهم هذا فأقول : المحبة إرادة فإرادة العبد الجنة والمغفرة والعفو هى محبة جمال الله تعالى، وتعلق إرادة العبد بما فوق الآلاء والنعماء من الاستغراق فى جمال المتفضل هى محبة العبد لله تعالى، و كذلك إرادة الله تعـــالى بالمال وبالأولاد ونفوذ الكلمة والرفعة هى رحمته . وإرادة الله تعالى للعبد أن يمنحه معرفته ومشاهدة جمال آياته وفهم أسرار كتابه ورعايتـــه الأدب معـــه ســـبحانه وتفريده بالألوهة واختصاصه بالعبادة هى محبة الله للعبد، فثبت أن رحمة الله هـــى إسباغ نعم الكون، وأن محبة الله تعالى هى إسباغ نعمة المكون الجاذبة إلى حضرته، حتى تقع العين على العين فيرى محبوب الله تعالى غيب الغيب ببصره . قـــال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بسند الإمام البخارى فى الحديث الطويل :﴿وَلاَ يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَـــىَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِـــهِ ولسانَهُ الَّذِى يَتَكَلَّم بِهِ ﴾ الخ الحديث . وسأل رجل النبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قـــال : (يارسول الله متى الساعة) ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : وماأعددت لها ؟ فقال :

---

(١) سورة البقرة آية ١١٥

(٢) سورة الذاريات آية٥٠

ماأعددت لها إلاحب الله ورسوله فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: المرء مع من أحب) فمـــا فرح المسلمون يشيء أحب إليهم من هذا .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ يقيم الله تعالى الحجة على أهل الكفر بـــه سبحانه أنهم إنما أحبوا سادتهم وكبراءهم وأصنامهم اقتداء بآبائهم من غير بصيرة، وتقليداً لمن سبقهم من غير برهان ولاحجة، فهم أضل من البهائم لأنهـــم يحبـــون بأبصارهم وأسماعهم لايعلم تتمثل به النفوس تلك الحقائق، حتى يقوى هذا التمثيل فيكون شهوداً للغيب بيقين حق بقيام تلك الحجج والأدلة القوية، قال على عليه السلام : (لو كشف الحجاب ماازددت يقيناً) قال تعالى :﴿ كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْـيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾(١) أما الذين آمنوا وازدادوا إيماناً فإنهم أحبـــوا الله تعـــالى حبـــاً أكسبهم رعاية الأدب معه سبحانه، وبذل النفس والنفائس استجابة له جل جلاله

فإن قال لنا قائل : إن أهل الكفر بالله يقتلون أنفسهم فى محبة من اتخذوهم أنداداً من دون الله، فهل المؤمنون يقتلون أنفسهم فى محبة الله ؟ فالجواب : إن أهل الكفر بالله يقتلون أنفسهم فى أقل من ذلك فى سبيل امرأة أو فخر، ولكن المؤمنين يقتلون أنفسهم إذا أمرهم الله فى الجهاد، ولهم مشهد على أنهم هـــم وأمـــوالهم لله تعالى لايعملون عملاً إلا إذا أمرهم الله تعالى بعمله، وكان بعض الرجـــال إذا أراد أن يعمل عملاً سأل عنه القرآن فإن أذن له به فعل وإلا ترك، فقيراً القـــرآن مـــرة ومرتين حتى يظهر الحكم فى العمل أو يسأل من هو أعلم منه بذلك . وليس قتـــل النفوس بأمر الله عند المؤمنين إلا الفوز برضوان الله الأكبر، وما يعمله مجوس الهنـــد وغيرهم من عباد غير الله تعالى من العناد فى العبادة والخدمة فذلك من عبادة أهـــل

(١) سورة التكاثر آية ٥-٦

الجهالة الذين تسلفت أنفسهم عن أن تساوى نفوس أهل الإيمان بالله . وفى قولـــه تعالى : ﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ إشارة إلى تفاوت أهل الحب، فإن قوله : ﴿ أَشَدُّ حُبًّـــا لِلَّهِ ﴾ بخلاف قوله شديد والحب فى الله، فإن الصفة المشبهة تدل علـــى حقيقـــة واحدة، وأما اسم التفضيل وهو قوله : ﴿ أَشَدُّ ﴾ ففه التفاوت . وفى قولـــه (لله) إشارة عالية إلى كمال الإخلاص فى عبادة الله تعالى فإنه لو قال : أشد حباً للرحمن أو الرحيم أو المنعم لكان فى ذلك تعيين فى الحب .

﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾

بعد أن طمأن سبحانه قلوب المؤمنين بما تفضل به عليهم من نيلهم كمـــال معرفته التى جعلت جواهر نفوسهم تتصور سوم الغيب المصون من معانى صـــفاته جل جلاله الظاهرة فى آياته، القائمة حجة لتلك النفوس على شهود كمال أسمائـــه وجمالها وجلالها، منحهم اليقين الذى يجعل الحق معالم بين أعينـــهم لايغيبـــون إذا غاب الغافلون، وفى خبره سبحانه عن المؤمنين بتلك الآية دليل على أنه ســـبحانه وتعالى أشهدهم فى تلك الدار الدنيا حقائق الكائنات فضلا منه وإحســـاناً، وأنـــه جلت ذاته سيمنحهم يوم القيامة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، وقد توعد سبحانه أهل الكفر بما أعده لهم من نكال العذاب .

﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾

فـــ ﴿ لَوْ ﴾ هنا للمبالغة ليست على بابها لأن ﴿لَوْ﴾ حـــرف امتنـــاع لامتناع وأتت هنا للمبالغة، وفى قوله ﴿ يَرَى ﴾ بالياء إشارة إلىأن الخبر عن الذين

ظلموا . والظلم هو الشرك، والمعنى الذين ظلموا أنفسهم بشركهم، قال تعالى﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] وقد يأتى الفعل المضارع بالتاء فيكــون : ولــو تــرى، خطاب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يرى المؤمنون حال الذين ظلموا يوم القيامة . ﴿ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ أى يقعون فيه .

﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

لهمزة﴿ أَنَّ﴾ . روايتان بالفتح والكسر، فمن تأولها جواباً لـــ ﴿ لَوْ﴾ قال إنها مقول محذوف أى لقالوا أو أنها مفعول لفعل محذوف تقديره لعلموا. ومن قال إن جواب (لو) محذوف أتى بها مفتوحة الهمزة ويكون التأويل يرون العذاب، وأن القوة لله بحذف حرف العطف، ويكون تقديرالجواب المحذوف لتحققوا صدق الله وصدق رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولما اتخذوا أندادا من دون الله تعالى . وفى رواية : ﴿ وَلَوْ يُرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بضم الياء ويكون المعنى يرى الله الذين ظلمــوا، وبــأى قراءة فأنت مصيب .

﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ ﴾ أتى بأن التوكيدية تقوية للخير الذى يخبرنا الله تعالى به عن قول الكفار يوم القيامة عندما يرون العذاب . والقوة هى القدرة على تنفيــذ ماوعد به الله المؤمنين وتوعد به الكافرين، لأنه لو كان لله أنداد لكانت لهم بعض القوة، ولو كانت لهم بعض القوة لنفعوا من عبدوهم فى الدنيا يوم القيامة . ولكن الله تعالى يقول : و ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى ليس ثم يوم القيامة من له قوة أو قدرة أن ينفع غيره أو يضره غير الله تعالى،وهذا لا يمنع من إثبات الشفاعة العظمى لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والأولياء رضوان

(١) سورة لقمان آية١٣

الله عنهم هم لله وبالله وهم الدعاة إلى كمال التوحيد، وقد أخبرنا الله بقوله عنهم ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (١) ورسل الله وأولياؤه خصوصاً خـــاتم الرســـل صلوات الله وسلامه عليه، أخبرنا الله عنه أنه رءوف رحيم وأنه يكون شهيداً علينا، فمن منحهم الله التوفيق فأطاعوا الله ورسوله لايرضى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أن يراهم فى النار بعد قول الله تعالى له :﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (٢)

﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ** ﴾ فهو لأهل الكفر به أن بين دلائل التوحيد جلية للعقول بالآيات الظاهرة فى الكائنات، وبعد أن بين تلك الآيات رسله عليهم السلام، وبعد أن ذكرهم بتلك البيانات أولياؤه بعد رسله، وبعد تلـــك الحجـــج القوية يكفرون بالله ويتخذون له أنداداً من دونه ويحاربونه سبحانه فى ذات رســـله وأوليائه . لذلك كله استحقوا أن يخبرهم الله تعالى بأن سبحانه شديد العذاب .

وهذه الآية أخوف مايخافها أهل الإيمان لأنهم لايأمنون جانب الله تعالى، وفيها إشارة علية خفية وهى أن شدة عذاب الله تعالى لأعدائه ليســـت كعـــذاب حضرة اسم الرب لأن عذاب الله تعالى ظاهرا وباطنا . أما ظاهرا فـــآلام الســـعير والحطمة نعوذ بالله منها . وأما الباطن فحرمانهم من نعيم مقـــيم فى فـــردوس الله الأكبر، وبعدهم عن الأنس بالله على بساط مؤانسته قدام العرش . وهذه هى نـــار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة وحرمان الرضا من الله عن العبد أشد عذاباً مـــن نار جهنم . وإن بعض المؤمنين يردالنار ليتطهر من ذنوبه ويخرجه الله منها بفضـــله

(١) سورة الشورى آية ٢٢

(٢) سورة الضحى آية ٥

ولكن نور الإيمان فى قلبه يحفظه من شدة عذاب الله، أعاذنا الله تعالى بوجهه الجميل مما يوجب عذاب الله الشديد .

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾(١٦٦)

بين الله تعالى أحوال أهل الكفر به يوم القيامة فافتتح الجملة بإذ الدالة على المعنى وحالهم هذا يكون فى المستقبل يوم القيامة . والحكمة فى ذلك والله أعلم أن هذا الحال متحقق للكفار وواقع عليهم بعد، والأمر المتحقق فى حكم الذى وقع .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا ﴾

فالمتبعون هم إبليس والشياطين ودعاة الضلالة من الملوك ومن علماء السوء الذين يخدعون الناس فيفسدون عقائدهم ويوقعوهم فى مذاهب الضلال وآراء السوء ممن أضلهم الله على علم ومن يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا، وتلك الآية أزعجت قلوب الدعاة إلى الله تعالى وجعلتهم يحرصون على طلب العلم النافع حتى يبلغوا مقام اليقين . و﴿ الَّذِينَ اتُّبِعُوا ﴾ هم جهلة العامة أتباع كل عانق ممن لم يقع بهم العلم على عين اليقين، الذين أضلهم أهل النفوس الخبيثة ففارقوا جماعة المسلمين أو فارقوا الإسلام باتباع الكفر وخالفوا العلماء المرشدين . وهذه الآية بدل من قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ يعنى أن الرؤساء والزعماء يتبرأون ممن اتبعهم على ماكانوا فيه من الباطل من غير بصيرة ولاروية . يتبرأون أى ينكرون

نسبة العامة لهم وتعلقهم بهم . ولك أن تقول : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ﴾ فتكون من متعلقات شديد العذاب .

﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾

الواو هنا للحال والجملة حالية. ورؤيتهم العذاب معاينتهم له عند قربهم منه، الأمر الذى ينبىء بوقوعهم فيه و﴿ الأَسْبَابُ ﴾ جمع سبب وهو الوصلة الـــتى تنال بها بغيتك. والسبب لغة : الحبل والأسباب هنا هى الروابط التى كانت تربطهم كأنواع العبادات التى كانوا يعبدون بها أندادهم كالأصنام والزعمـــاء والرؤســـاء والكبراء، وماكانوا يعتمدون عليه من الآراء المضلة والمذاهب المفسدة للعقائد، ومن هؤلاء أهل الشعوذة الذين يخدعون العامة من الجهلاء ليخرجوا على الحق أوعلـــى أهل الحق، أو ليفرقوا المجتمع الإسلامى أو بعضه لعلة نيل الرياسة والشهرة والسيادة وللطمع فى جمع حطام الدنيا، فيحتالون على نيل تلك المفاسد مرة بدعوى أنهـــم علماء أوأنهم أولياء، أو أنهم يؤيدون ذا سلطان ولو كافرا بالله أو دولة كافرة كما يفعل قادة الأمة التى احتلها دول المطامع المستعمرون . ولايرون ذلك إلاعند ضعفاء الإيمان من الذين رضوا بالحياه الدنيا وأطمأنوابها وهم عن الآخرة هـــم غـــافلون، فيزين لهم الشيطان أعمالهم وتقوى الوسوسة فى قلوبهم فيعنقدون أنهم علىا لحـــق ويرون أهل الحق على الباطل كما قال على عليه السلام : ﴿ مَاأَشْجَعَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ﴾ مخبرا عن الخوارج، وكما قال عليه السلام . (الناس ثلاثة : عالم ربانى – ومتعلم علـــى سبيل نجاة – وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح) . وهؤلاء من أهل الدنيا الذين نسوا الآخرة وأحبوا الحياه الدنيا وزينتها، وكانت صلتهم فيها لنيـــل مايلائمهم من الملاذ والشهوات وتنقطع عنهم تلك الأسباب يوم القيامة ..

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾(١٦٧)

يخبرنا الله تعالى عن قول الهمج الرعاع أتباع كل ناعق أنهم يوم القيامة يتبرأ منهم سادتهم وقادتهم وأول متبرىء هو إبليس أعاذنا الله من شره بقوله : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ﴾[1] ثم يليه من كفروا بالله ورسله ومن طلبواالدنيا بعمل الآخرة . يقول أتباعهم يومئذ لو أن لناكرة . ولو هنا للتمنى بمعنى ليت، والكرة هى الرجوع إلى الدنيا، يقال كر فلان على فلان أى رجع عليه أو إليه ولذلك نصب المضارع بفاء السببية التى لاتكون إلا بعد التمنى .

﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾

أى ننكر عليهم مايدعونه ونكذبهم ونخذلهم ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[2] فقد بين الله تعالى كل البيان وقد بين رسله عليهم السلام بيانا لايخفى على عقل سليم من الحظ والهوى. وقال على عليه السلام : ﴿ الْهَوَى أَخُو الْعَمَى ﴾ وفى هذه الآية وعيد يذيب قلوب من أمنوا جانب الله تعالى وأنغمست نفوسهم فى قاذورات تلك الحياة الدنيا بنصرة أهل الضلال وبتأييد الظلمة والتودد إلى أعداء الله تعالى واتخاذهم أولياء أو بمحبتهم، ومن يفعل ذلك ممن يدعى أنه مسلم فقد كفر وحرمت عليه نساؤه . وهل بعد قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

(١) سورة إبراهيم ٢٢

(٢) سورة ص آية ٣

الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾[1] حجة لقائل؟ فمن أشرب قلبه حب أعداء الله من الكفار أو من الزنادقة أو من المدعين أنهم من أهل الحقيقة بالجهل والبهتان ممن خالفوا صريح الشريعة وأسقطوا أحكامهم فإن هؤلاء جميعا هم الذين يشنع الله عليهم ويهددهم بتلك الآيات .

أما أولياء الله تعالى وأهل عناية الذين وفقهم للتقوى وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فإنهم الأمناء على الشريعة العاملون بها، المبينون لأسرارها وغوامضها، المجددون لما اندرس من معالمها وآثارها بقولهم وعملهم وحالهم، فإنهم ورثة الأنبياء وأبدال الرسل والصديقين من خيرة عباد الله تعالى، وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[2] وهم الذين أثنى الله عليهم فى أول تلك الآيات بقوله : ﴿ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وبقوله فى آية آل عمران : ﴿ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[3]

﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

الجار والمجرور عن تأخير، والمعنى كما أراهم الله شديد العذاب وأراهم تبرؤ سادتهم وزعمائهم كذلك يريهم أعمالهم حسرات عليهم إلخ . والأعمال التى يريهموها الله تعالى هى ماكانت تجب عليهم أن يعملوها من المسارعة لتأدية فرائض الله وسنن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، فإن رد علينا معترض بقوله : ليست هذه أعمالهم، فأجيبه بأن الأعمال الواجبة على شخص تكون كأنه عملها كما يقول لك شخص

(١) سورة المائدة آية ٥١

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤

(٣) سورة آل عمران آية ١٩٠

: هات غذائى، فتقول : هذا غذاؤك، ولم يكن أكله، أو تقول لعامل : هذا عملك ولم يعمل، وكونه لم يعمل لم يخرجه عن وجوب القيام بعمله فكذلك هذا .

وقال بعض العلماء – وعندى أن الحق ﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التى عملوها من اتخاذ الأنداد التى اتخذوها، ومن إ طاعة كبرائهم وسادتهم وزعمائهم فى معصية الله، ومن مخالفة الشريعة الغراء بنصرة زعماء السوء الذين يعملون لأنفسهم مخالفين للحق . يريهم الله تلك الأعمال أى سوء الجزاء عليها وشديد العقاب، حتى ورد أن الله سبحانه يرى الكافر فى النار بيته الذى أعده له فى الجنة لو أطاع الله ورسوله، ويريه أن أهل التقوى ورثوه، ويرى من فى الجنة بيوتهم التى أعدها لهم فى النار لو كانوا كفروابالله، وقد ورثها أهل الكفر بالله ليذوقوا العذاب مضاعفاً

﴿ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾

الحسرة هى شدة الندامة . وحسر عن ذراعيه يعنى كشفهما، والحسرة هى كشف الخير والنعمة عنهم فإذا رأوا نتائج أعمالهم فى الحطمة اشتدت ندامتهم فكان العذاب محيطاً بهم من الظاهربالاحتراق ومن الباطن بآلام الضمير التى هى أشد من لهيب النار .

﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

بشرى لأهل الإيمان الذين أدخلهم الله النار للطهارة من المعاصى، لأن ذلك يدل على أنهم يخرجون من النار . أما أعداء أنفسهم الذين شنع الله عليهم بأعمالهم السيئة فهم مخلدون فيها وقد وردت الآيات الدالة على خلودهم فى النار .

قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(١٦٨)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا ﴾

يخاطب الله تعالى عباده موسعاً لهم فيما أباحه لهم بقوله : ﴿ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا ﴾ معلوم أن نداء الله تعالى فى تلك الدار الدنيا رحمة من سبحانه بمن يناديهم، وتتم تلك الرحمة إذا وفقهم للسمع والطاعة، يـأمر سـبحانه أمـراً بالإباحة أن نأكل مما فى الأرض حلالاً طيباً والأكل معلوم . وأتى بقوله ﴿ مِمَّا ﴾ للتبعيض ليبين لنا أن المباح لنامما خلقه الله فى الأرض لايكون مباحاً إلا إذا كـان حلالا طيباً . والحلال هو مارفع الحظر عنه مما بينته الشريعة . فعمل الرجل بيـده كسب حلال، ومايناله من هدية حلال، ومن ميراث حلال، ومن غنيمة حـلال، ومادعى إليه . وماعدا ذلك من المسروق والمغصوب والربا ومأأخذ لينصر به الباطل وغيره فحرام . وفىقوله : ﴿ طَيِّباً ﴾ الطيب ماكان شهياً لذيـذاً ممـا يحصلـه بالوسائل المتقدمة . وأما الحرام فنجس وبيىء كلحم الميتـة والخنزيـر وكـالخمرة ومأشبهها . وقوله تعالى : ﴿ كُـلُوْ ﴾ أمر من حيث وجوب استعمال الحـلال عند المقتضيات، ويكون للإباحة من حيث الأكل . وقوله تعالى : ﴿ مِمَّـا فِـي الأَرْضِ ﴾ لايخرج مافى البحار والأنهار، فإن البحار والأنهار فى الأرض .

وهنا إشارة وهىأن الله سبحانه خلق الأرض لإقامة الإنسان على ظهرها إلى الأجل الذى قدره سبحانه .

ولماكان الإنسان لابقاء لحياته إلابالضروريات الازمة له والكماليات، خلق له فى الأرض جميع مطالبه من معادن تستعمل لنفع الغذاء ولإعادة الصـــحة بعـــد فقدها، ومن حيوانات ومن نباتات وغيرها ليشهد الإنسان آثار رحمتـــه ســـبحانه وعطفه وفضله وإحسانه، وليمنحه تعالى يقيناً حقاً أن الخلاق الرزاق المحيى المميت هو الله تعالى:، فلا يشغل وقته القليل فى تلك الدار الدنيا بهم ماضـــمنه لـــه، بـــل يصرف أنفاسه فى تحصيل العلم النافع والعمل الرافع عبادة لله وشكراً له على عميم نعماه، وماخلق ربنا هذا الكون عبثاً ولالعباً، ولاسخره لبنى الإنســـان ليظهـــروا ويستروه عن عقولهم وأنفسهم، بل ليظهر هو ربا قادراً فاعلاً مختاراً وإذا ظهرواهم ظهروا عبيداً مضطرين محتاجين إلى فضله . وأبغض عباد الله عند الله تعـــالى مـــن استغنى عن الله تعالى بنعمه المحيطة به، وكل قلب غافل عن الله تعالى بما أنعم الله به عليه فهو مقطوع عن الله تعالى أعوذ بالله من نسيان المنعم بنعمته .

﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾جمع خطوة والخطوة مابين رجلىالماشى، ومراد الله تعالى من : ﴿ **خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** ﴾ وهو أعلم أى سبيله وطريقه . وقدبين الله ذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيـــدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلأضِلَّنَّهُمْ وَلأمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُـــرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (١) وقال تعالى :مخبراً عن هـــذا العدو الرجيم : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

(١) سورة النساء آية ١١٧ — ١١٩

[1] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [2] كشف الله لنا الستار عن نوايا إبليس بنا وعن تمكين الله له فى قلوب من اتبعوه، ليعلمنا مقدار عداوته لنا فتدوم مجاهدتنا لأنفسنا خوفاً من أن نقع فى مصايده ومكائده ولاحول ولاقوة إلابالله . ومابينه الله فة تلك الآية هو بعض خطوات الشيطان . وقد أكد علينا أن نستعيذ بالله منه ومن شر شياطين الإنس والجن . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أكد الخبر عنه أعاذنا الله منه لنتحفظ منه باتباع السنة والكتاب .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١٦٩)

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾

أماالسوء فكل معصية بالجسم أو بالقلب، وأما الفحشاء فهى الكبائر المتفاحشة جداً . وقد تأولها بعض العلماء بأنها الزنا واللواط أعاذنا الله منها . والفواحش كل كبيرة فوق أعمال السوء . وشر تلك الفواحش أعمال القلوب كعقدها على الكفرأو على النفاق أو على العقائد الضالة والآراء والمذاهب المفسدة . وشرها فى الجوارح قتل الأولاد فالزنا فقتل النفس لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[3] فجعل الزنا أكبر من قتل النفس لأن الزانى قتل أنفساً كثيرة وآذى

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦ — ١٧

(٢) سورة فاطر آية ٦

(٣) سورة الإسراء آية ٣١-٣٣

إخوته المسلمين أذية شنيعة، فإن المرأة إذا حملت من الزنا قتلت ولدها أو أهلكتـــه بأن ترميه، وبذلك يكون الزانى ارتكب القتل وشرا منه.

﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾

هنا النار المسعرة والخسية التى تذيب القلوب، لأن كثيراً من الناس يدعون الصلاح والتقوى والعلم والإرشاد ونواصيهم فى قبضة إبلـــيس يوســـوس إلـــيهم بالأكاذيب والأباطيل فيقولون على الله مالا يعلمون، وقد يبلغ الغرور بالرجل منهم حتى يعتقد أنه نافع وضار ومقدم ومؤخر ومتكلم عن الله وعن رسوله وهو يهـــدم الشريعة من أعلاها إلى عاليها، ويمحواالآثار الشرعية والأحكام والآداب معتقدا أنه يتكلم عن الله، وترى كثيراً من الناس يصدقونه ويزيدونه غـــرورا بنفســـه وهـــو منغمس فى لعنة الله وغضبه يتأول القرآن والسنة على حسب مايلائم هواه من غير رعاية الآداب مع الله ورسوله. قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ مَنْ كَذَبَ عَلَـــيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَـــى الْكَـــاذِبِينَ ﴾ [١] ومسلم ذاق طعم الإيمان لايسلم إلا لله ولرسوله ولأولياء الله العاملين بكتـــاب الله وسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

وقولى هذا لا يجعلنى أنكر أن الله تعالى جذب إليه من أحبهم من خلقـــه فأفناهم عن وجودهم بوجود شهودهم، فيراهم الناس يمشون على الأرض وقلوبهم معلقة بالرفيق الأعلى، لأن الله أقامهم مقام من اصطنعهم لنفسه وهم أهل الـــذكر الأكبر، الذين ينالون الرضوان الأكبر صغرت الدنيا فى أعينهم فزهدوا فيها وهـــم أحوج مايكونون إليها . جاهدوا أنفسهم فى ذات الله حتى اســـتلانوا ماســـتوعره

(١) سورة آل عمران آية ٦١

المترفون . علموا سر الحكمة فى الإيجاد والإمداد حتى بهم بلغ العلم عين الــيقين أو حق اليقين، لايغضبون إلا لله ولايرضون إلا لله ولايفرحون إلا بفضل الله وبرحمته، ولا يأنسون إلا بالله تعالى أولئك هم أولياء الله .

أما من توعدهم الله بالخلود فى النار باتباعهم خطوات الشيطان التى مــن شرهاأن يقولوا على الله مالا يعلمون، وهم أهل البهتان الذين يفتــرون علــى الله الكذب ليتنعموا فى تلك الدار الدنيا بمايوقعهم يوم القيامة فى نار جهنم، أعاذنا الله تعالى بوجهه الكريم من اتباع الحظ والهوى ومن البدع المضلة . وإن الذين يقولون على الله مالا يعلمون لايخفون علينا، فمنهم الشاطحون التائهون الذين يظهــرون للناس أنهم فى‌فناء عن الدنياوحضور مع الله تعالى، وكذبوا لأن أهل هــذا المقــام جائعة بطونهم، عارية أبدانهم ظمآنة أكبادهم ،سكنت نفوسهم إلى ربهم وصــبرت مع الذين يدعون ربهم بالغداه والعشى يريدون وجهه، رضوا عن الله بعد أن رضى سبحانه عنهم، لافرق عندهم بين الدرة بضم الدال وبين الدرة بكســرها، آثــروا الناس بحطام الدنيا، وقهروا أنفسهم جهاداً ومنافسة فى نيل رضوان الله الأكبر ومن هم ؟ وأين هم ؟ فليتق الله الضالون المضلون فإن عذاب الله شديد .

وقد بينت لك أيها القارىء فى كتاب : (الطهور المدار) ســر تلــك العداوة البينة من الشيطان لنا ،وأشرت لك إلى معنى الشيطان وما فيك منــه ممــا يتصل بقلبك، وأعلمتك أن أبوابه التى يدخل منها عليك هى جوارحك المجترحــة وشرها بطنك فإنها المعقل الذى يمدتلك الجوارح بالخيرأو بالشر، فاحذر أن تكون عبداً لبطنك، وضيق الخناق على النفس الشهوانية فلا تدخل فى بطنك إلا الحــلال الطيب على قدر الضرورة، واحذر أن تتوسع فى المباح فيصرعك الكفاح، وقد بين الله لك قدر الدنيا، وشرح لك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ماخفى عليك من القرآن،

وما وصل الواصلون إلى الله إلا بالجوع والسهر وقلة الكلام المباح، وملازمة الخلوة محاسبة النفس ومراقبة لجلال الله ومشاهدة لجماله العلى حيث الأنس به سبحانه . ولا تصحب إلامن ثقل ميزانه بما وضع فيه من العلم بالله والأدب مع الله ورســوله ومن العض بالنواجذ على ماكان عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه، واضرب بما خالف ذلك وجه الحائط واطلب العلم من العارفين ولو بالصين، واحذر مــن صحبة الذين يقولون على الله مالايعلمون فإن صحبتهم ذل لغــير الله فى الــدنيا، وعذاب شديد يوم القيامة . أعاذنا الله من الفتنة خصوصا فتن هذا الزمان العميــاء الصماء، التى جذبت قلوب أهل الهوى مما ابتدعه الضالون المضلون الذين تلقواعلم الدنيا فى بلاد أوربا، الذين أذهبت غيرهم لله ورسوله أطماعهم فيما فى أيدى أعداء الله من زينة الحياة الدنيا .

وقد كثر فى زماننا هذا أتباع الشياطين بما نراه من آثارهم من التطــاهر بعمل الفحشاء والمنكر، وبتعصبهم لأهل المذاهب المضلة والآراء الفاسدة والعقائد المفسدة . ولولا الإطالة على القارىء لبينت أنواع الذين يقولون علــى الله مــالا يعلمون فى زماننا هذا ولكن ندعهم بعد قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) فنسأل الله أن يهدينا صراطاً مستقيماً .

وهنا أعرفك أتباع من يقولون على الله مالا يعلمون، أهم شر الخلق لعدم بصيرهم التى ينظرون بها إلى الحقائق التى تجعلهم من أهل علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين، وتلك المراتب هى الحجة على أن الإنسان إنسان بمعناه، فإذا حــرم تلك البصيرة كان أضل من البهائم السائمة، وغاية مافى الأمر أنه علــى صــورة

(١) سورة القلم آية ٤٤

الإنسان ولكنه كالقرد الذى يسمى : " إنسان الغابة " أو كالسمك الذى : يسمى : " إنسان البحر " ففى الغابة قرد يمشىعلى رجليه ويعمل أعمال الإنســان مــن الغضب والرضا والضحك وتحصيل قوته إلاأنه لاينطق، وفقده النطق حجة قــاهرة على أهل الجهالة بالحقائق القائلين إن الإنسان أصله قرد . وإن رأيت رجلاً يســلم لغير الحقائق التى يقبلها العقل فاحذره ولاتبح له علماً فيفسده . قال عيسى بن مريم عليه السلام : (لاتُلقوا الَجواهِرَ تَحْتَ أَقْدَامِ الَخنَازِيرِ) وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا أراد أن يتكلم فى علوم اليقين قال لأصحابه : (أَجِيفُوا بَابَكُمْ) أى أغلقوه، ثم يقــول ﴿ أَفِيكُم غَرِيب ﴾ والغريب هنا والله أعلم هو فاقد القابل ولو كان عابداً زاهداً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾(١٧٠)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾

يبين الله لنا حرمان ما اتبعواخطوات الشيطان من القابل الذى عــن الله آياته لنعلم أن تلك الآيات الجلية فى الكائنات، وأن ماجاء به الرسل عليهم السلام من البينات إنما هو حجة على من لم يجعل الله له عقلاً يعقل عنه سبحانه وتعــالى ونوراً تستبين به سبل الله تعالى . وأما من منحه الله القابل فإنه يقبــل أســرار الله ويفقه آياته، قال ﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ الْمُؤْمِنُ يَكْفِيهِ قَلِيلُ الحِكْمَةِ ﴾ وقال تعــالى ﴿ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾[1] وسبب نزول هذه الآية أن رسول ﴿ ﷺ وآله﴾ لما دعــا اليهود إلى العمل بماأنزل الله تعالى أخذهم العزة بالإثم فقال عنهم رافع بن جارحــة

(١) سورة آل عمران آية ٧٣

وخالد بن عوف : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ وخصوص السبب لايقتضى خصوص الحكم فالسبب خاص والحكم عام .

وهذه الآية الشريفة خبر عمن خاطبهم الله تعالى بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا ﴾ والخروج من الخطاب إلى الغيبة فى فصيح الكلام من المعجز . وقوله تعالى : ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** ﴾ أى اعملوا بما أنزل الله على حبيبه محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾. فخالفوا أمر الله تعالى وقالوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أى نعمل بما وجدنا عليه آباءنا بالله كفراً وعناداً لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وتكبرا عن الحق . فشنع الله عليهم وأخزاهم بقوله :

﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُون** ﴾

والمراد بآبائهم هنا هم آباؤهم الذين ضلوا فى زمان موسى وعيسى عليهما السلام وبعده الذين شنع الله عليهم فى أوئل البقرة، ولم ويقع منهم هذا الخلاف إلا وهم على بصيرة بما أثبته الله من بعثة حبيبه ومصطفاه من ولد اسماعيل فى سفر الخليل وموسى عليهما السلام . شنع الله عليهم بتلك الآية لأنه جل جلاله خلق الإنسان وسطاً بين العالمين بين عالم الملائكة وعالم البهائم، ومنحه عقلاً يستعمله فى تدبير شئونه وتدبير أعماله والمسارعة إلى نيل الخيرات اللآزمة له والتحفظ من الشرور أن يقع فيها . وجعل استعماله له ضروريا ليدرك أن الخيرات الكونية لاتنال إلاباستعمال هذا العقل، وقد فطره على الدين لأن الإنسان حيوان دينى، فكما استعمل عقله فى أموره الدنيوية كان ينبغى عليه أن يستعمله فى أموره

الدينية فينظر فيما حوله من الكائنات نظر متعقل، ليعلم أن ما على الأرض ومـــن عليها عبيد مربوبون وعباد مقهورون ليس على وجه الأرض من يملك لنفسه منهم ضرا ولانفعاً و بل ولا فى السماء من أجرامها العظام وطبقاتها المتناهية فى الســعة مايض رأو ينفع بذاته، فيحكم أنه ليس فوقه فى هذا العالم أجمع إلا الله، وما عداه ومن عداه آثار رحمته وأسباب وضعها سبحانه ليظهر لمن أحبه فمن أهمل هذا العقل وقتله وقلد غيره تقليداً أعمىمن غير حجة ولابرهان كان أضل من الأنعام .

وهنا يبين الله تعالى لمن قلدوا آباءهم من غير بصـــيرة ولاحجـــة أنهـــم استوجبوا غضب الله وانتقامه، لأن العقول التى تبحث فى هذا الكون حتى تختـــرع الآلات والأدوات التى تغير بها وجه الأرض وتستعبد بها عباد الله و لم تبحث فيمـــا أودعه الله فى تلك الكائنات من الدلائل على وحدانيته من الآيات الدالة على قدرته وحكمته وعلى تفريده سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبيـــة والكمـــالات الذاتيـــة الأسمائية الصفاتية كانت تلك العقول أدنى من عقول أخس الحيوانات، لأن كـــل حى من الأنواع السافلة له عقل يدرك به جلب المنافع ودفع المضار بقدره، فمنـــها مايصنع له الحجرات فى بطن الأرض وفى كهوف الجبال، ومنها مايصنع له القصور العاليات فوق الأشجار، ومنها مايقود الجيوش لحرب أخصامه كالقردة فى جزيـــرة مدغشقر، ومنها ما يصنع النفق بين البر والبحر، ومنها مايتعـــاون علـــى جلـــب ضرورياته ويصنع له بيوتاً هندسية بحجرات مسدسة يعجز عـــن إتقانهـــا أمهـــر المهندسين، وغير ذلك من أنواع تربية الإناث منها لأولادها . فمـــن الحيوانـــات مايخرج أولاده من بطنه ويضعه فى كيس تحت بطنه ليتمم حمله، وبعضها تلد فيفر المولود من أمه بسرعة يكون فيها أسرع من الريح المرسلة وأمه تجرى وراءه حبـــا منها لتنظفه بلسانها ولسانها كالشوك لولحسته لقتلته فينجو منها بعدوه، ومنها مايلد

خارج البحر على الرمل ثم يرجع إلى البحر فيربى أولاده بالنظر إليهـــا وســـبحان القادر الحكيم .

هذا مافطرت عليه الأنواع الحية السافلة، فيكون مافطر عليـــه الإنســـان أرقى من هذا بحسب ضرورياته، ولا يحكم على الإنسان بأنه عاقل حتى يدرك عقله ماهو ظاهر فى الكائنات من الآيات القائمة على وحدانية الله تعالى، فإذا لم يـــدرك هذا حكم على نفسه بأنه أخس من البهائم الراتعة . ومن حكم على أن أهل الكفر بالله أناسى معنى جهل الحقائق . ولكنهم أناسى مبنى لأنهم لايعقلـــون إلا بالعقـــل المكتسب الذى دعت اليه الضرورة كما دعت الضرورة البهائم أن تعمل مـــايعجز الإنسان .

وهنا أشير إلى أن عالم النباتات أكمل عقلاً فى نيل ضرورياته من الإنسان فإنك ترى الأزهار فى النباتات الصغيرة تتحول إلى الشمس عند شروقها وتـــدور معها إلى غروبها وترى الأشجار الضخمة أول فرع منها يتجـــه حيـــث شـــروق الشمس والفرع الثانى إلى غروبها حتى لايضر أخاه بظله والفرع الثالث يرتفـــع إلى الأعلى وكل ذلك لتتمتع الشجرة بحرارة الشمس ونورها . وكل نبات يكـــون فى ظل يمتد رأسه ناحية الشمس ولذلك فإنك ترى بعض النخيل إذا كان بجانب نخلة تحجب الشمس عنه يميل شرقاً أو غرباً وترى فى الشجرة الواحدة أزهاراً ذكـــوراً وأزهاراً إناثا فيلقح بعضه بعضاً .

ظهر لك أن مابلغ إليه الإنسان مما يقولون عليه مدنية واختراعاً وتفوقاً كل ذلك مفطورعليه الإنسان كما فطرت عليه الحيوانات والنباتات، ولذلك يقول الله تعالى :﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾. نفى سبحانه وتعالى

عنهم العقل الذى يعقل عن الله مع الإنسان من لدن آدم وهو آخذ فى الرقى حتى أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها لجهلهم بأنفسهم وبربهم أنهم قادون عليها، والحقيقة أنهم ماعقلوا شيئا لأن الذى عقلوه من الصناعات والفنون والعلوم المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا لاتخرج محصلها عن أنه نوع من أنواع البهائم الراقية كالقردة والنسانيس والنمل والنحل والخيل والطيور الرحالة، ومن ظن أن الفراعنة والأكاسرة والبابلين والأشوريين ممن أخنى عليهم الدهر أو بنى الأصفر سكان قارة أوربا وسكان أمريكا أو الأنواع الحمر والسود من سكان الصين واليابان والسودان ممن لم يستضيئوا بنور الإسلام يعقلون فقد أخطأ الحقيقة، لأنهم لو كانوا يعقلون لعقلوا عن الله تعالى ما أنزل إليهم مؤيداً بالحجة الدامغة والدلائل القيمة، فهم كما قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ . والهمزة هنا للاستفهام توبيخاً، فإثبات الله أنهم لايعقلون شيئاً حقيقة لأن العاقل من عقل عن الله تعالى، أما من اخترع أو تفنن أو قهر خصومه بالقوة والحيلة فهذا جاهل لايعقل، مالم يكن ذلك بعد إيمان بالله تعالى وعمل بأمره ووحيه .

﴿وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ الهداية هى بيان سبيل الله تعالى للعبد حتى ينهج عليها سالكاً إلى الله تعالى . فقوله سبحانه : ﴿ وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ أى أن سبيل الله تعالى تبين لهم بآيات الكتاب وببيان السنة، والقوم لما سجله الله عليهم لايقبلون الهداية لفقد القابل لأن الهوى أعمى عيون البصيرة عن أن تفقه آيات الله تعالى . وهنا إشارة خفية تبين لأهل التوحيد فى هذه الآية وهى أن الله إذا قدر لعبد هداية جعل له نوراً فى قلبه وجعله ينجذب إلى الحق بأقل حكمة، وإذا لم يقدر الهداية لعبد أبعده الحظ والهوى والتقليد الأعمى عن فهم الحجج والدلائل وظن أنه يحسن صنعاً.

قوله تعالى :﴿ وَمَثلُ الَّذِينَ كَفرُوا كَمَثلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْـــمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(١٧١)

﴿ وَمَثلُ الَّذِينَ كَفرُوا كَمَثلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾

إن من الحكمة العالية التى تنكشف بها الحقائق تلك الأمثال التى تقصـم ظهر الخصم بما تليحه من الحجج الناصعة، وقد وردت فى القرآن أمثال كـثيرة . يقول الله تعالى فى تمثيل حال الرسل مع أهل الكفر بالله أو حال أهل الكفر بالله مع أندادهم الذين اتخذوهم من دون الله : ﴿ وَمَثلُ الَّذِينَ كَفرُوا ﴾ بعد البيـان لهـم وإقامة الحجج والأدلة مع إنكارهم الحق الذى جاءت به الرسل إليهم كمثل راعى غنم ينعق عليها فتسمع نعيقه ولاتفهم معناه، وهو مثل محسوس ملموس بل معجز لأنه ورد فى أكمل صورة للبلاغة . ولك أن تقول : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مع أندادهم الذبن اتخذوهم أرباباً يعبدوهم أو يتضرعون إليهم كمثل الراعى ينعق على الغنم . والتأويلان يطابقان المعنى وفى اللغة النعيق للراعى والنغيق للغراب . يقـال نغق الغراب ونعق الراعى .

﴿ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾

أى بالنوع الذى لايسمع من الناعق إلا دعاءه ونداءه مـن غـير فهـم ولاتعقل . فـ(مَا) التى دخلت عليها الباء نكرة موصوفة بمعنى شيء، وفى هذا المثال من التشنيع والتقبيح مافيه على من حكم الله عليهم ووصمهم بالخزى والذل فقال سبحانه :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾

فالأصم الذى لايسمع، والأبكم الذى لايتكلم، والأعمى الذى لايبصر . وفاقد تلك القوى الرئيسية أضل من البهائم السائمة، ومعنى هذه الآية أن أعداء الله ورسوله وأعداء أنفسهم فقدوا القابل عن الله الذى تقتضيه رتبة الإنسان فـانحطوا إلى مستوى أحقر البهائم ثم سقطوا إلى رتبة الجمادات . والعجب أنهـم فى تلـك الدار الدنيا انحطوا عن النوع الإنسانى إلى رتبة البهائم وأقـل، وفى يـوم القيامـة يحاسبون حساب الإنسان وتكون البهائم أسعد منهم وهذا نهايـة الشـقاء، لأن البهائم يقال لها كونى تراباً وهؤلاء يتمنون أن يكونوا تراباً . ويومئذ يتمنى الواحد منهم أن يكون تجمل بأكمل المعانى الإنسانية علماً بالله وإخلاصاً فىعبادته وحسن اتباع لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[1]

قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(١٧٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

يبين الله تعالى فى الآيات السابقة حجج التوحيد ودلائله وأسرار النبوة بما جعل تلك الحقائق تتجلى لمن جعل الله لهم نوراً فى قلوبهم، وقهر أهل الكفـر بمـا أخبربه عنهم، ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين لنا أحكامه فى جميع شئوننا وضرورياتنا الجسمانية والروحانية بما يخص الفرد والمجتمع بحسب أنواعه فقال سبحانه وتعـالى يخاطب أهل الإيمان به : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا بالله ورسـوله، لأن نداء الذين آمنوا يقتضى أن تكون الآيات بعده بيانا لأمور خاصة بهم فيما يحل لهم ويحرم عليهم أو يجب أو يندب أويباح، بخلاف نداء الناس أو نداء أهل الكفر بالله

---

(١) سورة ص آية ٣

فإنه يقتضى إنذارهم ودعوهم إلى الحق لذلك قال سبحانه لأهل الإيمان : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ كما قال فى الآية السابقة للناس : ﴿ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا ﴾

وبين الآيتين تناسب، ولكن أهل الإيمان يرون فى هذه الآية سراً تسكن به نفوسهم إلى منفسها فإنه فى الآية السابقة أعقبها بقوله : ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ وفى هذه الآيةأعقب الأمر بما أباحه لنا وما حرمه علينا لنعمل بما أمرنا به من الأكل من طيبات مارزقنا، فإن الطيب هو اللذيذ الشهى الذى تترفع عن التوسعة فيه نفوس أهل التقوى الورعين ، فوسع سبحانه وتعالى فى هذه الأية وأباح لنا التمتع باللذيذ الشهى مادام من رزق الله لنا فإن الرزق لايكون إلا حلالاً ومنه ماهو غير لذيذ وغير شهى . ومن قال إن الله يرزق الحلال والمحرم تأول هذه الآية بالأمر من الله أن نأكل الحلال من الرزق ونترك مافيه شبهة أو تحريم .

فقوله سبحانه : ﴿ كُلُوا ﴾ يجوز أن يكون للوجوب وللإباحة، فيكون للوجوب عند الضرورة، ويكون مندوباً للضيف إذا رغبه صاحب البيت، ويكون مباحاً إذا لم يكن داع . وبهذا التأويل يكون مايستعمله الإنسان مما يشتهيه إذا كان حلالاً وكان القلب مشاهدا أنه نعمة من الله تعالى يقبله الله منه عبادة . ومن زهد فأكل القديد وحرم على نفسه الطيب مع غفلة قلبه يحكم عليه بأنه غافل لأن الله تعالى ينظر إلى القلوب لا إلى الأشباح .

﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

بيان لما أولنا به هذه الآية والشكر لله عمل . فشكر القلب علمه بانفراد الله تعالى بإسباغ النعم قليلها وكثيرها، وكون القلب يصرف الجوارح فى طاعة الله . وشكر الجوارح المسارعة إلى عبادة الله تعالى وحسن معاملة الخلق ومخالفة النفس الأمارة بالسوء فى كل أعمالها . وشكر اللسان الثناء الجميل على الله بما وهبه من النعم التى لاتحصى . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ جملة متأخرة عن تقديم أى : إن كنتم إياه تعبدون فكلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله، والضمير فى ﴿ إِيَّاهُ ﴾ عائد علىمتقدم لفظاً . والعبادة هى المعرفة كما تأوله بعض العلماء فإن من عبد لايعرف يهرف أى يهزأ، ولاغبادة إلابعد المعرفة لأن عبادة الجاهل لا تخلو من الشرك ولو بالعبادة للجنة .

قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : (نِعْمَ العبدُ صهيب لو لم يخف الله لم يعصه) يعنى لو أن الله تعالى لم يخلق ناراً ولاجنة لعبده من عرفه لاستحقاقه للعبادة لكماله الذاتى . ولما منح من الخيرات التى عجزت العقول عن حصرها، والعبادة على تأويل الآية بحسب اللفظ معلومة مبينة فى كتب الفقه .

قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١٧٣)

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾

أنزل الله تلك الآية بيانا لما حرمه علينا بعد أن بين لنا ماأحله، و(إِنَّمَا) هنا إما أن تكون حرفاً واحداً أو كلمتين، فإن كانت حرفاً واحداً فهى للحصر

وهو حصر التحريم فى الميتة وما بعدها، وتكون الميتة وما بعدها منصوبة بحرم . وإن كانت كلمتين تكون (إنَّ) للتوكيد و(ما) اسم موصول اسم إن وحرم علـــيكم صلتها والميتة خبرها مرفوع بها وما بعدها مرفوع أيضا، وعلى التـــأويلين فـــالمعنى تحريم تلك الأنواع تحريما مشدداً .

وأ الْمَيْتَةَ لأ

كل حيوان ذى نفس سائلة مات من غير سبب خارج، ولك أن تقول : الكلمة مجملة، وتفصيل هذا الإجمال ماورد فى غير هذه الآية وهو قولـــه تعـــالى : أحُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّـــهِ بِـــهِ وَالْمُنْخَنِقَـــةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ لأ [١] فيكون قوله تعالى ﴿ الْمَيْتَةَ ﴾ يعنى التى لم تزك سواء ماتت الميتة المعتادة أو غيرها . واختلف العلماء فى تحريم الميتة. هل تحريم الميتة بترك أكل لحمها والانتفاع بشعرها وصوفها وجلدها أو التحريم عام ؟ فقـــال بعضـــهم تحريم أكل لحمها وإباحة الانتفاع بما بقى، وقال بعضهم بإباحة الانتفاع بصـــوفها وشعرها ووبرها وجلدها إن دبغ وتجوز الصلاة عليه، وبعضهم يرى التحريم منصبا على أكل لحومها وعلى نجاسة عظمها وجلدها ولكنه يستعمل فى غير العبادات .

﴿وَالدَّمَ ﴾

الدم معلوم وهو الذى يسفك عند الذبح، وأما الدم الذى بين طبقـــات اللحم فهو طاهر، وكانت قريش تأكل الدم مطبوخا كما يفعل الآن سكان أوربا

(١) سورة المائدة آية ٣

من المتنصرة . والدم هو النفس الحيوانية .. ورد فى التوراة (ياموسى لاتأكل الدم فإن الدم هو النفس) وقال الفقهاء : كل ذى نفس سائلة فميتته نجسة . وإنمايجاهد السالك نفسه ليقهر سلطان الدم فى الجسم بالجوع فى الصيام والسهر وإنما حرمـــه الله تعالى لفادح ضروره للإنسان فى صحته وأخلاقه فإنه يجعل الإنسان كـــالوحش الكاسروتحصل منه أمراض كالجدام وما أشبهه.

﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾

الختزير حيوان معروف ،ولما أنزل الله تحريمه بحث أهل العلم فى حكمـــة تحريمه فظهر لهم أنه حيوا ن يعيش فى وســـط الـــبرك والمســـتنقعات والأوســـاخ والقاذورات، ففهموا أن لحمه ودمه نجسان لأهما متولدان من النجاسة . ومـــامن حكم شرعى إلا وله حكم كثيرة لاتنكشف إلا لمن شاء الله أن يعلمه، وحكمـــة تحريمه أن كل قطعة من لحمه موجود ها ديدان صغيرة لو وضعت فى النار لاتموت فلا يقتلها الطبخ كما يقتل مافى لحوم غيره من الديدان . فإذا أكله الإنسان نمـــت تلك الديدان فى بطنه فقرحت المعى والمعدة، وقد تتسرب من مسام المعى التى يمتص منها صفوة الغذاء بعد هضمها إلى الأوردة التى توصلها إلى الكبد وتمـــر فى دورة الدم فلا تبقى عضواً من الأعضاء الرئيسة الباطنة إلا ألهبته وقرحته فيفســـد الـــدم وتضعف الأعضاء.

ولما كان آكلوه يشربون الخمر والخمر تخدر الديدان وتدبغ الالتـــهابات فى الأعضاء فتكون البلية أنكى وأشد لتسميم جسم الإنسان . وماحرم الله علـــى المؤمنين شيئا خلقه إلا وفى تحريمه مصلحة عامة لأهل الإيمان به وخير عظيم لهـــم، وماوقع الإنسان فيماحرمه الله تعالى إلا ألقى بنفسه فى هاوية الأمراض فى الدنيا وفى

سحيق العذاب يوم القيامة . ومن حكمة تحريمه أيضا أن آكله يكون أولاده خبثاء يجرؤون على عمل الكبائر وإساءة الأرحام والأقارب بل وتكون قلـــوبهم قاســـية لارحمة فيها لأحد . ومن الحكمة أيضاً أن لحمه وبىء يوقع فى أمـــراض التشـــنج والصرع والجنون . فرحمة الله بنا بتحريم تلك الخبائث علينا كرحمتـــه بالأمطـــار والهواء والشمس . فسبحانه أرحم الراحمين

لذلك فإنك ترى الأمم التى تكثر من أكله خبثت نفوســـهم، وقســـت قلوبهم، وصار الانتقام وحب الأثرة وسفك الدماء وسلب مرافق الحياه من الأمـــم معبوداً لهم من دون الله . كما نراه اليوم فى أمم أوربا وأمريكا وغيرها أعوذ بـــالله من مخالفة أوامره

﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾

الإهلال هو رفع الصوت، ويقال للمحرم أهل لرفعة صـــوته بالتلبيـــة، والناحر أو الذابح يرفع صوته بذكر الله تعالى إن كان مؤمناً، وبذكر الأنـــداد إن كان كافراً . والإهلال هنا بمعنى النحر والذبح . فماذبح من الذبائح لله ورســـوله فحلال طيب . وماأهل به من الذبائح لغير الله فهو محرم على كل مؤمن لحكمـــة يتذوقها السالكون إلى الله وهى أن الذابح سقط عن رتبة الإنسانية لأنه عبد عبـــداً مثله أو حيواناً دونه أو وثنا صنعه بيديه . وبهذا يكون ذبحه ونحره كالبهيمة المتردية أو الموقوذة أو النطيحة أو أكيلة السبع . وكل هذه الأنواع محرمة .

وإنما الذى يجوز له أن يذبح أو ينحر يد تحركت عن قلب مـــؤمن بـــالله تجرى الرحمة من قلبه إلى يده ومن يده إلى الذبيحة فتجعلها حلالا طيباً . وأما يـــد

تحركت عن قلب كافر بالله عابد لغيره تجرى القسوة من القلب إلى اليد فتكـــون الذبيحة كأكيلة السبع أو المتردية . ويكون لحمها ساماً لكل مسلم يأكل منه، لأن الأجسام المطهرة بالإسلام المستنيرة بنور الإيمان لايناسبها هذا اللحـــم . ولكـــن يناسب الأجسام النجسة بالشرك المظلمة باعتقاد الكفر، ولكل نوع مـــن أنـــواع الحيوانات طعام مخصوص لايتعداه . وكذلك لكل نوع من بنى الإنسان طعام يكون هنيئا مريئاً . هذا وهناك حكمة أخرى فوق كل تلك الحكم، وهى أن الله نهانا عن أكل ماذبح على النصب لحكمة يعلمها هو، فمخالفة أمر الله والأكل منها موجب لغضب الله ولعذاب الله يوم القيامة . ونقول بعد هذا البيان كما قـــال الفقهـــاء : الحكمة تعبدية

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

الأضطرار هو قهر الضرورة الفادحة التى تبيح المحظورات و(غَيْر) هنـــا حال من اضطر و(بَاغٍ) أى متجاوز الحال الوسط بأن يتأول حـــل الشـــىء أو إباحته بالضرورة التى قد لاتبلغ هذا المقدار، والعاد هو المتعدى الحق إلى الباطـــل . أى أن المضطر يجب أن يلاحظ المقدار الذى بينه الله لإباحة المحظورات فلا يتجاوزه ولايتعدى حدود الله . (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) أى لاحرج عليه .

وهل ثم من إثم على المضطر إذا أكل الميتة ولحم الخنزيـــر أو الـــدم، أو ماحرمه الله عليه بمقدار حفظ حياته غير باغ ولا عاد ؟ الظاهر أنه لاإثم عليه، والله تعالى يقول :﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فهل ثم من إثم يرفعه الله عنه ؟ أقـــول نعـــم ؟. لأن حكم التحريم باق . وإباحة أكله لايخرجه عن كونه حراما ونجساً، فإن الله يـــرزق العبد رزقاً حراماً ويؤاخذه عليه يوم القيامة . ولكن استعمال هذا النجس المحـــرم

للضرورة بعفو الله عنه ولايؤاخذه عليه، ويكون تأويل هذه الآية فمن اضطر فأكل غير باغ ولاعاد يعنى فى الأكل حيث أنه لايتعدى مايسد رمقه علىقول من تأول هذا التأويل، ويكون الاضطرار على إطلاقـــة، ولـــو كـــان الاضـــطرار نتيجـــة معصيةكالمسافرلمعصية أو لخروج على الإمام أوفرارا من الجهاد من غـــير ســـبب شرعى. وتأولها غيره بقوله : فمن اضطر غير باغ ولاعاد فأكل فـــلا إثم عليـــه . فيكون البغى فى الاضطرار بمعنى أنه خرج عاصياً فلا يباح له أكل الميتـــة ولاالـــدم ولالحم الخنزير لأن الأكل معين على المعصية .

وقد قيد العلماء الإباحة بقدر مايسد الرمق ووسع مالك بأن يأكل حتى يكتفى. ويتزود منها مالم يجد حلالا طيبا. والقولان الأولان لأبى حنيفة والشافعى. وشدد ابن حنبل فى الأكل وفىالضرورة. ولكل وجهة والأولى التخفيف لماورد فى السنة، ولأن تلك الأنواع تعافها النفوس الإسلامية فلا تلجىء إليها، إلا من قهرته الضرورة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الغفر هو الستر، ومعنى الغفـــور الذى يستر الذنوب والعيوب عن المخطىء ولايعاتبه عليهـــا وقـــد يبـــدل تلـــك الخطاياحسنات بفضله، وتقدم معنى الرحيم . والمعنى فى هذا الموضوع أن الغفـــور الذى ستر ذنوب العبد التى أوقعته فى الضرورة وابتلاه بالضرورة ليتذكر فيرجع عن ذنوبه والرحيم الذى رحمه فأباح له فى الدنيا مايحفظه من الهلاك، ومنحه يوم القيامة نعيما ينسيه كل ألم فى الدنيا . وتقدم فى قوله :

﴿ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ بيان لمعنى هذين الاسمين الشريفين فى هذا الموضوع . وذكرهما هنا ليذكر قلب من أحاطت به البلايا من وقوع فى الكبائر بتسليط النفس

الأمارة وطبع السوء أن يلتجىء إلى الغفور الرحيم ليدفع عنه سلطان الهوى والحظ، وليرحمه بتبديل تلك الخطايا هداية وتوفيقا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١٧٤)

سبب نزول هذه الآية إنكار زعماء اليهود ككعب بن الأشراف وكعب بن أسد وحيى بن أخطب معنى ماأنزل الله فى كتابه من صفات رسـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومن إثبات نبوته، وأنه خاتم الرسل عليه الصلاة والسـلام . وخصـوص السبب لايقتضى خصوص الحكم فسببها خاص وحكمها عام، وفى قوله " يَكْتُمُونَ " بيان أنهم أخفوا عن العامة الذين لايفهمون، ماأنزله الله على كليمه مـن أنبـاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. وجائز أن يكون ماأنزله الله شائعا بينهم ولكنهم تأولوه – عنادا – للعامة ويكون التأويل معنى ماأنزل الله . ووسواء أكان المكتوم لفـظ ماأنزل الله أو معناه، فإن كل واقع فى هذا الظلم الفادح لنفسه، وقع فى هذا الوعيد سواء أكان من أحبار اليهود أورهبان النصارى أو علماء السوء من المسلمين، فإن الله تعالى ماشنع على قوم وعلى عمل وقع فيه غيرهم إلا حل بهم هذا الوعيد .

﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

الكتاب هو التوراة أى أنهم يبيعون الحق الصريح الجلى برشوة قليلة كما قال الله تعالى: " وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ "(١) أى باعوه برشوةقليلة مهما كانت قيمتها،

---

(١) سورة يوسف آيه٢٠

وإنكارهم صفات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خوفا من ضياع ماكانوا يبتزونه مـــن أتباعهم الذين كانوا يتلقون عنهم الكتاب مبينا ،فكتموا الحق عنهم الذى يعرفونـــه كما يعرفون أبناءهم تعظيما للدنيا ونسيانا لله وللدار الآخرة .

ولا تزال تلك النفوس الخبيثة تقع فى هذا الشر . فترى كثيرا من علمـــاء السوءينتقم بعضهم من بعض بتأويل ماحكم به بعضهم فى اللغـــة أو الفقـــه أو فى التأويل إنكاراً للحق وتحقيرا للخصم، وكذلك ترى جهلاء أهل الطريـــق يقـــبح بعضهم بعضاً بحرب وخصومة يوقعان فى الهرج والمرج حرصا على مايأخذونه من أتباعهم، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُـــورٍ ﴾[1] وهـــم يعلمون الحق ويميلون عنه طمعا كما أخبرنا الله تعالى فى هذه الآية عن أحبار اليهود .

﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ﴾

أى لايأكلون بالرشا التى أخذوها من أتباعهم وكتموا لأجلها الحق ﴿ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ ﴾ قوله تعالى : ﴿ فِي بُطُونِهِمْ ﴾ أى إلا طعاماً يوبقهم غـــداً فى النار لأن هذا الأكل سبب للوقوع فى غضب الله واستحقاق عذاب الله لهم، ومـــا كان سبباً فى العذاب صح أن يكون هو العذاب . ولك أن تقول إنهم يـــأكلون فى بطونهم النار لأن هذا الطعام الحرام آلم الروح الملكية لوقوعها به فى الحجاب عـــن شهود جمال آيات اله فى الكائنات، وعن الفقه فيما أنزله الله تعالى، وعن رعايـــة أحكام الله، وعن مسرة الأنفس التى تنالها بالعمل بكتاب الله تعالى، وعن طمأنينـــة القلب بذكر الله بسبب الغفلة عنه سبحانه بمخالفة أمره . وهذا عند العارفين أشد

(١) سورة النور آيه ٤٠

ألماً من عذاب النار فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فإذا تاب وندم، وأما فى الآخرة فإذا انكشفت الحقائق له . وقد تنكشف تلك الحقائق فى الدنيا بالحجة البالغة فيقع فى الخزى والذل والمهانة . والجملة للقصر أى أن بطونهم مقصـــورة علـــى النـــار لايدخل فيها طعام بسبب هذا الرشا إلا ناراً مهما كانت لذته وحلاوته .

﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

تشنيع من الله تعالى على هؤلاء القوم الذين أخبرنا الله عنـــهم فى الآيـــة السابقة، لأن كلام الله تعالى لعباده تشريف لهم وتعظيم لقدرهم وبهجة لأرواحهم، إنما يكلمهم مسلماً عليهم وهو السلام و منه السلام قال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَـــوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾[1] وتلك الآية حجة على أن الله تعالى يكلم أحبابه ممـــن آمنـــوا برسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولقائل أن يقول : قوله تعالى : ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُـــمُ ﴾ ينـــافى ماورد فى قوله سبحانه : ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾وما أشـــبه ذلك مماورد فى غير هذه الآية مما يفيد الكلام مع أهل الكفر بـــالله وهـــذه الآيـــة محكمة، والجواب أن الذى يكلمهم هم الملائكة قوله تعالى : ﴿ وَلا يُـــزَكِّيهِمْ ﴾ التزكية هى الطهارة . وعدم الطهارة هنا هى أن لايغفر الله ذنوبهم ويعاملهم بعدله الذى يقتضى أن يكون لهم عذاب أليم فقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِـــيمٌ ﴾أى مؤلم جداً، وقد بينا أنواع العذاب فيما سبق

قوله تعالى :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾(١٧٥)

(١) سورة الزمر آية ٢٤

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى ﴾

حكم من الله على من ذكر خبرهم فى الآيات السابقة . والإشارة عائدة على من ذكرهم الله فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْــزَلَ اللَّــهُ﴾إلخ وقوله: ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ أى ابتاعوا الضلالة بالهدى، وابتاع واشترى بمعنى واحد ولكن الشيء الذى أخذه البائع هو مايذكر بعد الفعل مباشرةأى أخذوا الضلالة بثمن غال جداُ وهو الهدى والضال هو الذى خفيت عليه معالم الطريق . والمهتدى هو الذى جعل الله له نوراً يستبين به صراط الله المستقيم .

﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾

يوبخهم سبحانه بتلك الآية، والمعنى أنهم أشتروا معاصى الله تعــالى الــتى توبقهم فى العذاب الأليم، وأبوا قبول أوامر الله تعالى التى ينالون بها االنعيم المقيم فى جوار الصديقين و الشهداء، وهنا يجب على المؤمن أن يكون شديد الحــذر مــن الوقوع فيما يخالف الله تعالى بصحبة الضلال الذين يفسدون على الناس عقائدهم ومذاهبهم . وكل مؤمن لاينظر بعين البصيرة فى الأمور الدينية ويطلب العلم مــن أهله ولو بالصين، وقع فى شباك أهل الأهواء المضلة ومرق من الدين كمــا يمــرق السهم من الرمية . فإذا جاء يوم القيامة تبرأ دعاة الجهالة من المتبعين لهم . وكــان عذابهم بالخصومة فى النار أشد عليهم من عذابها.

﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾

تأول بعض العلماء هذه الآية بأن (مَا) تعجبيــة و(أَصْــبَرَهُمْ)فعــل تعجب، والمعنى شيء عظيم أجرأهم على العمل الذى يوبقهم فى عذاب النار. وهذا

التأويل يلزم أن نفهمه. إن الله تعالى يخبر بهذه الآية عنا لأننا نعجب مـــن عمـــل الكفار بالله هذا العمل الذى يخلدهم فى عذاب جهنم لجهلنا بســـببه . والتعجـــب لايكون من الله لأن الله سبحانه لايجهل أسباب الأحداث التى قدرها أزلاً وأظهرها فى الكون . ولك أن تقول (مَا) استفهامية للتشنيع والتوبيخ وإثبـــات الجهالـــة العمياء لمن كتموا ماأنزل الله من الكتاب – إلخ ويكون المعنى أى شىء أجـــرأهم على العمل الذى يخلد عامله فى نار جهنم .

وهنا إشارة خفية : وهى أن الله يبين لدعاة الضلالة وعلماء السوء الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أنهم لمخالفتهم الله ورسوله وكتمان الحق عـــن طالبـــه وتأويله حسب أهوائهم وحظوظهم وأطماعهم، وقعوا فى نار جهنم حـــالاً وإن لم يحسوا بآلامهم الفادحة، بل وإن تلذذوا بما نالوه من حطام الدنيا فـــإنهم أوقعـــوا أنفسهم الطاهرة فى هاوية البعد والقطيعة عن الله، وسجن الحرمان من مزيد الإيمان وحرموا من جمال السياحة الروحانية فى عالم الملك والملكوت بما نالوه من مـــلاذ كون الفساد مما يلائم أجسامهم وحسهم ونفوسهم الأمارة بالســـوء وطبـــاعهم الخبيثة، وقوله تعالى : ﴿ عَلَى النَّارِ ﴾ بحذف المضاف ملحوظ أى علـــى عـــذاب النار.

قوله تعالى :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُـــوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾(١٧٦)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾

إسم الاشارة هناعائد إلى﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُــونِهِمْ إِلا النَّــارَ﴾ والمعنى – والله أعلم – ذلك العذاب الأليم، لأن الله تعالى نزل الكتاب مبيناً أسرار الحق جل جلاله بالدلائل الواضحة والحجج القاطعة والبراهين المحسوسة الملموسة . وأنزل فيه صفات نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ومحل مولده وهجرته، وأنه أرسله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليكمل به الدين، ويتم به النعمة على العالم أجمع، ومع هذا البيان الجلى فى التوراة والإنجيل والقرآن كتموا تلك الحقائق وأخفوها عن معاصرى رســـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من اليهود وجادلوا المسلمين كما تقدم .

وقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾أسند إنزال الكتاب إلى حضــرته العليــة تشريفاً لقدره، وشرفه بقوله : (الْكِتَابَ)لأن الله أنزل كتباً كثيرة، ولكن الكتاب الذى أسندإنزاله إلى نفسه وذكره بلفظ الكتاب لعلو قدره وشهرته بالقرآن المجيد . قوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق ففى قوله : (نَزَّلَ) وفى قوله :﴿الْكِتَابَ ﴾ وقوله : (بِالْحَقِّ) تعظيم لقدر الكتاب وقدر من أنزل عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ كمـــا قـــال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[1] فعظمه بنسبته إلى ذاته العليــة وإسناد الفعل إلى (إِنَّا) التى تفيد العظمة الكبرى، وبالكناية عنه بالهاء التى تدل على أنه معلوم للقلوب، فكذلك فى هذه الآية .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

يخبرنا سبحانه أن اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى القرآن أهل فريــة وضلال، و(اخْتَلَفُوا) من الخلاف، لأنهم قبحهم الله فى شـــقاق بينـــهم، فتـــرى

(١) سورة القدر آية ١

اليهوديكذبون النصارى ويرمون المسيح بأنه ابن زنا . وترى كل طائفـــة منـــهم منشقة، فترى اليهود انشق بعضهم على بعض فمنهم من يسب الأنبياء ويـــرميهم بمالايليق بمقامهم العلى، ومنهم من قتل الأنبياء ومنهم من قدس الأنبيـــاء واتخـــذوا عزيراً ابناً لله . وترى النصارى أكثر شقاقاً على بعض لأن البعض يقدس المســـيح ويجعله إلها وغيرهم يقدسه ويجعله ابن الله، وآخرون منهم يقولـــون الله حـــل فى المسيح، وبعضهم يقدس مريم، وقد انشق بعضهم على بعض فى هذه الأيام حـــتى جرت الدماء أنهاراً بين أهل كل مذهب . وقوم هذا حالهم فيما بينـــهم، كيـــف يصدقون فى الحكم على غيرهم ؟

ففى قوله : ﴿ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾حجة قاطعة على افترائهم وكـــذبهم . وبعدهم عن الحق، وفساد عقيدهم وآرائهم ومذاهبهم، وحكم على من يأخذ منهم أوعنهم أنه أضل من البهائم الراتعة . وكأن قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّـــهَ ﴾ إلخ الآية جواب لسؤال مقدر تقديره: لم ذلك الانتقام الشديد الذى هو : (مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ) إلخ الآية ؟ والجواب : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِـــالْحَقِّ ﴾. وفى قوله : ﴿ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أيضا على تأويل أن الكتاب هو القرآن وأنهم انشقوا على بعضهم فى القرآن، فقال بعضهم : إنه سحر، وقـــال غيرهـــم : إنـــه أساطير الأولين، وقالوا : افتراه، وقالوا : إنما يعلمه بشر . وكل هذا الشقاق بعيـــد عن الحقيقة . وجائز تأويل من أول : ﴿ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ ﴾ أن يكون معـــنى اختلفوا أنهم أتوا خلفا بعد سلف منشقين على بعضهم بدليل قولـــه ســـبحانه : (﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[1] ويكون المراد بالكتاب التوراة والإنجيـــل بالنســـبة

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠

لليهود والنصارى من بنى إسرائيل الذين كانوا من قبل رسول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾، والقرآن بالنسبة لمعاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

قوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(١٧٧)

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾

بعد أن بين الله تعالى التوحيد والنبوة بالحجج الدامغة، بين أحكام الحلال والحرام المتعلقة بما يستعمله الإنسان لطعامه، ثم أورد الآيات القاطعـــةلقهر أهـــل البهتان من اليهود والنصارى زيادة بيان بعد أن بين ذلك فى أول السورة، ثم بـــين سبحانه وتعالى مايجب على الإنسان القيام به لخالقه ومبدعه .

وسبب نزول هذه الآية أن المسلمين لما حول الله سبحانه القبلة إلى الكعبة فرحوا جداً واهتموا بأمر الصلاة اهتماماً حصرهمتهم فيها، فبين الله لنـــا أنـــواع العبادات التى يحبها بعد أن نفى ماكانوا يعتقدون من حصر البر فى الصلاة لعنايتهم بها وبين بقية أنواع البر الحقيقى الأخرى .

وجائز أن يكون سبب نزول هذه الآية الفتنة التى قام بها اليهود بعد أمر الله تعالى بتحويل وجوهنا إلى الكعبة فى الصلاة ونسخ الحكم الأول من التوجه إلى بيت المقدس، وقد بينا ذلك فيما سبق فأكبتهم الله تعالى بما قصم به ظهورهم وهو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ فقط حتى فتحتم أبواب الفتن على المسلمين . وتأويل : ا﴿ لَيْسَ الْبِرَّ﴾ أى نفى البر عمن جعل تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب فى الصلاة هو البر فقط دون غيره وقد قرئت لفظة البر بالنصب والرفع بجعلها اسما لليس أو خبراً مقدماً. وقرئت بفتح الباء بمعنى الإنسان البار حتى يطابق الخبر الاسم .

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

أثبت الله البر بجميع أنواعه ليبين لنا سبحانه أن من ترك نوعاً منها حكم عليه أنه لم يقم بما أمره الله به ،فإن ترك ماترك مبيحاً فذلك كفر، ومن تركه عاجزاً فلاإثم عليه، ومن تركه مقصرا فأمره إلى الله تعالى إن شاء عذب وإن شاء غفر، والذى يجب أن يعقد المؤمن عليه قلبه أن ترك فريضة من فرائض الله مبيحا يعتبر خروجا من الإسلام بدليل قوله ﴿ ﷺ وآله﴾: (تَارِكُ الصَّلاَةِ مَلْعُونٌ وَمَنْ رَضِيَ بِهِ مَلْعُونٌ) وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٧

(٢) سورة التوبة آية ٢٩

وقد جرت هذه الآية بذيلها كل من ترك فريضة من فرائض الله تعــالى متأولا أو متساهلاً، فإن التأول لايبلغ مبلغ تحريم ماأحله الله أو إحلال ماحرمه الله ولاترك فريضة فرضها الله، إنما التأويل يكون فيما خفى أمــره علــى العلمــاء . والاستدراك هنا (لَكِنَّ) من الحكم الأول الذى نفاه الله تعالى وهو أن البر توليــة الوجوه قبل المشرق والمغرب ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ ﴾ خبر لكن محذوف، وهــو : ولكن البر بر من آمن بالله كما يقول العرب : الكرم حاتم والشــجاعة عنتــرة، والقراءة أبى، والحكمة على، والعدل عمر، بمعنى أن القراءة قراءة أبى . والحكمــة حكمة على، والعدل عدل عمر، وكذلك ولكن البر بر من آمن .

وذكر أركان الإيمان وهى أن يؤمن بالله أى يصدقه سبحانه كما أخــبر عن نفسه بقوله : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ وبما وصف به نفسه. ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ هو يوم القيامة، وقد أخبرنا الله تعالى عنه فى القــرآن وبينه لنا ﴿ ﷺ وآله﴾، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٢) ويوم القيامة يفتــتح بقيام الناس من قبورهم، فحشرهم إلى المحشر، فوقوفهم إلى الحساب، ثم انصــراف كل فريق إلى ما سبق له فى علم الله إما إلى جنة ونعيم دائم وإما إلى نار وعــذاب دائم . والذى يميز الكافر من المؤمن هو الإيمان بيوم القيامة فمن آمن بها رغــب فى نعيمها فأقبل على طاعة الله، ومن لم يؤمن بها أو نسيها أقبل على هواه وحظه فمال إلى ما يلائم نفسه الأمارة بالسوء فخسر الدنيا والآخرة قال تعالى : ا﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ

(١) سورة البقرة آية ٢٨١

(٢) سورة المعارج آية ٤

نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾[1] وقد شرحت فى كتاب : (النشأة الثانية) حقيقة هذا اليوم الآخر وما أعده الله فيه لأهل الإيمان به من النعيم المقيم، ولأهل الكفر به من العذاب الأليم، فليراجعه طالب المزيد .

﴿وَالْمَلائِكَةِ ﴾

الملائكة كما بينتهم الشريعة هم أرواح نورانية وهم أنواع : منها عُمـــَّار السماوات، ومنها من وكلهم الله بحساب ا لعبد فى القبر أو بكتابة سيئاته وحسناته عليه، ومنها الذين يقبضون أرواح الناس . ولفظ ملك فى اللغة مـــدلولها رســـالة والفعل منها ألك أولأك، والاسم منها مألك أوملأك . وفى قولهم ملـــك بحـــذف الهمزة منه بمعنى رسالة . وهناك أرواح عالية فوق الملائكة وهم عُمـــَّار وعـــاليين عاليين وأعلى عليين، فيهم الآلهون فى جلال الله تعالى والكروبيون من عظمة جلاله سبحانه، ومنهم أنواع لم تعلم بتصريح الشريعة، قال تعالى فى ذكر الرسل : ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[2] إنما يصل إلينا العلم بهم عـــن طريق الكشف والإلهام .

وإنما الشريعة صراط الله المضروب بين الله تعالى وبين خلقه، يحفظ الله من هداه إلى صراطه المستقيم من سوء الأدب معه سبحانه، فإن كثير من السالكين إذا أضعفوا قواهم البشرية بفادح المجاهدة والرياضة و لم يكونوا محصنين باتباع المرشـــد الكامل تشرق عليهم أنوار من عالم الملكوت الأعلى تضيق عنها مواعينهم وتطيش منها عقولهم، فيعروهم شيء من الجنون يجعل إبليس اللعين يتسرب إل قلوبهم مـــن

(١) سورة الجاثية آية٣٤

(٢) سورة غافر آية ٧٨

حيث لا يعلمون فيفسد عليهم أحوالهم العلية، لأن الأحوال العليـــة لا تكـــون إلا بآداب سنية ، فيشطح من وقع فى قبضة إبليس شطحا يفسد بـــه عقائـــد أتباعـــه وآدابهم . وقد يعينهم عل ذلك وجود علماء بالأحكام جهلاء بالحاكم جل جلاله، لا يعلمون الآدب مع الله تعالى ولا علم أمراض النفوس وعلاجها، فيحصل الجدل الذى حرمه الله تعالى عل السالكين، قال سبحانه : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلًا بَـــلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (١) فإن الجدل ينتج عنادا وكفرا .

والحقيقة أننا جماعة المسلمين : الله ربنا ومحمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ رسول ربنا إلينا، والقرآن كتابنا، والكعبة قبلتنا، وطلب العلم فريضة علينا . فالإســـلام ديـــن التوحيد فى كل شيء ، فمن أين حل الجدل والعناد إلا من أمرين عظيمين ؟ الاول : الجهل، والثانى : الطمع . وكل من خالف الكتاب و السنة وادعى أنه عالم فهو كاذب لأنه علمه الذى حصله ولو كان أمثال الجبال يكون حجه عليه يوم القيامة، وكل عالم لم يعمل بعلمه فهو من رعايا إبليس وإنما العلم الحقيقى مـــا أكســـب القلوب الخشية، وهو ما يعلمه الله لمن اجتباهم من خلقه بأن يشـــرح صـــدورهم لصحبة أهل العلم به فيعلمهم الله ما لم يكونوا يعلمون . قال تعالى : (وَاتَّقُوا اللَّـــهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) (٢) وقال سبحانه ا﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٣) وعلم لا يكسب صاحبة الخشية سلسلة تجر المدعى على الله الكذب إلى نار جهنم . وقد شنع الله على من كتموا ما أنزل الله من الكتاب ممن حصلوا علـــم الكتـــاب و لم يعملوا به .

(١) سورة الزخرف آية ٥٨

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٢

(٣) سورة فاطر آية ٢٨

﴿ وَالْكِتَابِ ﴾

المراد بالكتاب هنا والله أعلم هو القرآن، لأن اليهود والنصارى إنما حكم عليهم بالكفر لانهم لم يؤمنوا بالكتاب الذى أنزله الله على محمـــد ﴿ ﷺ وآلــه﴾ مهيمنا على ما أنزله الله من الكتب على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والســـلام، وهو الكتاب الذى جمع الله تعالى فيه الخير كله لخلقه من بنى الإنسان وهو كلام الله القديم الأزلى النضر الذى لا يمل والكتر الذى جمع الله فيه غذاء الأرواح والعقـــول والأشباح بين لنا فيه الغيب المصون الذى يجب أن نؤمن به، وفصل ما يتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع المدنى والمجتمع العام من أول وضع النطفة فى الرحم إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، لا تحصى العلماء بالله آياته علمـــا بأســـراره ولا تستقصى أسرار حكمه وحكمه . لا يحدث حدث فى أى زمان ولا فى أى مكـــان ولا فى أى شأن إلا وفيه بيان ذلك مفصلا، والحكم فيه مؤيدا يعلـــم ذلـــك مـــن استحفظوا من كتاب الله وأقامهم الله أمناء عليه . ويستنبط الحكـــم علـــى كـــل الأحداث الزمنية أهل الاستنباط من المجتهدين الذين علمهم الله بعـــد أن وفقهـــم للتقوى .

وما خالفت امه أحكام هذا الكتاب إلا جللت بالذل والخزى فى الـــدنيا كما تراه الآن فى الأمم التى خالفت كتاب الله وسنه رسول الله، فأذلهم الله عل يد أهل الكفر به فاستعبدوهم فوق أرض بلادهم وتحت سمائهم . قال ﴿ ﷺ وآله﴾: قال الله تعالى : (إِذاَ عَصاَنِى مَنْ عَرَفَنِى سَلَّطْتُ عَلَيهِ مَنْ لَمْ يَعرِفْنِى) وقـــال أبـــو هريرة : (إِنَّمَا يَسْعدُ آخِرُ هَذِهِ الأَمِة بِماَ سَعِد بِهِ أَوَّلُهاَ) وقال تعالى : ﴿ وَذَكِّـــرْ

فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] أسأل الله أن يمنحنا ذكرى ما كان عليه سلفنا الصالح من التمكين فى الأرض بالحق، مع ما كانوا عليه من القلة والفاقه ونحن الآن أكثر من أربعمائة مليون مسلم ولا تساوى همتنا همة بلال بن حمامة رضي الله عنه.

﴿ وَالنَّبِيِّينَ ﴾

النبى مأخوذ من النبوة أو من النبأ لغة، فالنبوة تفيد الارتفاع والنبأ هنا الخبر الصادق والنبى شرعا هو إنسان ذكر حر بالغ أوحى الله إليه بشرع يعمل به فى خاصة نفسه، فإن أمره الله أن يبلغه لغيره فهو الرسول والأنبياء هم صفوة الله من خلقه الذين زكى الله نفوسهم فظهرت من ملابسة المادة ومن شوب الحظ والهوى، حتى رسمت على جواهرها صور المعلومات الحقة من بدائع إبداع آيات الله ومن غرائب حكمته وعجائب قدرته

والرسل هم الذين عصمهم الله من الكبائر والصغائر المشينة، فلايتتزهون عما تقتضيه البشرية من أكل وشرب وقضاء حاجات الإنسان من نكاح ونوم وصحة وسقم وفرح وحزن ووفقر وغنى مما لاينقص المكانة البشرية، ولكنهم عصموا من أن ينسب إليهم أو يقع منهم مايغضب الله تعالى عليهم من كذب عليه سبحانه أو كتم ماأمرهم بتبليغه أو مأأشبه ذلك

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ﴾

فى هذه الآية ميزان الفضائل ومعرفة مقدار جواهر النفوس، فإن المال قد يكون أعز من النفس عند بعض الناس، لأن الهرج والمرج والمنازعة والفتن العمياء

(١) سورة الذاريات آية ٥٥

التى تزهق فيها النفس سببها المال والحرص عليه، ولاتجد فتنة فى الأرض بين أفـــراد أسرة واحدة أو بين مجتمع واحد فى مدينة أو بين الدول وبعضها إلا وسببها المال . لذلك فإن الله سبحانه بين فيه البيان كل البيان فيما كان من ميراث أو غنيمـــة أو تجارة أو زراعة أو صناعة، ولم يذكر في كتب الشريعة ذنب للهوى والطمـــع إلا والمال سببه، ذلك لأن وجود المال يطغى الإنسان قال تعالى : ﴿كَلا إِنَّ الْإِنْسَـــانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (١)

ولما كان للمال هذا المقدار فى قلوب المجتمع الإنسانى، ولم يحفظ الله تعالى من شر المال إلامن حفظهم من فتنه وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام وورثتهم، لذلك بين الله تعالى فى المال الحقوق الواجبة على من أغناهم الله فقال سبحانه : (وَآتَى الْمَالَ) أى أنفقه بشرط أن يكون المال محبوبا له لشبابه وطمعه فى الحياه مع الضرورة إليه كما قال سبحانه : (عَلَى حُبِّهِ) أى على حب المال، وحبه مبين بمـــا بينت لك.

ثم ذكر سبحانه الوجوه التى ينفق فيها المال بقوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ﴾

وابتدأ بذوى القربى لأن منحهم المال يقربك من الله تعالى لأنك تصدقت ووصلت رحمك بعمل واحد، و(ذَوِي الْقُرْبَى) من كانت قرابته بنسب والـــديك أو جديك، وأول مايتقرب به العبد من المال بذله لذوى القربى ليقيم الحجة أن قلبه مجمل بالرحمة لصلته لرحمه . (وَالْيَتَامَى) ذكر الله اليتامى بعد ذوى القـــربى لأن اليتيم جمله الله بذل ومهانة لاينظر إليه ناظر إلا رحمه، فكان فى المترلة الثانية بعـــد

(١) سورة الفلق آية ٦ -٧

ذوى القربى . والذى يعطف على اليتيم يكرمه الله فى حياته ويكرمه يوم القيامـــة ويكرمه فى أولاده بعد موته . واليتيم فى بنى الإنسان من مات أبوه، وفى الحيوانات من ماتت أمه لاحتياجه للعناية و قد يحتاج من ماتت أمه من بنى الإنسان إلى العناية أكثر ممن ماتت أمه من الحيوانات إذا كان أبوه فقيرا أو قاسى القلب واليتيم عنـــد السالكين هو من لامرشد له يزكى نفسه بالعلوم والرياضيات المشروعة، ويبين لـــه فى سيره سبل الله تعالى حتى ينجو من عذاب الله ويفوز برضوانه وهو أحـــق وأولى بالرحمة . ﴿ **وَالْمَسَاكِينَ** ﴾

المسكين من أسكنه الفقر إلى الأرض، كما أن الفقير من كسرالفقر فقارة ظهره . ولك أن تقول : المسكين من لامعلوم له يسد به ضروراته، والمساكين جمع مسكين، وإعطاء المال للمساكين برهان على أن المعطى جمله اله بالعطف والرأفـــة والرحمة وخلّقه بأخلاقه الكريمة .

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ هو المهاجر أو المسافر فى طاعة كطالب العلم والمجاهـــد فى سبيل الله والحاج والماشى فى مناكب الأرض لتحصيل ضرورياته . ﴿ وَالسَّائِلِينَ ﴾) السائل هو من أحوجته الضرورة لفقد عضو أو لضياع مال أو لدين فادح فلم يجد بداً من استجداء مافى أيدى الناس، ومثل هذا إن كان صادقا فى دعواه فإغاثته تلبية لله تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أى وفى فك الرقاب، وظـــاهر اللفـــظ يعـــين المكاتبين أى أن المال يعطى فى فك رقبة المكاتب من الأرقاء، وقد تأول بعضـــهم هذه الآية بفك الأسير والغريم لأن الرقبة مأخوذة من الرقابة وهى مـــؤخر العنـــق،

والمكاتب أو الأسير والغريم والمقيم فى أرض الحرب محتاجون إلى فك رقبتــهم وإن كانت فى المكاتب أظهر.

بين الله لنا الأنواع التى طلب الله منا إيتاء المال فيها بعد إيتاء الزكـــاة فأعلمنــا سبحانه وتعالى أن فى المال حقاً غير الزكاة على المؤمنين ولإخوتهم المــذكورين فى هذه الآية . وفهم بعضهم أن المال ليس فيه حق إلا الزكاة تسامح، وإلا فكل مابينه الله فى تلك الآية حق فى المال غير الزكاة . وقد وردت أحاديث كثيرة تدل علـــى هذا بسند الإمام بن جرير، قال : " قَاَلَت فَاطِمةُ بِنتُ قَيْسٍ : ياَ رِسُـــولَ اللهِ إِنَّ لِى سَبْعينَ مِثْقَالاً مِن ذَهَبٍ، فَقَاَلَ صَلىَّ اللهُ عَلَيْه وَسَلَم : اجْعَليهاَ فِى قَرَابَتكِ " وبه إليه قال: عن فاطمة بنت قيس أنها سمعته يقول : تعنى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ " إنَّ فى المال لحقا سِوَى الزَّكَاةِ " وبه إليه قال مزاحم بن زفر كنت جالسا عن عطاء فأتاه أعرابى فقال له : إن لى إبلا فهل علىَّ فيها حق بعد الصدقة ؟ قال : نعم، قـــال : ماذا ؟ قال : (عارية الدلو وطروق الفحل والحلب) وســئل رســول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾: (أى الصدقة أفضل ؟ قال جهد المقل على ذى القرابة الكاشح) وفى المال حق الضيف وإن دخل فى ابن السبيل . وهنا يجب علينا أن نبين لأهل الثراء مايجب عليهم فى أموالهم .

علوم أن الله تعالى ابتلى عباده ببلايا مختلفة امتحانا لقلوبهم ولإيمانهم، ومن أشد الابتلآء وفرة المال والعافية والأولاد ونفوذ الكلمة والجاه، فمن حفظ الله فيما أنعم به عليه فأعان بماله من ذكرهم الله فى تلك الآيـــة ونفـــع بجاهـــه الضـــعفاء والمظلومين وبعلمه أهل الجهل الطالبين للعلم وأدخل السرور على قلوب عبـــاد الله بتيسير حوائجهم كتبه الله أمينا عنده، وجعله كتر غنى وعلم فى الدنيا، وقبله عنده

يوم القيامة ومن بخل بشيء من تلك الخيرا ت على مستحقها سلب الله منه النعمة وعذبه يوم القيامة، بل وكل من عصى الله بنعمة من نعمه عليه سلب الله عنه وعذبه بها يوم القيامة، وقد ورد بأن فى المال حقاً سوى الزكاة بدليل : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾

﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾

وقد بينا فيما سبق معنى إقامة الصلاة، ولا نخلى كتابنا هذا من مزيد بيان. قالوا : قامت السوق أى راجت ونال أهلها ما يسرهم، فإقامة الصلاة رعاية المصلى الأدب مع الله تعالى فى حال قيامه بعبادته، ولا يكمل الأدب إلا إذا صلى بقلبه وروحه وجوارحه المجترحة حتى يكون العبد فى صلاته حاضرا مع الله تعالى حضور خشوع ورهبة ورغبة وخوف ورجاء، متبرئا من حوله وقوته، قائما بقيوم، ملاحظا جماله العبدى أمام ربه القوى، خاشع القلب والجسم، يتلقى بقلبه عن ربه ما يورده عليه سبحانه حال مواجهته، متشبها برسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فى كل الأعمال القلبية والجسمانية من نية وقول وعمل، مع المحافظة على أوقاتها ووسائلها وأركانها ومع المداومة والاستمرار عليها . " وَآتَى الزَّكَاةَ " وهو إخراج القدر المعلوم شرعا من مال توفرت فيه شروط النصاب ومضى الحول، وفى صاحبه البلوغ والعقل والإسلام فإن صاحب المال لايكلف بالزكاة ولكن يكلف بها وصيه فى حال صغره وجنونه، وقد بين القرآن المجيد الأنواع التى يجب ويحق أخذ الزكاة منها وتارك الزكاة كتارك الحج والصلاة، وتفصيل ذلك يأتى بعد تأويل الآى المتضمنة ذلك .

﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾

الجملة معطوفة بواو المدح على قوله تعالى : ﴿وَآتَى الْمَالَ ﴾ وإن فصل بينهما : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾

فإن ذلك من فصيح اللغة، وجائز أن تقول والموفين بالنصب على المدح. والعهد أنواع، وعهد الله ماعاهدنا عليه فى يوم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [(١)] وفيما أنزله الله على رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقبلناه بالسمع والطاعة من أوامره تعالى ونواهيه جلت ذاته، وعهد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ماعاهدنا عليه من العمل بسنته ونصرته ﴿ ﷺ وآله﴾ ومن تجديد مااندرس من معالم السـنة المطهـرة، وعهـد الوالدين أن نبرهما ونصل الرحم الماسة بهما، والعهود التى علينا فى معاملاتنا بعضنا لبعض فى مبادلاتنا ومعاوضتنا . فالموفون بعهدهم هنا هم الذين اجتباهم الله لأن يكونوا عباده المخلصين . ولاوفاء بالعهد إلا بعد العلم والعلم أولا وبالذات بالنفس لأنه ينتج العلم بالرب جل جلاله . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " من عرف نفسه فقد عرف ربه " والعلم بالله بعد ذلك يكون بالأدب مع الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، ومجاهدة النفس فى ذاته تعالى ليقوم بالوفاء بالعهود التى ذكرنا أنواعها، ومن وفى الله بما عاهد وفى الله له ما وعد و الوفاء بالعهد ميزان جوهر النفس فإن الله خلق نفوسا من نور جماله وهى النفوس التى زكاها فأفلحت قال تعالى : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[(٢)]

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ أما لفظة (إِذَا) فهى ظـرف للزمـان المستقبل، والمعاهدة هى المفاعلة بين اثنين . يعنى إذا حصل بينهم وبين الله عهد أو

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢

(٢) سورة النجم آية ٣٢

بينهم وبين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أوبينهم وبين من لهم ملابسة بهم فى معاملة أو مصاهرة أو غير ذلك .

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾

قد بينا معنى الصبر فيما سبق . أما البأساء فـالفقر المـدقع ومأأشـبهه، والضراء المرض المفجع ومأأشبهه،وهما.

على وزن فعلاء من اسم لايصاغ منه اسم التفضيل .

﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ يعنى حين الهرج والمرج وإهراق الدماء بالحروب . هنا يثنى الله تعالى على من جملهم بالصبر، والصبر هو سرور النفس بما يؤلم فى طاعة الله تعالى ولذلك فإن الصبر لايكون إلا فى البأساء والضراء وحين البأس وماعدا تلـك المراتب فليس بصبر . وفى الحديث بسند البخارى فى كتابه : (الأدب المفرد) قال ﴿ ﷺ وآله﴾: " من شكا لمؤمن فقد شكا لله ورسوله ومن شكا لكافر فقد شكا الله ورسوله " وكفى بالصبر شرفا أن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَـعَ الصَّـابِرِينَ ﴾(1) ورجل بتحمله تعبا فى طاعة الله يكون الله تعالى معه، من الذى يسـاويه فى العالم ؟ إلا من كان عند ربه لانكسار قلبه أو عند الله .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾

حكم من الله تعالى لمن أثنى عليهم بالصفات التى تقدمت فى هذه الآيـة بقوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أى هؤلاء الذين جملتهم بما أحبه مـن

---

(1) سورة البقرة آية ١٥٣

الصفات هم الذين صدقوا . أى سارعوا إلى القيام بماأمرت، والبعد عما نهيت بصدق أى بقلب، لأن الصدق من أعمال القلوب التى متى تحمل بها القلب كان العبد صادقاً فى قوله صادقاً فى أعماله صادقا أحواله . ومتى أخبرنا الله عنه أنه صادق كتب عنده صديقاً ومن كتبه الله تعالى صديقاً رفعه إلى منازل الأنبياء قال تعالى مثنيا عليهم : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾[1]

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

أى أن هؤلاء هم المتقون. والتقوى شدة الخوف من الله لأنها تنتج دوام المراقبة له سبحانه، وتجعل التقى يتوقى الوقوع فيما يكرهه الله تعالى وقاية تجعله حاضراً مع الله، مشاهداً جلاله العلى وعظمته وكبرياءه طامعاً فى جماله حتى يكون وسطاً وبذلك تتحقق التقوى، فلا خوفه يوقعه فى اليأس والقنوط من رحمة الله، ولا طمعه يجعله يتعدى جانب الخوف . وهذه البشرى من الله تعالى فى الحياة الدنيا هى ماأخبرنا الله بها بقوله تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾[2] وللخبر من الله تعالى قدره فى قلوب أهل الإيمان به سبحانه .

قوله تعالى :ا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ

(١) سورة الحديد آية ١٩

(٢) سورة يونس آية ٦٤

ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧٩)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾

بعد أن بين الله تعالى أنواع البر فى المال وفى العبادات والأخلاق بياناً كشف الحجاب عن تلك الحقائق التى بعلمها والعمل بهايكون العالم العامل صادقاً تقياً عند الله تعالى، أخذ سبحانه يبين لنا الأحكام فى الجنايات الكبرى بياناً يكون بعلمه والعمل به النجاة من سوء الجزاء يوم القيامة، لأن الحدود جوابر على المتعمد . وسبب نزول هذه الآية نسخ ماكان عليه الأمم قبلنا من التشديد والتضييق بحكم تعم به الرحمة والإصلاح العام . ولمحو ماكان عليه الجاهلية من الظلم والتظالم فى القتل . وكان الحكم فى القتلى عند اليهود أن يقاد القاتل فيقتل كما قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾(١) وكان الحكم عند النصارى العفو كما قال فى الإنجيل : (من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر) . أما أعمال الجاهلية فكان الحكم فيها مراعاة قوم المقتول قوة وضعفاً فإن كان المقتول من قوم أقوياء قتلوا به عدداً كثيراً ولو كان عبداً منهم قتلوا به حراً ويقتلون بالمرأة الرجل، وقصة كليب الذى قتله بنو بكر بن وائل مشهورة فإن قومه أهلكوا القبيلة به تقريبا .

فمحا الله هذا الظلم ونسخ ماكان عليه اليهود والنصارى، وحكم علينا سبحانه أن يكون القصاص فى القتلى كما بين سبحانه الحر بالحر من غيرزيادة،

(١) سورة المائدة آية ٤٥

والعبد بالعبد من غير تجاوز إلى غيره والأنثى بالأنثى، فكان الفرض الذى كتبه الله علينا أن لانتعدى فى القصاص القتل فقط، ثم وسع لنا بعد ذلك رحمة بنا وصفاء لقلوبنا وهو أرحم الراحمين .

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾

أى من ولى المقتول بأن عفاعنه أن يقتله وقبل منه الدية " مِنْ أَخِيهِ " شفاء لكلوم القلوب فجعل ولى المقتول أخاً للقاتل وفى هذا الأسلوب الحكيم كمال اللطف بنا كما قال هارون لموسى فى وقت شدة غضب موسى لله : ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾(١) فحلت الكلمة من قلب موسى محل العطف والرحمة . والمعنى أن الله يأمرنا أن ولى المقتول له الحق فى أن يقود بقتل القاتل وفى أن يعافيه من القتل ويأخذ الدية، والدية مائة ناقة . ثم أمرنا بحسن المعاملة فى المطالبة والقضاء بأسلوب الحكيم أيضاً تأليفاً للقلوب وشفاء لها من مرض حب الانتقام، ومرض الطمع والحرص على المال من جانب القاتل خصوصاً إذا كان قويا فقال تعالى : " فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ "

﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾

أى فليطلب ولى المقتول المال بالمعروف الذى بسببه يسارع القاتل إلى إرضائه ويدوم بعد ذلك صفاء الإخاء الإسلامى، ثم أمر القاتل بمثل هذا الأسلوب الحكيم فقال تعالى : ﴿ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ وفى تلك الآية من على البلاغة ما يعجز فطاحل الفصحاء فإن قوله (بِالْمَعْرُوفِ) أى بحالة يعرفها أى يألفها الناس

(١) سورة طه آية ٩٤

ويأنسون بها وتلين بها قلوبهم . وفى قوله : ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى مطالبة لا بإلحاح ولا بملازمة كملازمة الغريم، وقوله ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بلطف فى العبارة من غير أن يثير الضغائن ويجدد الأحقاد .

﴿ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ برد وسلام على القلوب الملتهبة بنار الحزن على مافقدت بل شفاء يعيد لها صحتها الأخلاقية، فإن قوله تعالى : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾أى بحالة بالغة فى اللطف وحسن العبارة تنتج الفائدة المنشودة من تلك الرحمة التى تفضل الله بها علينا لتدوم مسرة الإخاء الإسلامى بين جماعة المسلمين .

﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾

أى ذلك الحكم الذى بينه الله تعالى فى هذه الآية من قوله سبحانه : " ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ أنزله الله تعالى ناسخاً لما تقدمه من الأحكام .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ ﴾ أى هو تخفيف من ربكم أى أنه تفضل علينا جماعة المسلمين فوضع عنا ماشدد به على غيرنا من الأمم السابقة تخفيفا علينا، وفراغاً لقلوبنا من عناء الهموم التى تضيق بها القلوب إما بالقتل قوداً أو بقاء نار الحقد فى القلوب، أو بالعفو قهراً وبقاء الغل فى القلوب، فوسع الله لنا فجعل لولى القتيل الحق فى القود قتلاً وفى العفو عن القتل وأخذ الدية وفى العفو مطلقاً من غير دية لبقاء المودة، ودوام صفاء الحياة . وفى قوله تعالى : " **وَرَحْمَةٌ** " أى أى أن الله تعالى جعل تلك الأحكام ورحمة بنا ليفرغ أبداننا وقلوبنا من التربص والعناد

وخوف بعضنا من بعض، فنديم طاعة الله والعمل بمحابه ومراضيه والمســارعة إلى القيام بالخير العام لجميع إخواننا المؤمنين .

﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول الله إن كل ولى للمقتول قتل قاتل وليه أو أخذ منه الدية أو عفا عنه مطلقاً، ثم وقع فى القتل فالحكم عليه القتل قوداً من غير أن تقبل منه ديـــة ولا أن يمنح عفوا وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعنى عذاب مؤلم . ولو قال قائل : إن هذا المعتدى اختفى وقتل خصمه فهل هذا العذاب يكـــون فى الآخـــرة فقط؟ أم يكون فى الدنيا والآخر؟ والجواب أن هذا القاتل اختفى عن الخلق ولكن لم يختف عن الحق، فإنه خالف أمره سبحانه ووقع فى أكبر كبيرة بعد الكفر، والله سبحانه وتعالى يكره الظلم من نفسه وهو رب العالمين فكيف يرضاه من غـــيره ؟ وهو وإن أمهل لايهمل . وهذه الآية يقظة لقلوب الغافلين الذين يظنون أنهم يجدون خلوة فى نفس من الأنفاس، ولا يقول بوجود الخلوة إلا غافل فإن الله يقـــول : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (١) ومن فرح بمعصية الله أحزنه الله ومتى يتحقق الإنسان أنه فى خلوة حتى يفعل مايشاء ؟

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾

يبين الله تعالى حكمة حكم القصاص بأقصر آية عجز فطاحل البلغاء من أصحاب المعلقات على الكعبة أن يأتوا بمثلها . وأفصح كلمة قالوها فى هذا المعنى: (القتل أنفى للقتل) وفى كلمتهم تكرار لفظ القتل، وفيها

(١) سورة الحديد آية ٤

نفصى بيانى وهو أن القتل لايكون أنفى للقتل. وكلمة الله هى العليـــا .
وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾كأنه يبين الحكمة فيقـــول : إنكـــم تركتم القصاص وهو قتل القاتل أحرق الغل القلوب فثارت، فجرت الدماء أنهـــارا بتعطيل حكم القصاص .

ولو قال لنا قائل : القصاص قتل، وكيف تكون فيه الحياة ؟ والجواب : أن مراد الله سبحانه وتعالى الرحمة بالمجتمع الإنسانى فإنك إذا حكمت بحكـــم الله فقتلت القاتل إن لم يعف أولياء المقتول أثلجت صدور من أحرقت قلوبهم نار الغل على من قتل قتيلهم وربما كان بسبب ذلك هرج ومرج يفسد القلـــوب ويفـــرق المجتمع، وهذا معناه والله أعلم، يعنى أن القصاص بقتل القاتل حياة لفئة كثيرة، بل وراحة لقلوب المجتمع المصاب بهذا البلاء، بل وصفاء لهم من الهرج والمرج والفتن .

﴿ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾

يعنى يا أهل العقول التى تعقل عن الله أمره ونهيه وتعلـــم أن أحكـــام الله تعالى أنزلها لمصالح العباد، والله تعالى يخاطب أولياء الأمور وأولياء المقتول وعصـــبة القاتل

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾

تقدم الكلام على معنى (لعل) فى القرآن فإنها أتت على غير بابها اللغوى، وذلك لأن (لعل) للترجى والمترجى يجهل الأمر وقوعاً وعدماً . وتتره الله عن أن يجهل الغيب وأخفى من الغيب فلعل هنا بمعنى اللام وتقدم الكلام على التقوى .

قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْـرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١٨٢)

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾

كتب هنا بمعنى فرض . وقوله : ﴿ حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾أى قارب الموت قرباً لايظن بعده سلامة بأن يكون سقمه يدل على الموت وإن عاش بعده سنة، كما تقول لمن قارب البلد وصلت لأن الموت إذا حضر فى أنفاسه أرتفعت التكاليف.

﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾

﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ مالاً، ولايكون المال خيراً إلا إذا بلغ ألف دينار وقال بعضهم ثلثمائة إلى مافوق، فإن لم يصل المال إلى هذا الحد لم تجب الوصية لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وقال بعض العلماء الوصية واجبة قل المال أو كثر، وإن كان بعض الصحابة إذا حضر الميت وطلب أن يوصى قال له لاوصية لك لأنك ليس عندك خير .

﴿ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ بيان من الله تعالى لعباده ليعلمهم مقدار الوالدين والأقربين وأن الوصية واجبة لهم، ورأى بعض العلماء أن هذه الآية محكمة مع أن الوارث لاوصية له وقد نسختها فى الوالدين آية النساء فى الميراث، وإذن فالوصية واجبة للأقربين . ولو أن الإنسان يوصى بالثلث الثالث للأجانب لوجب

على أوليائه أن يخرجوا ثلثى الثلث للأقارب والثلث للأجانب، وإن كانت الوصية شرعاً تنفذ بنص حكم الموصى ودليل ذلك ماورد فى الآية الآتية والأقربون أنـــواع منهم ماقرابتهم لوالديك أو للجدين ومن فوقهما كل بحسب قرابته وفى تلك الآية بيان مايحبه الله من البر والصلة . وهنا سؤال : هل العلماء لـــو أوصـــى الرجـــل للأجانب عليهم أن يردوا ثلثى الوصية لأولى القربى ؟ قال بعض العلماء أحب إلى أن يوصى للوالدين والأقربين . ولكنى أنفذ ماأوصى به الميت .

﴿ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾

بالمعروف أى يتعارف الناس شرعاً وعقلاً بحيث لو خالف المعقول بـــأن زاد عن الثلث أو أوصى لوارث أو حرم الوارث وأوصى لغيره فسيأتى بيانـــه . (حقا على المتقين) أى متعيناً على أهل التقوى الذين يحكمون بما حكـــم الله بـــه ولايحتاجون إلى من يقهرهم على العمل بحكم الوصية وهؤلاء ينالهم خير الجزاء فى الدنيا والآخرة — أما من منع الوصية حتى قهر على تنفيذها فهذا لاأجر له .

﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ ﴾

يبين الله تعالى عقوبة من يغير ماأوصى به الميت لوالديه وأقاربـــه الـــذين لايرثون بعد موافقة الوصية للشريعة المطهرة بياناً يزعج قلوب الذين يغيرون وصية المورث فيقول : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ ﴾ أى غير ماأوصى به المورث وسمعـــه منه.

﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾

أى عقوبته الشديدة فى الدنيا والآخرة على الذين يبدلونه، أى إثمه واقـــع على الذين يغيرونه من ولىالموصى ومن أعانه من الورثة ، ولا غقوبة على مـــن لم يتدخل بمساعدة أو نصرة لمن غير الورثة وغيرهم، وإن كان العالم بالمعصية الراضى بوقوعها شريكا لعاملها إلا أن العالم الذى لايقدر أن يرد الظالم وينكر هذا العمل بقلبه يغفر الله له لأن هذا أضعف الإيمان . قوله : ﴿ عَلَـــى الَّـــذِينَ يُبَدِّلُونَـــهُ ﴾ والسياق سياق الإضمارأى عليهم بتعظيم العقوبة ولوقعها تأثير على القلوب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

ختم الآية بالخبر عن نفسه أنه سميع عليم مؤكدا ذلك بحرف التوكيـــد، ليتذكر الناسى أو الغافل بفقه هذه الآية الشريفة فتحصل لهما المراقبة التى يحفظهما الله بها من الوقوع فى تغيير الوصايا التى تتعلق بالأيتام وبذى القرابة، وفى تغييرهـــا معصية كبرى لله تعالى لأنها أحكامه سبحانه وفيها حقوق العباد .

﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾

يبين الله لنا فى تلك الأحكام الأجتماعية البيان كل البيان حتى تقوم لـــه الحجة سبحانه على خلقه، وفى رعاية تلك الأحكام سعادة المجتمع الإســـلامى فى الدنيا وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة . وإنما أنزل الله علـــى نبيـــه ﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾ الكتاب لمصالح عباده فى الدنيا والآخرة . وتأويل قوله تعالى : ﴿**فَمَنْ خَافَ مِـــنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا** ﴾ محصور فى معنيين

المعنى الأول : أن يكون الموصى فى حالة الموت وهو يوصى ومعه حـــال الوصية الولى بعده أو أهل الرأى الموثوق بذمتهم، وأراد الموصى لمن بعده أن يجنف

أى يميل فيوصى بأكثر من الثلث، أو يوصى لوارث أو يوصى لغير ذى القربى، أو بإثم فتعدى حدود الله فى الوصية، فأصبح بين الموصى والموصى له فى هذه الحالـــة لاإثم عليه أى لامؤاخذة .

والمعنى الثانى : أن يرى الوالى فى الوصية ميلا أو يعين بوصيته الخوارج أو أماكن إباحة المحرمات، أو إثما بأن يوصى بعمل حرام أو يوصى لغير مسلم أو لبيعة أو لأهل الزندقة والمذاهب فأصلح الوصية بعد موت الموصى

﴿ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أى فلا مؤاخذة عليه . وفى هذا الحكم وجـــوب رد التصرفات المخالفة للشريعة بالضرب على أيدى المبذرين أموالهم فى غير الشريعة .

﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾

الإصلاح بين الموصى والموصى له بعد موت الموصـــى ورد الوصـــية إلى ماأمر الله به، مع بيان الحكمة فى الحكم حتى يقبل الموصى له والورثـــة حكـــم الله تعالى برضاء ليفوزوا بثواب الله تعالى، وإنما يصلح بينهما المقبول الحكم الذى يمكنه تنفيذه مع صفاء القلوب . (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) أى فإن عمله الإصلاح فى حياة الموصى أو بعد موته مما يدل على مخالفته لحكم الوصية من الموصى، فإن نيته وإخلاصه فى عمله تجعل هذا العمل الذى يظهر أنه مخالف للوصية غير مؤاخذ عليه، قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِ امرىء مانوى)

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

معلوم أن الجنف هو الميل خطأ والإثم هو الميل عمدا . ولما كان الموصى قد يخطىء فى الوصية للحالة النفسية عند الموت أو يتعمد الخطأ أيضا، ويقوم المصلح فيصلح الجنف والإثم قبل موته فإن الله يغفر للموصى ويرحم المصلح الذى سعى فى الإصلاح . وكذلك إذا أصلح الولى أو الموصى له الوصية بعد موت الموصى فإن الله يغفر للميت ويرحم الموصى له بسبب ما أبقاه الميت لنفسه من الخير بوصيته بعد الإصلاح . والغفر هو ستر الذنوب وهو أن ينسى الله تعالى الحفظةوينسى جوارح العبد ذنوبه حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب كما ورد فى الحديث . والرحيم هو الذى ينعم بجلائل النعم على عبده فضلا منه أو جزاء له على عمل البر الذى وفقه سبحانه له .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١٨٥)

يبين الله تعالى فى أول هذه الآية أصل الدين الذى من أجله خلق الله السموات والأرض من أول قوله تعالى :﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وأيد هذا الأصل بالبراهين والأدلة اليقينية العقلية والمنطقية بعد تأييدها الأكمل بكلامه سبحانه وهو

الحق الذى يقبله العقل المجرد من الهوى وأقوى دليل قاطع لكل من جعل الله له نوراً فى قلبه، وتأييده بالأدلة المحسوسة بعد الخبر عن وحدانية الله تعالى، وذلـــك بيـــان لأهل العقول السليمة والحس الصحيح وأما من ردهم إلى أسفل ســـافلين المـــادة ولوازمها فإنهم لايقام لهم وزن فى هذا المقام العالى لأنهم أضل من البهائم السائمة، وقد بين الله خبث نفوس من لم يقبلوا بيان الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّـــاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾ إلخ الآية إلى أن أخبرنا سبحانه عما نـــالهم يـــوم القيامة، ثم أخذ جل جلاله يبين للناس ما تفضل به عليهم فى الأرض من الطيبات، وأنه سبحانه أحله لهم ليقوم الإنسان إلى ربه سبحانه فيعبده ولايجحده، ويطيعه فلا يعصيه، ويذكره فلا ينساه ويشكره فلا يكفره

ثم يبين سبحانه نفوس أهل الكفر بالله تعالى العنادية بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ إلخ الآية . فقصم ظهورهم بالحجة البالغة، ثم ضرب مثلا بين لنا فيه حقائق أعداء الله تعالى أنها أضل من البهائم، ثم بين سبحانه أنـــواع البر فيما يتعلق بالعبادة البدنية والمالية والروحانية والأخلاقية مفصلاً، فبين الصـــلآة وتفضل فأخذ يبين الصيام فقال سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾

أى : ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ كُتِبَ عَلَـــيْكُمُ الصِّـــيَامُ ﴾ أى فرض، والصيام لغة مصدر صام وهو الترك، والصيام شرعاً هو الإمساك . ومـــن تدبر الصوم فعلم أن الله تعالى حرم علينا فى الصوم ماأباحه لنا فى الفطـــر، الأمـــر الذى يقتضى البعد بالكلية عما حرمه علينا فى الفطر من صغيرة وكبيرة . فقـــول الفقهاء الإمساك عن شهوتى البطن والفرج يقتضى حبس جميـــع الجـــوارح عـــن

الاستطالة فيما أباحه الله تعالى من الضروريات، فلا يسمع مايكره سماعـــه شـــرعاً ولايتكلم ولايشم ولايمس إل بقدر الضرورة مع مراقبة أنفاس الصوم واستحضـــار أنه صائم .

ومن أمسك عن شهوتى البطن والفرج وتوسع بالجوارح فيما أباحه الله أو تعدى حدود الله تعالى فقد انتهك حرمة الصوم، وفاته من أجر الصيام بقـــدر ماأفرط به جوارحه . وهذا هو الصيام شرعاً

﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

ووجه الشبه جائز أن يكون فى حكم الفريضة فقط، وجائزأن يكون فيها وفى تعيين الزمان والعمل، فإن كان الأول فيكون تعيين زمان صيامنا وبيان مقداره في كل يوم خاصا بنا وهذامايظهر بدليل قوله : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ وبما ورد أن الصيام كان أول فرضة ثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخ بقولـــه تعـــالى :﴿شَـــهْرُ رَمَضَانَ﴾ وبدليل الفدية التى جعلها الله رحمة بنا فى أول عهدنا بالصـــيام بعـــد أن أباح للمريض والمسافر القضاء فى هذه الآية ثم نسخ هذا الحكم بآية قوله تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ) وذكر المريض والمسافر أيضا بيانا للناسخ والمنسوخ .

وإن كان الحكم الثانى هو أن وجه الشبه المطابقة فى كل معانى الصـــيام فيكون الذى فرض علينا هو مافرض على الذين من قبلنا وهو شـــهر رمضـــان . وكان الصائم يترك الأكل والنكاح من صلاة العشاء إلى صلاة العشاء حتى خفف الله عنا بقوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَـــيْطِ

الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [1] وبقوله سبحانه ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [2] إلخ الآية . وقد ورد هذان التأويلان عن الأفراد من الصحابة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أى تتقون من الوقوع فى المفطرات فتنالوا بتقواكم رضوان الله تعالى .

﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾

منصوبة على الظرفية بترع الخافض أو أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أن تصوموا أياماً معدودات وتأولها عطاء أنها صيام ثلآثة أيام من كل شهر بحجة أن الشهر لايقال له أياماً معدودات وقال بعضهم : إن الأيام المعدودات هى شهر رمضان وإن الثلآثة أيام التى كان يصومها ﴿ ﷺ وآله﴾ قبل نزول الآية كانت تطوعاً، وهذا هو الأولى لسياق الآية لأنه يرد نص صريح ولابرهان على أن الله فرض علينا أولا صيام ثلاثة أيام وعليه عمل الأمة سلفا وخلفاً.

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

يبين الله لنا أن المريض الذى لايقوى على الصيام خوفاً من تأخير برء أو زيادة مرض فالحكم أنه يفطر ويقضى عدة الأيام التى أفطرها بعد شفائه . وأن المسافر الذى لايقوى على مشقة السفر يفطر ويقضى عدة الأيام التى أفطرها ملاحظا حرمة الشهر فى بقية الجوارح حتى يكون أهل التقوى الصائمين بكل الجوارح إلا البطن .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾

---

(١)

(٢)

رفع الله تعالى عن المريض وعن المسافر مشقة الصوم رحمة بهما، وخفف عمن افتتحهم بفرض الصيام فرخص لهم فى الفدية عن الصيام حتى نسخ هذا الحكم بالآية التالية . وجائز أن يكون طاق يطيق قام به بسهولة، وأطاق يطيق عسر عليه أى صعب كالشيخ الهرم وكالمرأة الحامل والمرضع إن طال حملها ورضاعها .

وظهر ضعفها، أو كمن لايجد محلة يأوى إليها عند فطره وسحوره حتى يجد، فإن وجد صام بقية الشهر وقضى عدد الأيام التى أفطرها . ويكون حكم هذه الآية لم ينسخ بالنسبة لمن ذكرناهم .

﴿ **فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ** ﴾ الفدية هى مايفديه المفطر بدلاً عن صومه للمسكين طاعة لحكم الله تعالى والفدية هى صاع من بر أو شعير أو طعام . ولفظة فدية مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ ملحوظ أى فحكمه فدية، أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره فعليه فدية .

﴿ **فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ** ﴾

والتطوع هو نوافل البر، والمعنى أن الله يرغبنا فى عمل الخير فى رمضان بأن من أطعم مسكينين عن اليوم أو أكثر كان ذلك تطوعاً منه مقبولا . وقد بشر المتطوعين بأن التطوع خير لهم عند الله، ووعد الله العبد بالخير لاتعلم نفس قدره .

﴿ **وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾

يبين الله تعالى لنا العمل الأفضل لديه بعد أن رخص للمريض والمسافر فى الفطر وكلفهما بالقضاء لأن القضاء يسقط العقوبة . ثم رغبنا فى الأفضـــل فقـــال وصيام المريض والمسافر خير له لينال فضل صيام رمضان فى رمضان . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى تعلمون خير الخيرين فسارعوا إليه وهو الصيام .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾

عين الله لنا زمان فريضةالصوم بعد أن قال سبحانه : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ فشهر رمضان بدل من قول الله تعالى ﴿أياما معدودات ﴾ ولك أن تقول إنه خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ لخبر محذوف، ومعنى شهر : الشهرة . لأن الشهر مواقيـــت لمصالح الناس وقضاء حوائجهم . ومعنى رمضان مأخوذ من الرمضاء التى تـــرمض فيها الفصال من حرارة الصيف وسمى بهذا الإسم لأنه جاء فى زمن الصيف حـــال التسمية . وجائز أن تقول إنه اسم من أسماء الله تعالى . وجائز أن تقول ترمض فيه معاصى العباد أى تزول بالصيام

﴿ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ أى الموصوف بإنزال القرآن أنـــزل نجومـــاً متفرقة فكيف يصح أن يكون أنزل فى رمضان ؟ والجواب : أن القـــرآن نســـخة السفرة الكرام من أم الكتاب ليلة النصف من شعبان إلى ليلة الرابع والعشرين مـــن شهر رمضان وأنزل إلى سماء الدنيا فى الليلة الخامسة والعشرين منـــه . وجـــائز أن يفتح الله إنزال بعضه فى رمضان فيكون كإنزال الكل .

﴿ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾

" هُدًى لِلنَّاسِ " أى بياناً لمافيه سعادة العالم فى دنيـــاهم وأخـــراهم وفى مصالحهم الدنيوية .

﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ أى مبينة للحقائق التى بها تزكية النفوس وتثقيف العقول، وعمارة القلوب بالغيب المصون الذى ترتسم أسراره على جواهر النفوس . وهذا معنى : (مِنَ الْهُدَى) وقوله : ﴿ وَالْفُرْقَانِ ﴾ أى الآيات الفارقـــة بين الحق والباطل فيما يتعلق بالأخلاق والآداب الاجتماعية المترلية وبالمجتمعات فى المدن وبالمجتمع العام الإسلامى، وما يتعلق بذلك من أحكام حتى المعاملات الـــتى تقتضى المعاوضات والمفاوضات وقدينتج منها المعارضات فهذا الفرقان يظهر العدل والميزان.

فهذا الكتاب الذى أنزله الله على نبيه عليه الصلاة والسلام جامع لما يلزم الفرد والمجتمع من عقائد التوحيد ومن عبادة الله تعالى، ومن أخلاق ومعاملات من أول وضع النطفة فى رحم الأم إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . قال على عليه السلام : (لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله) وإنما سعد ســـلف الأمة بالعمل بما أنزله الله على نبيه عليه الصلاة والسلام، وماذل من ذل من الخلف حتى تمكن منهم من كانوا بالأمس عبيدا يباعون فى أسواقهم من بنى الأصـــفر إلا بمخالفة هذا الكتاب المجيد . قال أبو هريرة رضي الله عنه:

(إِنَّمَا يَسْعَدُ آخِرُ هَذِهِ الْأمَّةِ بِماَ سَعد بِهِ أَوَّلُهاَ)

﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾

أى من أدركه الشهر وهو بين أهله فالحكم صيامه . وقد تعينت فريضة صوم رمضان بقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ وبقولـــه ســـبحانه هنـــا : ﴿فَلْيَصُمْهُ ﴾

وفى تلك الآية إشارة روحانية، وهى أن تلقى هذا الكتاب المجيد لا يكون إلا بالروح المجردة من ملابسة مقتضيات الهيكل الإنسانى . وإنما تحجب الروح بميل هذا الهيكل إلى لوازمه الضرورية والكمالية وحرصه على تحصيلها، وبذلك تحجب الروح عن مكاشفة الغيوب بشغل الجوارح فيما يدعو إليه الجسم، فأمرنا الله بصوم الشهر الذى أنزل فيه الكتاب لأن الصيام رياضة تصفو بها النفس فتتلقـــى أســـرار القدس، لأن تلك الأسرار العلية لا تجانس المادة ولوازمها، ففرض الله علينا تزكيـــة النفس بالصيام لتتأهل لقبول تلك الأسرار، ومن هذا نعلم أن السالك إلى الله تعالى يجب أن يجعل له رياضة خاصة بجهاد قاهر يكبح به جماح النفس من الطمع فى غير مطمع مما أباحه الله تعالى لنا، مما يقوى به الدم وتنتفخ به العروق ويجعل الإنســـان كالسبع الضارى لا يتسلى عن مألوفاته، وقد عين الله تعالى زمن الصيام محدودا بعد أن أخبر عنه فى الآية السابقة بأيام معدودات، و لم يرد حكم صريح يعين عـــددها وزمنها إلا هذه الآية .

﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

تقدم تأويلها، و لم تأت هذه الآية هنا تكرارا لأنها بيان وتفســـير للآيـــة السابقة فى التأويل الذى أولناه أن الآية السابقة المراد بها رمضان و لم يـــذكر هنـــا سبحانه : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ عل هذا التأويل ببقائها على حكمها . وقـــد

بينت ذلك محصورا فى الرجل الكهل والمرأة العجوز وفى المرضع والحبلــى كمــا قررنا.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

وقبل أن نكتب تأويل هذة الآية نبين سرا تجب رعايته . يقول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ ﴾ لفظة : ﴿ يُرِيدُ ﴾ هنا ليست من الإرادة الواجبةالوقوع بل هى من الإرادة المحبوبة لله التى هى الأمر، فإن الإرادة قسمان : قسم واجب الوقوع وهــى بمعنى قد وقضى . وإرادة محبوبة وهى ممكنة الوقوع وهى بمعنى أمر ورغب كما قال تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾[(١)] وقال سبحانه : ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ ﴾[(٢)] أى لايأمر الله بالجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، وهنا يأمركم الله بالإفطار فى حالة المرض والسفر تخفيفا عنكم بدليل قولــه تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لأنها لو كانت من الإرادة الواجبــةالوقوع لم يقل تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾

وبهذه الآية يظهر لنا جليا أن الله تعالى يكلفنا بهذه الأحكام ليشق علينا أو يكلفنا مالا نطيق، إنما ذلك لتظهر محبتنا له وإيثارنا لأوامره العلية، وإخلاصنا لذاته سبحانه فى معاملاتنا وعباداتنا وأقوالنا وأحوالنا . قال سبحانه ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(٣)] الآية . ولما سبق فى علمه أنــه ســبحانه

(١) سورة النساء آية ٢٨

(٢) سورة النساء آية ١٤٨

(٣) سورة آل عمران آية ٢٨

وتعالى يظهر الكافرين على المؤمنين امتحانا لقلوبهم وأدبالهم ليرجعوا عن المعاصى والمخالفات، أمر المؤمنين أن لايتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلا أن يتقوا منهم تقاة وهو الخوف من إزهاق النفوس أو هتك الإعراض أو سلب الأموال، وأن نداريهم متحيزين إلى فئة قوية من المؤمنين أو متحرفين لقتالهم، بشرط أن تكون قلوبنا منعقدة على بغضهم ومناوأهم، وعلى انتظار الفرج من الله تعالى، ولذلك يقول سبحانه : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[1] العالمة بأسرار القلوب وأخفى منها .

ولسائل أن يسأل . نحن الآن فى الأمر الواقع وهو أن أعداء الله الكفار جاسوا خلال ديارنا وطعنوا جهرا فى ديننا، وقبل وقوع هذا الواقع فرقوا جمعنا وجعلونا شيعا كل فريق يعادى الآخر حتى أصبحنا حربا على أنفسنا فى كل مجتمع إسلامى، وقد خسرنا دنيانا بما عمله فينا من اخترناهم قادة لنا، فإنهم تركوا العدو يسلب مرافق حياتنا ويطعن فى ديننا وصار همهم الرياسة والزعامة كما نراه ظاهرا فى جزيرة العرب وفى سوريا وفلسطين ومصر وفىبلاد البربر والسودان والهند والصين وفى بلاد اليمن والكرد وغيرها من البلاد الإسلامية، حتى أصبح كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية خارجا بعضه على بعض، بل أصبحت الأسر الإسلامية متفرقة، وصار العلماء مشغولين بنيل الزلفى عند المتسلطين ولاأدل على ذلك من أن كبارعلماء الأمة يقفون على أبواب من بيدهم السلطة من غير المسلمين ويفتخرون بذلك، فما الحكم الشرعى إذن الذى به نجاة المسلمين يوم القيامة من عذاب الله تعالى ؟ الجواب : إن الله تعالى أنزل كتابه المجيد تبيانا لكل شىء وأوجب على سيد رسله العمل به وبيانه بيانا لايحتمل التأويل، وأوجب على كل مسلم طلب العلم حتى يكون على بينة من أمره فى جميع شئونه، وذم الجهل وأهله

(١) سورة آل عمران ٣٠

بقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَـاهِلِينَ ﴾ (١) وقوله تعالى لنوح عليه السلام : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) وقال ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾: (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَلَوْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ وَأَفْتُوكَ) وقال تعـالى : (وَلا تُلْقُـوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (٣) والتهلكة هنا أن يخسر الإنسان دينه بولايـة أعـداء الله تعالى بقلبه وجسمه، والتهلكة أيضا أن يمكنه أن يحفظ قلبه ويتحيـز أو يتحـرف ويكون الحكم مداراقم، فيلقى بنفسه فى القتل .

وهنا إذا عجزنا عن قتل أعداء الله تعالى وطردهم مـن بـلاد إسـلامية نداريهم للسلامة من ضياع النفس والمال حتى نتمكن منهم بالتحيز أو التحـرف . وأما من رضى بولايتهم قلبا وقالبا فليمت على أى دين شاء . وقد أخبرنا الله عنهم بقوله : ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِـكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤)

﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

أمر من الله تعالى بأن نتم الشهر، وإنما إتمامه بينه رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ فى قوله عليه الصلاة والسلام : (صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفطِروُا لِرؤْيَته فَإن غـمَّ عَلَـيْكمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ يَوْماً) وفى رواية (فَاقْدُرُوا له) فإكمال العدة رؤيـة هلال شوال بعد رؤية هلال رمضان وهذا هو كمال العدة .

(١) سورة البقرة آية ٦٧

(٢) سورة هود آية ٤٦

(٣) سورة البقرة آية ١٩٥

(٤) سورة يونس آية ٧-٨

قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ بينت تلك الآية الشريفة وجوب الحمد والشكر للمنعم بقدرتفضله قد ر طاقة العبد، ولما كان الأمر بالصيام والصيام أكمل فضل يتفضل الله به علـــى عبـــاده، لأن العبـــد بصيامه تزكو نفسه فينال الفوز مع الذين بشرهم الله تعالى بقوله : ﴿ قَـــدْ أَفْلَـــحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾"[1] إلخ الآية، خصوصا وأن الأمر بالصيام أنزله الله تعالى بعد أن أخبرنا بأنه أنزل الكتاب فى شهره لتستعد النفس بصفائها لتلقى تلك الأنوار التى بها نيـــل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، بل ومواجهة وجه الله تعالى فى مقعد صـــدق عنـــد مليك مقتدر، وهى السعادة العظمى التى يسعد بها الجسم والحس والعقل والـــروح والنفس، فكان الواجب إذن على كل قوة من القوى الإنسانية أن تقوم لله بالشكر، فيقوم العقل والروح لله بالحمد والثناء الحسن، ويقوم الحس والجسم لله بالشـــكر، فإن الحمد خاص باللسان واللسان ترجمان الجنان، والشكر عمل الجوارح .

قال تعالى : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ أى تحمدوه وتعظمـــوه وتمجدوه بألسنتكم على تلك النعم العظمى . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿عَلَى مَـــا هَدَاكُمْ ﴾ أى ماخصكم به دون غيركم من صيام شهر رمضان الذى فرضه على كل الأمم على التأويل الذى تقدم فضلوا عنه وهدانا الله تعالى إليه وهـــى الحجـــة القائمة منه سبحانه علينا بمحبته لنا وجعلنا خير أمه أخرجت للناس .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى لتشكروا الله على ما جمل به كـــل قـــواكم بصيام شهر رمضان قياما بالواجب له سبحانه وتعالى علينا . والشكر عمل والحمد

---

(١) سورة المؤمنون آية ١

قول . قال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾[1] ولكل جارحة مـــن الجـــوارح شكر، فشكر اللسان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وشكر الأذن الإصغاء إلى النصائح والعلم، وشكر العين النظر بعين العبرة فى تلك الكائنات، وشكر اليـــدين دفع المنكر وبذل الفضل ومساعدة أهل الحاجة وكف الأذى وشكر القلب التحقق بالاعتراف لله بالفضل والمنة وإشعار القلب بالرحمة للعالم، وتصـــريف النوايـــا فى مرضاة الله، وعقده على عقيدة التوحيد التى يتلقاها من القرآن، وشكر البطن الرضا بالقليل من الزاد وحفظ البطن من المحرم والمكروه، وشكر الفرج التوسط فى المباح وعدم النظر بالعينين إلى محرم، وشكر الرجلين الإقدام فى الجهـــاد علـــى العـــدو، واستعمالهما فى طاعة الله تعالى . وهذا هو الشكر لأنه عمل كما قدمنا .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(١٨٦) أُحِلَّ لَكُـــمْ لَيْلَـــةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْـــوَدِ مِـــنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَـــاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١٨٧)

مناسبة ذكر هذه الآية لما قبلها أن إنزال الكتاب والأمر بصـــيام الشـــهر الذى أنزل فيه الكتاب لتزكية النفوس كما سبق، موجبان للتضرع إلى الله تعـــالى والابتهال ولملازمة العبودية بالقنوت والدعاء، وكانت هذه الكمـــالات تقتضـــى

---

(١) سورة سبأ آية ١٣

استشراف الأرواح إلى معرفة أوقات الدعاء وبيان قبوله وكيفيته، ليقوم العبد المنعم عليه بتلك النعم العظمى شاكرا ذاكرا ضارعا، فتفضل الله تعالى وأنزل تلك الآيـــة ليجذب قلوب عباده المؤمنين إلى المسارعة إلى الله تعالى والابتهال استناناً بالرســـل عليهم السلام .

وسبب نزول هذه الآية أن موسى عليه السلام قال : رب هل أنـــت قريـــب فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ فقال الله تعالى : أنا جليس الذاكرين فاذكرني عند كل حال . قال : ياإلهى إن لنا أوقات نقضى فيها حاجاتنا مما لاينبغى أن تذكر فيهـــا قال سبحانه وتعالى اذكرنى فى كل وقت، وسأل أعرابى رسول الله ﴿ﷺ **وآلــه**﴾ فقال : كيف ندعوا ربنا ؟ وقال آخر : يارسول الله هل ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ كما سأل موسى عليه السلام ربه فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

ولسائل أن يسأل فيقول : إنا نرى العباد يســـألون الله كـــثيراً و لم نـــر الاستجابة إلاالقليل . والجواب على ذلك من وجوه .

الوجه الأول : وهو مايتذوقه أهل المعرفة وهو أن لفظة : (عباد) خاصة للمخصوصين فإنها ماوردت فى القرآن إلا لأهل الخصوصية العالية، وعلى هذا فما من عبد من هؤلاء سأل الله تعالى إلا استجاب له، قال تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [(١)] وبهذا لايرد السؤال .

---

(١) سورة الشورى آية ٢٢

الوجه الثانى: أن الدعاء هو العبادة والتضرع إلى الله تعالى والتملق شكراً وخشوعاً بين يديه، فما قام عبد فى هذا المقام إلا واجهه الله تعالى بوجهه ويكـــون الدعاء من العبد دعوة الله تعالى أن يقبل عليه ويقبل منه .

الوجه الثالث : أن الدعاء مستجاب من الله تعالى يعجل ماشاء أن يعجله فى الدنيا ويؤجل ماشاء منه، وقد ورد فى السنة أن المؤمن تعطى له خيرات جـــزاء قربات فيقول رب إنى لم أعمل شيئاً من هذا، فيقول الله تعالى : هذا دعاؤك الذى كنت تدعونى به فى الدنيا أجلته لك، فبقول : ليته أجل جميعه.

ولسائل أن يسأل، الدعاء لافائدة فيه فإن الأمر إن كان قدر فهو واصل إليك من غير دعاء وإن لم يكن قدر فلا يصل ولو مـــلأ العبـــد الأرض دعـــاء . والجواب على هذا : أن الله تعالى يقرر قضاء الحوائج بما قدره من الدعاء فيكـــون الدعاء مقدراً أزلاً لنيل المقاصد .؟ وهنا سأل سائل : هل الكافر يقبل منه الدعاء ؟ - الجواب : إن الله تعالى يخاطب نبيه محمداً ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ولا يسأل سائل الـــنبى عليه الصلاة والسلام إلا وهو مؤمن، وكذلك فإن لفظة عبادى بالإضافة إلى يـــاء المتكلم تبين أن المخصوص بهذا الحكم هم عباده المخصوصون من أهل الإيمان .

ومعنى الآية أن الله سبحانه يخاطب حبيبه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بقولـــه :﴿وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾ يامحمد عبادى من أمتك عنى بقولهم : كيف نسأل ربنا ؟ أو فى أى جهة نسأله ؟ أو هل هو قريب أم بعيد ؟ فبشرهم عنى بأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، والإجابة من الله قبول الطاعات والتوبة ومنح الرضا وإعطاء مقاصدهم وقد أثبت بعض القراء الياء فى دعان وحذفها بعضهم للوصول وهما قراءتان .

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

أجاب واستجاب بمعنى واحد، يكشف الله عنا الحجاب بهذه الآية لنعلم أنه سبحانه وتعالى هو الذى يفتتحنا بالخير، فإنه أثبت هنا أنه قريب ممن يدعوه يجيب دعوته فضلا منه، ثم أمرنا سبحانه بالاستجابة له بقوله تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ والاستجابة هنا هى الأمر بدعائه سبحانه والمسارعة إلى طاعته وشكره سبحانه، لأنه جلت ذاته وهو الغنى عنا المتفضل علينا بالإيجاد والإمداد يجيبنا ويقرب منا برحمته وعطفه وإعانته ولطفه، فنحن الفقراء المضطرون أولى بسرعة الاستجابة له ودوام الخشوع والتبتل، وإنما تكون الاستجابة له فيما دعانا إليه من محابه ومراضيه سبحانه .

﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ إذا كان العطف هنا فيه معنى الترتيب يقتضى أن تكون الاستجابة مؤيدة بيقين قلبى حتى تكون بجميع الجوارح الظاهرة والقوة الباطنة بدليل قوله ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ فإن الإيمان هو التصديق بالقلب، وإن لم تفد الترتيب فذكرها هنا زيادة بيان لما يحبه تعالى من العبد الذى تفضل عليه بإجابته فى دعائه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أى ليرشدوا والرشاد هو صلاح الأمر وإصلاح الحال، أى ليصلح عملهم ويكون مقبولاً ويصلح الله أحوالهم فيكونون سعداء فى الدنيا والآخرة .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ " الآية إلى قوله تعالى " لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الله كتب علينا الصيام كما كتبه على الذين من قبلنا، وكان الصيام أن يترك المسلم الأكل والشرب والجماع بعد أن يأكل أو يجامع قبل النوم من الليل . فإن نام فى الليل حرم عليه الأكل والشرب والجماع إلى الليلة الثانية، وكان بعضهم يصلى المغرب ثم ينصرف من المسجد إلى بيته فيطلب الطعام فتقول له زوجته أنظرنى حتى أعد لك الطعام، وتذهب وتعود له فتجده نائما فيحعليه كل ذلك فيصير طول نهاره متألماً من الجوع والعطش

دخل عمر ليلة على أهله فطلب مباشرتها فقالت إنى نمت فظن أنها مازحة فباشرها، وبعد ذلك بات مغموماً طول ليله حتى توجه صباحاً إلى رسول الله واعتذر إلى الله ورسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قائلا : إنى باشرت أهلى . وفعل ذلك غيره فأنزل الله الآية .

﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ** ﴾

والرفت وإن كان فى اللغة الوقاع والفاحش من القول إلا أن سياق الآية يعين اختصاصه بالجماع، فأحل الله لنا ماكان محرما علينا رحمة منه سبحانه بنا وليلة الصيام ظرف يعنى أن الصائم يباح له أن يباشر زوجته ليلاً .

﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ** ﴾

يعنى أنكم تستروهن وقت الغشيان وهن يسترنكم، وأنتم تلمسون جلودهن وهن يلمس جلودكم كما قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ (١) لأنه يغشى النهار ويستره . وفى هذا السياق غاية بلاغة التعبير الذى — مع دلالته على

(١) سورة النبأ آية ١٠

المعنى بالمطابقة – يدل على احتياج كل واحد إلى الآخر، وأنه خير له ووقاية مـــن مضار كثيرة، كاللباس الذى فضلا عن أنه يستر لابسه فإنه يحفظه من البرد والحـــر ويجعله فى عين غيره مهابا . كذلك الزوجة للزوج والزوج للزوجة من حيث الحفظ من العنت والفحش وغيـــرها .

﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾

يخبرنا الله سبحانه أن لطفه ورحمته بنا لعلمه بما تكنه قلوبنا مـــن خيانـــة أنفسنا، والخيانة هى النقص تؤول هنا بقهر النفس على تحمل مشـــاق الصـــيام أو بالتسامح حتى نتأول تأويلا طباعنا فنقع فيما حرم الله تعـــالى . والله ســـبحانه لم يكلفنا بالصوم ليعجزنا تنزه وتعالى، ولكنه كلفنا لتدوم مراقبتنا له سبحانه وذكرنا واستحضارنا لمعانى صفاته فى أنفسنا وفى الآفاق وفى أعمالنا وأقوالنا وأحوالنا قـــال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ .

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَـــبَ اللَّـــهُ لَكُمْ﴾

أى أرجعكم إلى ماقدره عليكم فى الأزل مما يحبه منكم وتحبونـــه منـــه سبحانه، والعفو هنا قد يكون بمعنى الوسعة . وجائز أن يكون بمعنى المغفرة أى يغفر لكم ما اختنتم فيه أنفسكم مما أوليتموه ووقعتم به فيما حرم الله تعالى كما فعل ابن الخطاب وكعب الأنصارى وغيرهما . وجائز أن يكون للآكل والشـــرب أيضـــا بالتأويل . وجائز أن تكون تلك البشرى من الله لما يراه فى نفسه كل كامل اليقين من التقصير عن القيام بحقوق الله تعالى بمناسبة مقام كل واحد منهم من العلم بالله

سبحانه والحيطة بمعانى تأويل القرآن مستحيلة لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وليس كمثله شىء فى كل شىء .

﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يفصل الله لنا إجمال الآية السابقة من حيث الإحلال، فيقول سبحانه إذا علمتم أننى أحللت لكم ماحرمت عليكم ﴿ فَالْآنَ ﴾ أى بعد هذا الحكم باشروا نساءكم فى الأوقات التى عينتها لكم. ﴿ وَابْتَغُوا ﴾ أى ابتغوا ﴿ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى مابينه لكم . وجائز أن يكون ﴿ ابْتَغُوا ﴾ أى اطلبوا ماكتب الله لكم فى أم الكتاب من الأحكام التى فضلنا بها على الأمم من قبلنا كما قال سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾[1] وقال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[2]

وإنما أخبر الله بتلك الأحكام لحكمة، هى أن نعمل بما عمل به من قبلنا إجابة لله تعالى فى قوله : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ . وثانيا : أن نعتقد عجزنا بأنفسنا عن القيام بما كان يقوم به من قبلنا . وثالثا : نفرح بفضل الله علينا لاختصاصنا بما يدل على محبته لنا سبحانه ولطفه بنا، فيلذ شكره، ويحلو لنا ذكره، ويطيب استحضاره فرحا بما من به علينا .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾

(١) سورة النساء آية ٢٨

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٦ – ١٥٧

الأمر فى الأصل للوجوب إلا إذا أخرجته قرينة إلى الندب أو إلى الإباحة، وهنا يدل بحسب سياق الآية على الإباحة، وقد فهمه بعض أهل المعرفة للوجـــوب فكان يتناول عند السحر جرعة ماء وقضمة طعام، وبعضهم رآه ســـنة مؤكـــدة بحسب فقه الآية .

أما بيان الخيط الأبيض من الأسود : فالخيط الأبيض هو الفجر الصـــادق الذى يبدأ فى ظلام الليل كالخيط الأبيض الممتد من المشرق إلى المغرب . والخـــيط الأسود هو ظلمة الليل . وكان بعض الصحابة يربط على رجله خيطا أبيض وخيطا أسود عملا بظاهر اللفظ من غير أن يتأول، فاذا تميز الأبيض من الأسود ترك الأكل والشرب (مِنَ الْفَجْرِ) من بيانية . والفجر انفجار النور قبل الإسفار كأنه عـــين تضىء من المشرق .

﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْـــتُمْ عَـــاكِفُونَ فِـــي الْمَسَاجِدِ ﴾

أى حافظوا على حرمة الصيام فى النهار من أن تنتـــهك بمفطـــر مـــن المفطرات السبع التى هى خروج الجوارح عن الوسط شرعا والأكـــل والشـــرب والنكاح . وليس بصائم من توسع فى المباح فى نهار رمضان، فإن الله تعالى حـــرم علينا فيه ما أباحه لنا من أكل وشرب، فيتعين علينا أن لانتعدى الضرورى فى بقية الجوارح . وقوله إلى الليل :﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ الليل عند العرب يفتح من غروب الشمس والمساء من زوال الشمس إلى غروبها أى بعد غروب الشمس بقدر مايحصل اليقين . وقد بينت السنة أن مجرد غروب الشمس إفطار للصائم ولـــو لم

يتناول مايفطر . قال ﴿ ﷺ وآله﴾: : إذا غابت الشمس من هاهنا — وأشـــار إلى المغرب — وأقبل الليل من هاهنا . وأشار إلى المشرق فقد أفطر الصائم "

﴿ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِـــي الْمَسَـــاجِدِ ﴾ بـــين الله لنـــا أن الاعتكاف هوعكوف القلب والسر والخفا والأخفى والجوارح المجترحة فى بيت من بيوت الله يصقل قوى النفس حتى يتفرغ القلب من تدبير الجوارح توجهـــا إلى الله تعالى، فينتقس على جوهر النفس الغيب المصون من آيات الله ومعـــانى صـــفاته، وأنوار تلك الصفات وأسرار الأسماء فقد يكرم العبد بصولة التجلى فتلـــوح لـــه حقائق صادقة، وتقتبس روحه التى حجبت عنها شواغل الجوارح وحجب عنـــها الوهم والخيال فواجهت الملكوت أو اللآهوت أوالجبروت أو مافوق ذلـــك ممـــالا يعلمه إلا الله تعالى والراسخون فى العلم .

ونمسك العبارة هنا عن الحكمة فى الأمر بالاعتكاف ونتكلم على الحكم نهانا الله تعالى عن مباشرة النساء فى الاعتكاف والمباشرة هنا الجماع نصا بدليل أن الشريعة رخصت للمعتكف أن يقضى حوائج أهله وأن يراهن ويكلمهن وقد ورد أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ترجل شعر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو فى المعتكف . وبهذا يكون معنى المباشرة الجماع . حظر علينا سبحانه أن نباشر النساء ونحن عاكفون فى المساجد مبينا أن مباشرتهن فى هذا الموقف مفسدة، وقد بينـــت لك رذاذا من حكمة هذا الحكم .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّـــاسِ لَعَلَّهُـــمْ يَتَّقُونَ﴾

الإشارة هنا إلى الأحكام التى أنزلها الله فى تلك الآيات من أول قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ولك أن تقول من قبلها، وحدود الله تعـالى يعنى الفواصل بين الحق والباطل . فمن تعداها وقع فيما حرم الله أو أفسد عمله . وفى ذلك من الجهالة مافيه .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى كما بين أحكامه فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة وبالمعاملة فى أموالنا وبالصلاة والزكاة والصيام، كذلك يبين جميع أحكامه التى بها سعادة المجتمع الإسلامى فى الدنيا والآخـرة : ﴿ يُبَيِّنُ ﴾ أى يوضح ﴿ آيَاتِهِ ﴾ أحكامه المتعلقة بكل الشئون " لِلنَّاسِ " للخلق جميعا لأن دعوة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عامة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى لتحصل لهم التقوى مما بغضب الله تعالى، وقد تقدم معنى التقوى .

قوله تعالى : ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١٨٨)

بعد أن أوضح الله ماوضحه فى أحكام العبادة، أخذ سبحانه يبين مايجب على المسلم لأخيه المسلم فى المعاملة المالية بقوله تعالى :﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾

أى لايأكل بعضكم أموال بعض، فجعل المال كما قال تعالى :﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [١] وفى هذا السياق جواذب عطف من الله تعالى على عباده ليجمعهم على التحابب والتوادد، فجعل مال الآخر هو مالى وحذرنى أن آكل مالى بالباطل

(١) سورة النساء آية ٢٩

فكيف إذا كان المال مال أخى ؟ وصورة أكل مال الأخ بالباطل أن تأخـــذ مـــال أخيك بدون شهود فإذا طالبك به أنكرت وأكلته وأمثال ذلك، فإذا أنكرتـــه أدلى إلى القاضى ومعنى أدلى بها مأخوذة من وضع الدلاء فى الآبار لتكون ســـببا لرفـــع الماء، فكذلك أدلى بها جعل الإدلاء سببا فى أخذها من خصمه . ومعنى : ﴿الْحُكَّامِ﴾ولاة من القضاة وغيرهم . وفى ذلك مافيه لأن القاضى قد يحكم ببراءة المتـــهم فيفرح بحكمه وينسى عذاب الله يوم القيامة . وليس على القاضى إثم لأنه حكـــم بأدلة الشريعة التى توجب عليه أن يقضى بما علم وثبت لديه .

﴿ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أى لتحلوا لأنفسكم بعض أموال الناس . وقولهـــه : ﴿ بِالْـــإِثْمِ ﴾ أى بالباطل وبغير حق شرعى، والحال أنكم تعلمون يقيناً أنه باطل وفى ذلك مافيه من الجرأة على الله تعالى ونقص الإيمان لقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَـــى ﴾ [(١)] وتلك هى الأحكام التى تمتزج بالروح امتزاج النسيم العليل البليل بالنفس فتحـــى القلب .

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّـــاسِ وَالْحَـــجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِـــنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١٨٩)

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾

(١) سورة طه آية ٧

أعجز سياق القرآن فطاحل البلغاء، بل أسجد عقـــولهم بجمـــال لفظـــه وطلآوة تعبيره، فضلا عما تضمنته آياته الشريفة من أسرار الغيوب وآيات الحـــق الجلية فى الأكوان، بل ومابينه من العقائد الحقة بالحجج البالغة والعبـــادات الدالـــة على أن الآمر بها هو الذى أوجد الخلق وأمدهم وتفضل عليهم فـــأمرهم بمحابـــه ومراضيه، ونهاهم عما يغضبه عليهم، وبين لهم ذلك بلســـان رســـول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ وهو منهم .

يقول الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ وكان السائلون يسألون عما يجعلـــها تكمل شهراً وتنقص آخر وتخرج صغيرة ثم تعظم وتـــتغير مواضـــعها ووجههـــا ممالايفيدهم فى دين ولا خلق ولادنيا، فتلطف الله تعالى وأخبرهم بأجمل تفســـير أن الأولى لكم أن تسألوا عن حكمة إيجادها لكم، وسر تجديدها فى كـــل شـــهر فى نظركم لأجيبكم .

﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ فى معاملاتهم وقضاء مصالحهم بينهم وتناول ماهو لهم وتوقيتا للحج والصوم، ولغير ذلك مما أخفاه الله تعالى عن العقول، وأشهده أرواحاً نورانية من حكم هى الطهور المدار على قلوب الأخيار، ومن يتق الله يعلمه الله تعالى تلك الأسرار . وأقل الأمم أسئلة لرسولها هى الأمة الاسلامية، فإن أسئلتهم فى القرآن محصورةفى ثمانية عشر سؤلاًوهذا أولها فى السورة التى تذكر فيها ثمانية أسئلة، وبقية الأسئلة كيسألونك عن الجبال وعن الروح وعن الســـاعة . أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ المتقدم إشارة إلى السؤال عن الذات .

وفى هذا السؤال عن خقيقة الأهلة فأجاب الله السائلين بما ينبغى أن يسألوا عنه حتى يعملوا بتقوى الله تعالى فيعلمهم الله ما لم يكونوا يعلمون .

﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن أهل الجاهلية الأولى كانت لهم أوابد . منها أن الرجل كان إذا خرج لقضاء حاجة فلم تيسر تطير من باب بيته فكان يثقب له ثقبا يدخل منه، أو يضع سلماً يصعد عليه ولايدخل من الباب . وكانوا إذا أحرموا لايدخلون من أبواب البيوت ولكن يدخلون من ظهورها مدة الإحرام، بل كان (الحمس) من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا بيوتهم أبداً، و(الحمس) هم المتعصبون للدين كبنى هاشم وقريش وكندة وكنانة، إلى أن دخل رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من باب بستان حرب فدخل وراءه رجل فقال له ﴿ ﷺ **وآله**﴾ (ارْجِعْ فَإِنَّكَ مُحْرِمٌ) فقال : إنى أدين بدينك وأقتدى بك فدخل فأنزل الله : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾ ثم بين البر بقوله تعالى : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾

أى اعملوا بتقواه فيما بينه سبحانه لكم، واتركوا ماخالف ذلك من عوائد الجاهلية التى من أقواها لديهم الطيرة، لأن الذى يتطير مشرك كما قال تعالى مشنعاً على أمة صالح بقوله : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (1) والمتطيرون ضعفاء الإيمان، والظاهر أنهم مرضوا مرضاً

(١) سورة النمل آية ٤٧

أفسد عليهم عقولهم التى تعقل ما أنزل الله .وتأويل هذه الآية أن الله تعالى بعـــد أن أجابهم عن سؤالهم عن الأهلة بما تقتضيه الحكمة على قدر عقولهم، بين لهم سبحانه ما يناسب حالتهم التى كانوا عليها من التطير ومن عوائدهم فى الإحرام، وأمـــرهم بما يجب فى الحالتين.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هذا الأمر لأهل الإيمان بالله تعالى الذين كانوا يعملون بعمل الجاهلية قبل أن يبين الله بيانه هذا . وتقوى الله هى مراقبته سبحانه فى كل قول وعمـــل . وفى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ما يقتضى فوزهم بكل مقاصدهم، لأن (لَعَلّ) هنا بمعنى اللاّم وهى خير بشرى لأهل الإيمان .

قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـــدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَـــرَامِ حَتَّـــى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(١٩١)

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(١٩٠)

هذه الآية أمر من الله تعالى بالجهاد تخيفا علينا، فإنه شرط ســـبحانه أن لا نقاتل إلا من قاتلنا وهانا عن الاعتداء فى القتال وبعده ثم شدد علينا أن لا نعتدى . وهذه الآية تدل على أنها نسخت بقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَـــا

يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾[1] وفى قوله سبحانه : ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دليل على أن القتـــال لا لا يصح إلا فى سبيل الله حتى ولو كان للإصلاح بين طائفتين من المؤمنين، لأن القتال لم يشرع إلا فى سبيل الله .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لما توجه إلى مكة فى غزوة الحديبية بالعمرة، ومنعه المشركون وتعاهد معهم على أن يعود فى تلك المـــرة ويرجع فى السنة المقبلة إلى مكة، وهم يخلوها له ﴿ ﷺ وآله﴾ ويعتمر، فاســـتعد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى سنة سبع من الهجرة، وعزم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على أن القوم إذا منعوه قاتلهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّـــذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ ولوكان ذلك فى الحرم كما سيأتى فى الآية التى تليها . والقتال هنـــا هو قتل من قاتل الصحابة رضوان الله عنهم .

﴿ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

الاعتداء أن يبتدى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه رضى الله عنـــهم قتالهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ والحقيقة أن الله تعالى قد يقدر الاعتـــداء فيقع ولكنه لا يأمر به، ومعنى لا يحب أى لا يأمر، وبذلك لا يرد هذا الاعتـــراض وهنا يتحقق أن الفاعل المختار هو الله تعالى، فما كان هدى ونورا فهـــو إرادتـــه وأمره، وما كان ضلالا وظلما فهو إرادته ونهيه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أى لا يحب الاعتـــداء وإن قدره . ومن وقع فيما يكرهه الله تعالى بما نهى عنه، فإن الله يكرهه، والأشخاص لا

(١) سورة التوبة آية ٣٦

يحبون ولا يكرهون وإنما المحبوب صفاهم وأعمالهم التى قدرها الله تعالى عليهم، فإن الله إذا أحب عبدا أجرى الخير على يديه وأقامه فيما يحبه ويرضاه، وإذا كره عبدا أجرى الشر على يديه وأقامه فيما يكرهه، ووضع له البغضاء فى الســماء والأرض بدليل حديث البخارى . قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إنى أحب فلانا فأحبه فينادى جبريل فى ملائكة السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم توضع له المحبة فى الأرض فلا يراه أحد إلا أحبه . وإذا كره الله عبدا نادى جبريل .) الخ الحديث .ففى هذه الآية دليل على أن الله لا يحـب أعمـال المعتدين فيبغضهم لعملهم .

قوله تعالى :﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(١٩١)

هذه الآية متصلة بما قبلها، ويقال :ثقفه: أى وجـدة مـؤهلا للأخـذ والتغلب عليه . والمعنى أن الله تعالى يأمرنا أن نقتل أهل الكفر به سبحانه إن قاتلونا مع رعاية التمكين منهم والتغلب عليهم. وفىهذه الآية بيان من الله أن نأخذ الحذر منهم بإعداد العدة والعدد واثقين بتأييد الله ونصره .﴿ **وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ** ﴾

يذكرنا ربنا بعمل قريش برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبالمهـاجرين مـن أصحابه فى مكة حيث أخرجوهم للهجرة بتضييقهم عليهم ومناوأهم لهـم حـتى خرجوا من ديارهم، ويريد الله تعالى أن ينتقم مـن قـريش بالمهـاجرين الـذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم فيثأر لهم من أهل مكة، وهذا ما توعدهم الله به فى

الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأنكى، والخطاب لرســـول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ هـــو وأصحابه والضمير فى: " وَأَخْرِجُوهُمْ " يعود إلى كفار قريش .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

(وَالْفِتْنَةُ) فى اللغة : وضع الذهب فى النار ليتحمص . وهى الابتلاء فى الدين أو فى النفس أو فى المال والعرض . والمراد هنا من الفتنة رجوع المسلمين إلى الكفر بعد الإيمان . ومعنى (أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) بمعنى أن قتل المسلم أخف بكثير مـــن رجوعه إلى الكفر وخلوده فى النار .، فالله تعالى يعلمنا أن الفتنة التى هى الكفـــر أشد بكثير من القتل .

﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾

هذه الآية تخصيص لإطلاق الحكم فى الآية قبلها وهى قوله : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ والمعنى أن الله تعالى ينهانا عن قتلهم عند المسجد الحرام ماداموا لم يقاتلونا وبالأولى يكون تحريم القتل فى نفس المسجد، وبين سبحانه متى يحل لنـــا أن نقتلهم عند المسجد الحرام أو فيه فقال سبحانه : ﴿ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ فإن قاتلونا وجب علينا أن نقتلهم مع رعاية ماكلفنا الله به من التمكين منهم بقوله : ﴿ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ وذلك واضح فى قوله سبحانه : ﴿ **فَإِنْ قَـــاتَلُوكُمْ فَـــاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾

﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

ينهانا ربنـــا جـــل جلاله عـــن أن نفتتـــحهم بالـــقـــتال حـــتى يفـــتـــتحونا هـــم، وفـــى الآية تـــخفـــيـــف مـــن الله ورحمة ، وحجة على الكافرين أنه سبحانه أمهلهم . ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى أن قتلهم فى الـــدنيا عاجل العقوبة لهم والعذاب الأليم آجلها يوم القيامة . والكافر هو من كـــذب الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾.

قوله تعالى : ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَـــدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَـــعَ الْمُـــتَّقِينَ(١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِـــبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١٩٥)

﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

أى فإن رجعوا عن القتال وآمنوا بالله ورسوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى فإن الله يستر عنهم ما ارتكبوه من الكفر ومن معاداة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وأذية أصحابه حتى لايعاقبهم عليها . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يعنى يتفضل عليهم برحمتـــه فى الدنيا بحفظهم من القتل ويوم القيامة بأن يمنحهم النعيم المقيم .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾

نسخ الله تعالى بتلك الآية ماسبق من الأحكام المخالفة لهـــا فى الآيـــات السالفة . ومعنى ذلك أن الله تعالى يأمر النبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وأصحابه أن يقـــاتلوا

المشركين من غير قيد ولاشرط ﴿ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى لايوجد مشرك بالله أو لاتوجد له قوة وعصبة . ومعنى : ﴿ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى لايكون الكفر بـــالله . ومعنى : ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ على المعنى الأول أن يكون كل العالم الذين يمكنهم الله منهم من أهل الشرك مؤمنين . وعلى المعنى الثانى حتى يذلوا ويخشعوا ويتظاهروا بالإسلام ولو نفاقاً كمن كانوا من المنافقين فى المدينة .

﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

أى فإن رجعوا عن القتال والكفر بالله إلى السلام والإســـلام فـــأنزلوهم منكم مترلة أنفسكم ﴿ فَلا عُدْوَانَ ﴾ أى فلا تعتدوا إلا على من لم ينتهوا منـــهم والله لايحب العدوان ولايأمر به . ومعنى العدوان هنا : أى الجزاء بمثـــل العمـــل . والظالمون هم المشركون . قال تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1]

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾

يعيد الله لنا ذكرى سنة ست من الهجرة، عندما توجه رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ معتمراً ومعه عليه الصلاة والسلام أصحابه فرده المشركون عن دخول مكة، فنحر هديه بالحديبية بعد أن أقام بها زمنا، ثم صالحهم بعد أن كان ما كان على أن يرجع فى السنة المقبلة معتمراً وعليهم أن يخلوا له مكة ثلاث ليال . فلما كانت سنة سبع من الهجرة فى ذى القعدة خرج رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ معتمراً ومعه أصحابه رضى الله عنهم مستعدين للقتال إن قاتلهم المشركون، فأكرمهم الله فدخلوا مكة ومكثوا بها ثلاث ليال بعد أن أخلاها أهلها لهم .

(١) سورة لقمان آية١٣

فكانت تلك العمرة مع ماأولاهم الله من النصرة والتمكين وما أصـــاب قريشا فيها من الذل والخزى دليلا على نصرة الله لرسوله عليه الصلاة والســـلام، وجزاء لقريش على مافرحوا به من رد رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فأصـــاهم مـــن الحزن والهم والغم ماأصاهم نكالا هم على معاداهم لرســـول الله ﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾. وبذلك كان الشهر الحرام فى سنة سبع خير عوض عن الشهر الحرام فى سنة ســـت والشهر الحرام كان ذو القعدة فيهما . ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ أى أن الله اقـــتص من قريش بما وقعوا فيه من الحرمة بصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فمكنه من تأدية العمرة فى ذى القعدة سنة سبع وهذا قصاص من الله تعالى واقع بقريش ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ (١)

﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾

اختلف العلماء فى معنى هذه الآية، فقال بعضهم : هى مكيـــة ويكـــون المعنى فمن اعتدى عليكم بالسب أو القذف فاعتدوا عليه بمثل الذى اعتدى عليكم، ويكون الأمر من الله بالإعتداء عليهم أمرا بمجازاهم بمثل عملهم أو قـــولهم، فـــلا يكون اعتداء أو ظلماً لأن الاعتداء من المشركين ظلـــم ومحاربـــة لله ورســـوله، والاعتداء منا مجازاه لهم على سوء عملهم، وإنما سمى اعتداء مقابلة وإلا فهو عدل، والله لايحب العدوان كما قلنا ولو على الظالم، والعدوان هو ظلم من لايســـتحق الظلم . وقال بعضهم : الآية مدنية ويكون المعنى فمن قـــاتلكم مـــن المشـــركين

(١) سورة الأنفال آية ١٠

فقاتلوهم مع رعاية العدل الذى يحبه الله تعالى والمحافظة على البيـــان الـــذى بينـــه سبحانه فى قوله﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾ [1] إلخ الآية .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اتقوا التساهل مع المشركين والاستسلام لهم وتعدى حدود الله معهم بالغلو فى المؤاخذة، حتى تكونوا أطعتم أمر الله فتفوزوا بمراضـــيه وبنصرته لكم وتأييده . ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى تحققوا معية الله بتأييده ونصره وتمكينه لكم فى الارض بالحق، وفوزكم يوم القيامة بما أعده الله لكم مـــن الفضل العظيم والرضوان الأكبر . وما بشر الله تعالى قوماً بمعيته إلا منحهم محبتـــه، ومامنح قوماً محبته إلا تفضل عليهم فآنسهم بشهود جماله العلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد شرحنا مقام أهل معية الله فى كتاب : " الفرقة الناجية " وغيره من كتبنا [2]

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما أمرنا بالجهاد شكا الفقراء قلة ذات اليد، فأمر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أهل الثراء بالإنفاق وحثهم على ذلـــك، لأن أساس الجهاد وجود المال لاحتياج المجاهد إلى الزاد والراحلة والأسلحة فـــأنزل الله

(١) سورة المائدة آية ٤٥

(٢) تطلب هذه الكتب من مكتبة دار الكتاب الصوفى التابعة لمشيخة الطريقة العزمية ١١٤ شارع مجلس الشعب

تعالى هذه الآية . والنفقة هى كل مال يصرف فى المصالح . وما صـــرف فى غـــير المصالح يسمى إسرافا أو تبذيرا . والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى فى الجهاد لإعلاء كلمة الله ونشر سنن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وجائز أن ننظـــر إلى قوله تعالى : " وأنفقوا " فيكون بلا قيد . وتكون النفقة التى أمر بها فى سبيله هـــى كل ما صرف فى المصالح الشرعية كحج وطلب علم ونفقة على الأولاد والأهـــل والوالدين وعلى الضيوف والمحتاجين لأن ذلك كله فى سبيل الله تعالى .

﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ظاهراللفظ فى سياق هذه الآية يدل على أن الآية خاصة بالجهاد، أى لاتبذلوا كل أموالكم وتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ولاتعتدوا فى الجهاد . وجائز أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ تأويل هذه الآية .. أى واقتلوهم عند القدرة عليهم، وتدل الكلمة على أننا لا نقدم على القتل إلا إذا أنسنا من أنفسنا المقدرة عليهم فلا نلقى بأنفسنا إلى التهلكة من غير بصيرة . وقد كان جيش المسلمين يقاتل الروم عند القسطنطينية وجيش الروم قدر جيش المسلمين عشرات المرات، فهجم على الروم رجـــل مـــن التنـــابعين فى الجيش، وقال آخر : لاتلق بنفسك إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصـــارى ﷺ: ليس هذا المقام مقام التهلكة، نزلت هذه الآية علينا جماعة الأنصار، وإنما التهلكة أن يتأخر الإنسان عن الهجوم على العدو . وقال إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا أن نقـــيم فيها ونصلحها حتى نصر الله نبيه هل نقيم فى أموالنا ونصلحها ؟ فأنزل الله الخـــبر من السماء : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ الآية . أى لاتتركوا الجهاد وتقيموا بين أهليكم فى أعمال التكسب .

وجائز أن يكون المراد فى هذه الآية، الرجل يذنب الذنب فيقـــول لـــن يتوب الله على وييأس فيلقى بنفسه إلى التهلكة، وكلنا نعلم أن الله نهانا عن اليأس

من روح الله ومن القنوط من رحمته، وأكثر من يلقون بأنفسهم إلى التهلكة هـــم الجهلاء بأنفسهم وبربهم، فإن الله تعالى إنما قدر المعاصى علـــى العبيـــد لينـــدموا ويرجعوا إليه سبحانه متطهرة قلوبهم ليمنحهم فضل اسمه التواب العفـــو الغفـــور، ولينالوا بالتوبة بعد الحوبة جمال اسم التواب فيحبهم الله كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١)

ولك أن تفهم فى هذه الآية أن الله سبحانه يعلمنا أن نحافظ على ديننـــا وأنفسنا وأموالنا وأعراضنا وأوطاننا، فنزن أعمالنا وأقوالناوأحوالنا بموازين الشـــرع الشريف حتى نعيش فى حصون الحفظ الإلهى آمنين فرحين مطمئنين ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الإحسان مقام فوق التقوى وهو المقام الثالث من مقامات الدين الحنيف فأول مقام فى الدين الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، فالإيقان . وقد ورد مقام الإحسان مبيناً فى قوله ﴿ ﷺ وآله﴾: (الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنـــكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) والـــمقام الأول مـــنه هو الشـــهود، والثـــانى كمال المراقبة لله تعالى، والمراقبة تجعل المؤمن متحققاً بأن الله معه وهو مع الله تعالى، قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّـــهَ لَمَـــعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) فالإحسان فضل الله العظيم يتفضل به على من يحبهم من خاصـــة أوليائه الذين كاشفهم بمشاهد التوحيد العلية حتى أنسوا بالله وفرحوا به ســـبحانه، وقد كان بعض الصحابة يقول لصاحبه : اجلس بنا نفرح بالله ســـاعة . ويقـــول أحدهم : كنا نتراءى ربنا ليلة عرفة وهو مقام كمال الإحسان .

---

(١) سورة البقرة ٢٢٢

(٢) سورة الحديد آية ٤

(٣)سورة العنكبوت آية ٦٩

إذا تقرر ذلك فقوله سبحانه : ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ أى قوموا لله تعـالى بمـا أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه بإخلاص الرعاية لذاته العلية حتى تستغفروا، فإن ذلك من أكمل القربات التى تطمئن بها قلوب الصديقين، وتشكروه سبحانه علـى ماوفقكم له من إقامتكم فى مع اليقين الحق بأن ذلك فضله جل جلالـه . وإنمـا المحسنون يعرفون بأحوالهم العلية، التى تجعلهم فى نظر أنفسهم عاجزين عن شـكر نعمة الله عليهم، وعلى القيام لحضرته جل جلاله بما يستحق منهم، فهم دائمـا فى خشية من الله ورهبة من حقيقة قصورهم وتقصيرهم وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى يحب الذين جملهم بتلك المعانى لأنها من معانى صـفاته العلية لأنه هو الشكور وهو التواب، وأكد الخبر بحرف التوكيد لأن حب الله للعبد عجز العقل على أن يتصوره . فهو سبحانه الغنى عن الخلق القوى الكبير المتين فإذا أحب عبداً فإنما يحبه بفضله لايعمل ذلك العبد وحوله وقوته، وهذا فيمن هو أكمل العبيد فى جانب الله تعالى، فكيف بغيره ؟ . وذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء والله ذو الفضل العظيم . وهو سبحانه يقيم من شاء فيما شاء، لامعقب لحكمه ولاراد لقضائه .

والإحسان قد يكون فى كل شىء، قال ﴿ ﷺ **وآلـه**﴾: (إِذَا ذَبَحْـتُمْ فَأَحْسِنَوا الذِّبْحَةَ) وعلى ذلك قد يكون الإحسان متعينا عند أهلـه فى الضـرب والقتل وفى التقديروالعطاء والمنع وفى الشدة واللين، فإن أهل مقام الإحسان ذكروا ففكروا فحضروا، فكان الحق جل جلاله معالم بين أعينهم . ومن أحياه الله الحيـاة الروحانية فى مقام عين اليقين أو حق اليقين لايكون كمن فقد تلك الحياة وكانت حياته حيوانية صرفة .

قوله تعالى :﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١٩٦)

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

بعد أن بين الله ما بين من أحكام التوحيد والنبوة وغيرهما مما يتعلق بالمعاملة والعبادة، ذكر سبحانه ركناً من أركان الإسلام وهو الحج، وهذه أول آية نزلت فى الحج فأفادت فريضيته على كل مسلم مستطيع . وفى قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ ﴾ أى وجوب القيام به على الوجه الأكمل، والشروع فيه ما لم يكن فرضا فإنه يكون واجباً بالشروع فيه فيجب على من شرع فيه أن يتمه، أما إذا كان فرضا بأن كان حجة الإسلام فإنه فضلا عن أن الشروع فيه فرض، فإن إتمامه فرض آخر إذا لم يمنع عذر شرعى من مرض أو إحصار أو قهر وغلبة، ويؤاخذ من شرع فيه وترك الإتمام قادراً.

ولك أن تقول : إنما نزلت الآية لفريضة الحج وللإخلاص فيه لله كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾(٢) والحج معلوم وهو فى اللغة القصد . يقال حججت فلانا أى

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٤

(٢) سورة البقرة آية ١٨٧

قصدته . وفى الشرع : أعمال وأقوال وهيئات مفتتحة بالإحرام مختتمة بطواف الإفاضة . وأركانه الإحرام والطواف والسعى والوقوف بعرفة . وكل ركن منها فيه فرائض وواجبات وسنن . وقد اتحد الفرض والواجب عند مالك والشافعى وابن حنبل إلا فى الحج فإن ترك الفرض عندهم يبطل الحج وترك الواجب يجبر بالدم . وقد فصلت ذلك كله فى كتاب (هداية السالك إلى علم المناسك) [1] فليراجعه مريد العلم .

وظاهر تلك الآية يجعل العمرة فريضة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وبعضهم يراها سنة ويرى إتمامها سنة أخرى، وأركانها الإحرام والطواف والسعى فى رواية : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وفى رواية أخرى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ والمعنى : وأتموا الحج بأركانه وواجباته وسننه والعمرة كذلك . وإتمام الحج والعمرة أن يهل الحاج بهما من دار أهله . وقد أهللت بهما من دار أهلى فعاب على من يجهلون عمل أهل العزائم . وقد قرر الإمام ابن جرير الطبرى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن عباس رضى الله عنهما وعن سفيان الثورى وسعيد بن جبير، قال : من تمام العمرة أن تحرم من دويرة أهلك، ولك أن تقول فى معنى ذلك أن تخرج من دويرة أهلك ناويا الحج لا تقصد تجارة ولا غيرها وتهل من الميقات . وكما بينا أن الحج يجب على من شرع فيه إتمامه ولو كان تطوعا، نقول فى العمرة إنها تكون واجبة بالشروع فيها وإن كانت سنة، وإن قرر كثيرون من الصحابة فرضيتها كما روى ذلك ابن جرير الطبرى فى تفسيره . وسنفصل ما أجملناه هنا فى تأويل الآيات الواردة فى الحج إن شاء الله تعالى . وإن كنا فصلنا ذلك فى كتاب (هداية السالك إلى علم المناسك)

---

(١) تطلب هذه الكتب من مكتبة دار الكتاب الصوفى التابعة لمشيخة الطريقة العزمية ١١٤ش مجلس الشعب

﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾

الحصر فى اللغة هو الحبس والمنع مطلقا لا فرق أن يكون بعدو أو بمرض أو بغيرهما . وسبب نزول هذه الآية حصر المشركين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عند الحديبية فى سنتها، وخصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم كما سبق . ومعنى ذلك أن الله تعالى يبين أحكامه لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، أى فإن أحصرتم وأنتم محرمون فلا تحلوا الإحرام إلا بعد أن تقدوا ما استيسر من الهدى من شاة إلى بدنه، وما استيسر أى ما تيسر للمحرم .

﴿ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾

لما كان حلق الرأس فما دونه من المحظورات على المحرم كان الحكم عليه أن لا يحل إحرامه إلا بعد أن يبلغ الهدى محله . وبلوغ الهدى محله كما بينه العلماء أن يصل إلى البيت أو ينحر فى مكان الحصر إذا لم يتيسر وصوله إلى البيت وبعد ذلك يحل تماما، فإن كان الحصر بعدو متغلب قضى الحج أو العمرة، وإن كان بمرض أو فقد زاد فهو فى حل قضى أو لم يقض .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

معنى هذه الآية أن من كان مريضا مرضا يقتضى أن يترك بعض واجبات الإحرام، أو به أذى من رأسه كذلك يقتضى أن يحلقها أو يضمدها ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . والصيام ثلاثة أيام والصدقة إطعام ستة مساكين . والنسك ذبح ما تيسر له من شاة إلى بدنة . وسبب نزول هذه الآية ما روى عن كعب بن

عجرة أنه أصابه أذى من رأسه فملئت قملا وسرى القمـــل إلى لحيتــه وشـــاربه وحاجبيه فبلغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأحضره وقال له : (ماَ رَأَيْتُ أَنْ يَبْلُغَ بِكَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ . وأمر بحلاق فحلق له شعره وسأله : هَلْ عِندَكَ شَــيْءٌ تَــدَّخِرُهُ ؟ فَقَاَلَ لا، فَقَاَلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسلام: صُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ) . وهنا يظهر أن إزالة الأذى مقدمة على الصدقة والفدية والصوم كما أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾ بإزالـــة الضرر، وكما فعل فى حصر الحديبية لما دخل البيت على أم سلمة يتضجر فقالـــت أم سلمة : لا أراعك الله يا رسول الله ما بالك ؟ فقال عصانى أصحابى، أمـــرتهم بالحلاقة فأبوا . فقالت : يا رسول الله قم فاحلق وانحر فإن القوم يفعلون، فقام ﴿ ﷺ وآله﴾ وأمر الحلاق بحلق شعره وقام فنحر، فلم يبق رجل مـــن الصـــحابة إلا حلق شعره ونحر هديه . وكان تأخيرهم عن الحلق والنحر اعتقادا أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يخفف عنهم رحمة بهم وهم يحبون الأخذ بالعزائم فى كـــل أمـــورهم، والعزائم عمل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لا قوله، فقد يقول للتخفيـــف و الرحمـــة ولكنه لا يعمل إلا العزائم، فبدأ ﴿ ﷺ وآله﴾ بالحلق قبل النحر وإن قال بعـــض العلماء بالنحر قبل الحلق فقول مرجوح لا راجح .

﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾

أى إذا حصل الأمن من المانع الذى هو الحصر، وإذا كان المحرم للحج أو العمرة فى أمن من دار أهله وأهل بالعمرة فى أشهر الحج فعليه فدية لأنـــه تمتـــع فى الحرم فى أشهر الحج، والأكمل لإتمام الحج أن يهل الإنسان بالحج مفردا ثم يـــأتى بالعمرة فى غير أشهر الحج . وأشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة إلى آخرها

أو اليوم الرابع عشر منها، فمن أتى بالعمرة فى الحرم على القول الأول أو فى النصف الثانى من ذى الحجة على القول الثانى فلا فدية عليه .

﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾

أى فمن لم يجد الفدية التى يفدى بها من المتعة بالعمرة فى أشهر الحج فعليه أن يصوم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله " تلك: عشرة كاملة " بيان كل البيان، لأن الله تعالى يخاطب بكلامه العزيز كل طبقات عباده حتى بلغ من التنزل مبلغاً بين الحكم مجموعاً ليفهم كل سامع، وهكذا بيانه سبحانه حجة على العالم أجمع حتى لايدعى مدع أنه لم يفهم كلام الله أو لم يجد من يعلمه، والله تعالى فى أحكامه يبينها بياناً يدركه كل مسلم مهما كان جاهلاً فإن الجمع هنا فى قوله تعالى : ﴿ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾بيان شاف كما قال تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[1] سبحان من له الحجة البالغة والآيات الباهرة .

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

أى ذلك الحكم البين لكل حاج من الآفاق، أما أهل مكة فلامتعة لهم .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢

أى راقبوا الله فى القيام بما أمركم به وفى الإخلاص لذاته سبحانه، ومحافظة على حدوده تقدس وتعالى، وأيقنوا يقينا يقتضى رعاية جلاله وعظمته فى حال قيامكم بأوامره أنه سبحانه يؤاخذ من خالفوا أمره أو نهيه بالعقاب الشديد المؤلم، حيث لايكون هناك شفيع ولا نصير ولاظهير يرد عن العصاة قدر الله تعالى الذى بينه فى أمره ونهيه .

قوله تعالى : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ(١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُـــرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾(١٩٨)

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾

تقدم معنى لفظة الحج وقوله تعالى ﴿شْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ هى شوال وذو القعدة وذو الحجة على قول بعضهم وشوال وذو القعدة وعشرة من ذى الحجة على قول آخرين.

قوله تعالى :﴿مَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾

يعنى أحرم بأن أغتسل وصلى ركعتين ولبس ثياب الإحرام ولبى، وبذلك يكون أوجب على نفسه الحج لله تعالى، لأن فرض الشىء الدخول فيه .

﴿لا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ ﴾

الرفت هو الجماع فما دونه ولو أن يقول لزوجته : بعد حلى ألامســـك ومأأشبهه، وكل كلام مع النساء فى هذا الشأن فهو رفث ولكـــن مـــع غيرهـــن لايسمى رفثا . " ولافسوق " الفسوق اسم جامع لكل معصية فنـــهانا الله عـــن المعاصى كما نهانا عن الرفث .

﴿ لا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾

الجدال كل مماراة تغضب الغير لأن الذى فرض على نفسه الحج فى أشهر الحج وجب عليه أن يكون قاصدا ربه ليرضيه بالقيام بتأدية مناسك الحج لايشـــغله شىء غير الحج إلا ماكان ضرورياً من حاجات الإنسان . وكأن المحرم تجرد مـــن المحيط والمخيط والطيب وحلق الشعر وقلم الأظافر وما يلى ذلك مـــن الشـــئون الإنسانية الجسمانية، وتجرد أيضا من استعمال لسانه وجميع جوارحه فيما يناســـب نفسه الشهوانية والغضبية .

وإذا كان كذلك فالأحرى أن يكون القلب مستغرقا بكليته فى الحضـــور مع الله أو فى استحضار معيته سبحانه ليكون أشبه بالملائكة المقربين، ويكـــون فى مقام أكبر مجاهدة فى ذات الله، وبذلك ينال مقصده وهو الفوز بتمام الحج وكماله، أن يزور ربه فى بيته . وكيف يتنجس الإنسان بالنجاسات الحيوانية وهومقبل على رب البرية ؟ لايقع فى مثل تلك النجاسات إلا من جهل مقصده .

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّه ﴾

بشرى لأهل الإخلاص فى العمل الذين يعاملون الله تعالى معاملة العبـــد الصادق لسيده القادر . وهذه الآية تجذب القلوب إلى علام الغيوب فيسارع العامل

إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض . ومتى تحقق العبد أن الله يعلم مايفعله من خير فيمنحه عليه الخير العظيم تحصل له البهجة والأنس بما يؤلم غــــيره من العمال خصوصاً فى مناسك الحج، التى هى أشبه بالهجرة من الدنيا إلى الآخرة بتركه أهله ووطنه وماله وتجشمه متاعب السفر برا وبحرا ومعاشرته لمن لا يعــرف ومفارقته لمألوفاته جميعها، فإن ذلك كالجهاد أمام الأعداء .

وبإحرامه الباطن والظاهر تجرد من الآخرة بتراهة سره عن خطور نعيمها على قلبه فى جانب ماهو مقبل عليه بسره بعد صقل جوهر نفسه ومواجهة الغيب المصون لها، ويقينه الحق أن الله يعلم ما يفعله، وأن علمه سبحانه وتعالى بنا فى مقام قبوله وإقباله علينا ليس كعلمنا بالأشياء، لأن علمه بنا فى هذا المقام علم تترل وتجل بما يليق به جل جلاله بالنسبة لعبد جذبته عنايته من وجوده الباطل إلى الوجود الحق وعبد هذا حاله مع ربه لاتعلم نفس ماأخفى له من قرة أعين .

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن الحجاج كانوا إذا خرجوا للحج لم يحملوامعهم زادا، وكان من يحمل منهم يرميه فى الطريق ويقول : إنا خرجنا لله أفلا يطعمنـــا ويسقينا ؟ . وكان بعضهم يقول : إن الله حرم علينا الطيب والنساء وقص الشعر والظفر ولبس المحيط والمخيط، أفيحل لنا التجارة ؟ ويتركوها . فأمر الله من تركوا الزاد بقوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ولما كان الأمر باتخاذ الزاد عاما للأشباح والأرواح بين سبحانه وتعالى خير الخيرين لتكون همتـــهم متوجهـــة إلى خيرهمـــا . قـــال سبحانه:﴿فإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ والمعنى والله أعلم : تزودوا زاد الأشباح حـــتى يغنيكم الله عن سؤال الخلق فى تلك الدار الدنيا لتتفرغوا لتأدية مناسك الحج مـــع

فراغ قلوبكم من هم الرزق وتزودوا لأرواحكم بـالتقوى لتنـالوا مقاصـدكم الروحانية فى الدنيا من مزيد العرفان وكمال الشهود وصحة اليقين ونيل القبول من الله تعالى الذى أ نتم تحجونه، وتفوزون يوم القيامة برضوان الله الأكـبرفى مقعـد صدق عند مليك مقتدر.

ولك أن تقول : إن فى هذه الآية حذفا تقديره : وتزودوا زاد الأشـباح والأرواح ثم قال سبحانه : ﴿ فإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ هى زاد الأرواح، والتقوى كما بينت لك سابقا مراقبة الله تعالى مراقبة حضور أو استحضار فى كـل قـول وعمل وحال. ولما كان المراد بقوله ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ هنا أى فى الحج ناسب أن يجعل التقوى عامة فى الحج وفى غيره فقال سبحانه : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَـابِ ﴾ أى أديموا مراقبتى فى كل نوع من أنواع العبادة وأنواع المعاملة والأخلاق . ولما كـان الله تعالى لايخاطب هذا الخطاب إلا من يعقل عنه أمره ونهيه وخبره خـص هـذا الخطاب بأولى الألباب وهم أهل العقل الذين يعقلون عن الله تعالى .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

ثم خاطب من كانوا يمتنعون عن جلب المنافع المباحة فى الحج من تجـارة وخدمة فقال سبحانه :﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُـمْ ﴾ وتلـك الآية مرتبطة بالتى قبلها . ولما كانت أعمال المناسك ابتغاء الفضل من الله، وكـان طلب مالابد منه لحفظ الأشباح فضلا منه جل جلاله قال سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية . ومعلوم أن الله وضع الأسباب والأواسط لنعمل ونشهده سـبحانه الفاعل المختار المعطى، فالعمل لضروريات الدنيا بل وكمالياتها عبـادة إذا شـهد العامل أنوار الرزاق الوهاب القادر فى عمله .

ولما كان الكون ومافيه مظهرا لظهور معانى الأسماء والصفات الربانيـــة، كان مايحصله العبد العارف من الكون سبباً فى استحضار جمال ربنا جل جلالـــه بالنسبة لأن الأكوان مظاهرلمعانى صفاته . أما حضرة الأسم : " الله " فهـــو علـــم على الذات الواجبة الوجود التى تنزهت وتعالت عن أن تحـــوم الأرواح الكاملـــة حوالى فناء عزها وعظمتها . ولذلك قال تعالى فى مقام هذه الحضرة : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ فإن تقوى الله تعالى لاتكون إلا بالأرواح الكاملة، وتقوى الربوبية تكون بالجوارح المحصنة فى حصون الشريعة التى خلق الله الكون إمدادا لها، لتقتبس الروح مما فيها من أنوار آيات الله وأسراره العلية، وهذا سر قوله تعالى : ﴿ لَـيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

أى تتجرون وتصنعون الصناعات وتزاولون المهن والحرف لتنالوا فضل ربكم من القوت واللباس والمأوى والغنى عن شرار الخلق بالفضل من ربنـــا جـــل جلاله، لتناول ماكتره لنا فى هذا الكون بجوارحنا التى أهلها لذلك . سبحان مـــن خلقنا وخلق أرزاقنا وألهمنا العمل بها لنيل مالابد منه وأكمل .

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾

الإفاضة هى النفرة بعد غروب شمس اليوم التاسع من ذى الحجة، فبين لنا ربنا جل جلاله أن نجعل الإفاضة من عرفة ليعيدنا إلى ما كان عليه الخليـــل عليه السلام، فإنه لما خرج ومعه جبريل يعلمه مناسك الحج لقيه إبليس فى الطريق فرماه بســـبعة أحجار وكبر عند الجمرة الأولى ففر أمامه، ثم تعرض له فرماه بسبعة أخرى حيث الجمرة الثانية ففر أمامه، ثم تعرض له فرماه بسبعة أخرى وكبر حيث الجمرة الثالثة ففر منه حتى وصل إلى الجبل فقال له جبريل : عرفت ؟ فقال : عرفت – فســـمى

عرفات . فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ المشعر الحرام كل مزدلفة حيث ازدلف فيها الخليل عليه السلام وأتم ليلته فيها وقــام منها فى الغلس، والبيتوتة فيها من المناسك، وذكر الله فى المشعر الحرام موسع فيــه صلاة ودعاء وشكرا وحمدا وتسبيحا ..

﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾

فرض علينا سبحانه أن نذكره ذكر المستحضرين إحسانه إلينا بهدايتنا إلى ماكان عليه الخليل عليه السلام دينا وعبادة، وأنه وفقنا لما هدانا إليه للعمل الذى يرضاه منا .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

تأويل هذه الآية : إما أن تكون (إِنْ) بمعنى (ما) واللام بمعـــنى (إلا) ويكون تأويل الآية وما كنتم من قبله إلا من الضالين الذين هم على غـــير رشـــاد وهدى، ولك أن تقول (إن) بمعنى قد وتكون الآية : وقد كنتم من قبلـــه لمـــن الضالين .

قوله تعالى :﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّـــهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْـــآخِرَةِ مِـــنْ خَلَاقٍ(٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَـــرِيعُ الْحِسَـــابِ﴾ (٢٠٢)

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾

يعـــيد الله أمر مناســـك الحـــج إلى ماكانت عـــليه فى زمان الخـــليل عليه السلام فـــإن قريشا قالـــوا : إنـــا أبـــناء الخليل

وحماة حرمه ولاينبغى لنا أن نعظم غير الحرم فنقف على عرفة بل يجب أن نقف فى الحرم وهم قبائل (الحمس) وكان العرب يتجاوزن الحرم إلى عرفة فيقفون عليه فأمرنا الله تعالى أن نحج حج الخليل ونحفظ مناسك الله تعالى بقوله : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ والمراد بالناس هنا الخليل وأولاده . وجائز أن يكون المراد العرب الذين كانو يفيضون من فوق عرفة .

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

فرضى علينا ربنا الرجوع فى الإ فاضة من عرفة لامن غيره لأنه موقـــف الخليل عليه السلام ومنه أفاض راجعاً إلى مزدلفة . ويأمرنا سبحانه أن نطلب منه المغفرة لذنوبنا مبيناً لنا أنه غفور لخطايانا رحيم بنا، خصوصاً بعد أن أقامنا فيمـــا يحبـــه فوفقنا لإقامة مناسك الحج حيث آنات الإجابة وأماكنها .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَـــذِكْرِكُمْ آبَـــاءَكُمْ أَوْ أَشَـــدَّ ذِكْرًا﴾

سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا إذا أتموا الحج أخذوا يتفاخرون بآبائهم، فمنهم من يقول : كان أبى كريماً ينحر البدن . ومنهم من يقول : كـــان

شجاعاً يذود عن قومه . ومنهم من يقول : كان سيدا مطاعاً فى قومه فأخبرنا الله تعالى أن نستبدل ذكر الآباء بذكره سبحانه الذى له الفضل والنعمة والمنة علينا بما أولانا من سوابغ آلائه وأمدنا به من عنايته وهدايته لنا، حتى كنا أمة خير الأنبيـــاء وسيدهم الذين مدحنا الله بقوله : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[1]

وذكر الله بعد تمام المناسك دليل على أن الله زكى نفوسنا حتى ســبحت فى عالم ملكوت السموات والأرض مواجهة الحقائق التى تستبين بها أسرار الغيــب المصون، حتى وقعت العين على جلائل آيات الله ولعظيم إحسانه إلينا ظاهراً فكان الله تعالى أقرب إلينا من أنفسنا التى بين جنوبنا، فضلا عن والدينا وأهلنا وأبنائنـــا، حتى تمثلت الأرواح أنواره، وتصورت العقول جماله وجلاله، وسجدت إعظامــاً لكماله المتره، فبذلك يكون الذكر عن كشف وعيان لا عن حجة بعقل وبرهــان ..(أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا) أى لوقوع الحجة الشهودية التى أضمحل عندها ماللوالدين من الآثار وما للنفس التى هى بين الجنبين من المنافع والمصالح .

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِـي الْـآخِرَةِ مِـنْ خَلاقٍ﴾

معنى هذه الآية أن الناس يذكرون على قدر معرفتهم، فالجاهلون بأنفسهم جهلوا رهم فطلبوا ماهو خير عندهم مما يرونه ملائما لطبـائعهم ولــذة وحظـاً لحسهم، فيقولون ربنا آتنا إبلاً وغنماً وألادا وغير ذلك . وهــم الــذين لم تنفــذ

(١) سورة آل عمران آية ١١٠

بصائرهم من أفطار السموات والأرض لأن الحس والجسم حجبا العقل والروح عن مطالعة مافوق الكون من أسرار الغيب المصون الذى أمرنا الله تعالى فى القرآن المجيد أن نتفكر فيه ونتدبر، ونسعى فى تحصيل العلم به ليكمل يقيننا . وهؤلاء لانصـــيب لهم يوم القيامة لأنهم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَـــا عَذَابَ النَّارِ ﴾

وهم أهل العلم الذين زكى الله بالعلم نفوسهم وطهر به مـــن الـــرجس جوارحهم، فسألوا الله الفوز بالسعادتين : فسعادة الدنيا بالعافية والأمن والقوت، وسعادة الآخرة بالمغفرة والفوز بالنعيم المقيم . والحسنة فى الدنيا هى كذلك تيسير مالابد للعبد منه من أمن وعافية وقوت، وصرف أنفاسه فى طاعة الله تعالى بعـــد فراغ قلبه من تحصيل مالابد له منه ليقوم بأوامر الله تعالى مطمئن القلب، مستريح الجسم من عناء الشغل بغير ذلك . ولذلك كان السعى فى طلب مالابد منه مـــن عبادة الله لأنه وسيلة لكمال العبادة .

﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ يسألون الله تعالى أن يحفظهم من عذاب النـــار فى الدنيا وعذاب النار فى الدنيا هو الوقوع فى معاصى الله تعالى التى توعد الله بها من خالفوا أوامره سبحانه بدخول جهنم . وليس فى الآخرة أعمال يجازى عليها العبد بخير أو بشر إنما الأعمال فى الدنيا .

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

الإشارة إلى من أخبر الله عنهم فى الآية السابقة . أى هؤلاء القوم لكل فريق منهم ﴿نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ إن خيراً فخير وإن شرا فشر . ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يعنى أن حساب الله وإن ظن الإنسان أنه بعيد فى الدنيا أو نسيه أهل الجهالة به سبحانه فإنه سريع بتحقق وقوعه، وهو واقع فى الدنيا لأنها سببه، والواقع قد يتحقق وقوعه فى الدنيا أو فى الآخرة، فقد يعاقب الله أهل الكفر به وأهل المعاصى بالانتقام منهم فى الدنيا قبل الآخرة ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

﴿ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ هو القسط الذى يناله العامل فى الدنيا بحسب عمله . ويظهر أن قوله : ﴿أُولَئِكَ ﴾عائد إلى الذين يقولون : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

قوله تعالى :﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(٢٠٦)

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾

أمرنا الله تعالى بذكره فى أيام التشريق التى بعد يوم النحر لمعان ثلاثة :

المعنى الأول : أنها أيام إجابة وقبول من الله تعالى للأعمال .

والمعنى الثانى : أن الأبدان والنفوس تكون فيها طاهرة وتلك الطهارة متحققة فى الحجاج لما وفقهم الله لعمله، ومتحققة فيمن أقعدهم الفاقة فإنهم وإن لم يشهدوا تلك المشاهد فلهم قلوب تحن إليها وتشتاق، وبهذه النية يكونون على جانب من الطهر الذى يجعلهم مقربين من الله تعالى فيستجيب لهم سبحانه ويسمع منهم سماع إجابة .

والمعنى الثالث : أن تلك الأيام قد تحصل فيها الغفلة لغير أهل المراقبة بسبب بهجة العيد وفرح المسلمين به فيشغلهم الفرح بالعيد عن واجب الوقت المبارك . وبذلك تألف النفس ذكر الله فى كل وقت، والذكر الذى يأمرنا الله تعالى به هو التكبير والتهليل والتسبيح عقب كل صلاة .

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾

هذه الآية وسع الله بها علينا فبين لنا أن الذى فرض على نفسه الحج وأتمه ،، فرمى الجمرات وطاف طواف الإفاضة فى يوم النحر ثم أتم الجمرات الثانية والثالثة فى اليومين ورجع إلى مكة لحاجة تقتضى أن يعود لأهله بعد اليومين فلا حرج عليه ولا مؤاخذة، بل يكون أتم الحج والعمرة لله كما أمر جل جلاله، بشرط أن يكون مراعياً حقوقهما رعاية أهل التقوى العاملين بما كان عليه رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ والأئمة الهداة من بعده، ومن تأخر بأن أتمها ثلاثة أيام مع رعاية التقوى أيضاً فلا إثم عليه وله من الأجر أجر مازاد من العمل على من سبقه .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾أى راعوا التقوى فى كل أعمالكم ﴿ وَاعْلَمُــوا ﴾ أى تحققوا ﴿ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تبعثون من قبوركم وتحشرون إليه ليجــازى كل عامل بما عمل فيغفر ويتفضل ويحسن ويحاسب ويعاقب .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن الأخنس بن شريق حليف بنى زهرة من الطائف قدم على رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فادعى أنه قدم للآسلام لالغيره، وأقسم بــالله ومدح نفسه بمحبته فى الإسلام ورغبته فيه، وبعد أن تولى من أمام رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ذهب إلى زرع بعض الصحابة فأحرق الزرع وعاقر الخمر وولى، وفى بعض المنافقين أيضاً الذين تكلموا فى سرية القراء المرسلين ليعلموا قبيلة من قريش الإسلام وقدم منها وفد على رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ والتمسوا أن يرسل معهــم عليــه الصلاة والسلام رجالاً قراء يعلموهم أمور دينهم، فأرسل معهم خيرة قراء المدينــة فأخذوهم حتى رفعوهم عل جبل هناك وجرد وهــم مــن الســلاح وأرادوا أن يقدموهم إلى قريش ليقتلوهم فدية عمن قتلوا فى بدر فأبى الصــحابة أن يترلــوا، فداهمهم سبعون قرشيا فقتلوهم وأسروا خبيباً ﷺ فحبسوه فى مكة عند امرأة ممــن قتل أقاربها فى بدر، فكانت المرأة ترى من خبيب الأعاجيب التى يكرمه الله بهــا، فترى عنده العنب فى غير وقته والطعام الذى لايكون إلا فى الجنــة حــتى قتلــه المشركون صلباً، وكانوا كلما أرادوا أن يصلبوه محولين وجهه عن القبلة جاهر أن يحول وجهه إليها فقال مرتجزاً قوله المشهور :

ولست أبالى حين أقتل مسلما .. على أى جنب كان لله مضجعى

فلما بلغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أرسل عمر بن أمية الضمرى ســاعى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يأتى بجسمه، وكانت قريش تتشاء به لأنه كان مــن مشاهير الصعاليك كعنترة العبسى والربيعة بن مكدم والحارث بن مرة الحنظلــى، فلما قام إجابة لأمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يمشى ليلاً ويختفى نهــارا حــتى دخل مكة ليلاً فرآه بعض قريش فأوجسوا منه خيفة ولكنه قام بالليل فحمل خبيبا وسافر به إلى المدينة غير هياب ولا وجل من القوم، وكثر فى هذه الحادثــة لغــط المنافقين المنكرين على إرسال القراء شكاً فى الرسالة وجهلاً باختيار الله ما اختاره للقراء من الشهادة . وإن كان سبب نزول الآية خاصا فالحكم عام فى كــل مــن ارتكب ما ارتكبه هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة . والمعنى : ومن الناس من يتكلف أن يجمل ظاهره بقول المسلمين وعملهم، ويقسم بالله على صدقه وعمــارة قلبــه بالإيمان، والذى فى قلبه هو ألد الخصام أى أعوجه وأنكاه وأشده .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَـرْثَ وَالنَّسْـلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾

أى إذا أثبت لديه أنه قبل إيمانه وعد من المسلمين وحفظ من مراقبتــه فى أعماله السيئة . والإفساد ضد الإصلاح، والحرث هنا الزرع . والنســل : نتــاج الحيوانات، أو إسعار الفتنة فيهلك الناس بسببها . ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ أى لايأمر به وإن قدره، والذى يحبه الله هو ماأمر به كمــا قــال ﴿ ﷺ وآلــه﴾ فى الحديث القدسى بسند البخارى : (وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداءماافترضته عليه) فكان فرائض الله هى محابه وترك القيام بها هو مباغضه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

يخبرنا ربنا عن هذا المنافق الكذاب أنه وقع فيما يدل على كفره ونفاقه وجحوده وذكره مذكر بالله أخذته عزة كبرياء الجاهلية وغرورها وعزت عليه نفسه الخبيثة أن يقبل الذكرى، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وأبى أن يسمع أو يطيع فحكم الله عليه بالخلود فى جهنم قائلاً : "فحسبه" أى كفايته الخلود فى جهنم ﴿ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى وساء فراشه ووطاؤه . وفى ذلك وعيد لمن ينسون يوم الحساب ممن يدعون الإسلام وليسوا منه فى شيء، كالذين يرتكبون المنكرات علنا ويصرفون أنفاسهم فى الملاهى والمعاصى غافلين عن الدين قلبا وقالباً بل حرباً على أحكامه، أعاذنا الله من سوء القضاء وقضاء السوء .

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١١)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

(١) سورة الذاريات آية ٥٥

سبب نزول هذه الآية الشريفة رجال من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منهم صهيب بن سنان وأبو ذر الغفارى وعمار ووالده ياسر وأمه سمية وبلال مولى أبى بكر وغيرهم من جلة الصحابة رضى الله عنهم باعوا أنفسهم لله عز وجل . ولك أن تقول إن سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى ذكر أهل الكفر به فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ وذكر بعدهم أهل النفاق بقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلخ الآية . ثم ذكر أهل الإيمان بالله ورسوله بقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ هذا بسبب سياق الآية .

أما الذى يظهر لأهل العلم بالله منها فإن الله يبين أحوال أحبابه الذين اجتباهم لحضرته فيقول : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ أى يبيع نفسه . و﴿ ابْتِغَاءَ ﴾نصبت على حذف الخافض أى لابتغاء . وهم الذين باعوا أنفسهم لله تعالى لنيل محابه ومراضيه فجاهدوا فى سبيله بين الصفين وفى مواجهة العدو، أو بأن أقامهم الله تعالى فيما يحبه ويرضاه فأمروا بالمعروف حيث المخاوف العظمى، ونهوا عن المنكر غير هيابين ولا وجلين مما يصيبهم فى سبيل ذلك من باغ أو ظالم .

﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

الرأفة هى الرحمة الواسعة جدا، فإن الرحمن هو المنعم بجلائل النعم الكونية و والرحيم هو المنعم بجلائل النعم الأخروية، والرؤوف هو المنعم بالعواطف والعوارف والمنازلات والتجلى بأسماء جماله سبحانه . وهنا قال تعالى " وَاللَّهُ رَءُوفٌ " إشارة إلى أن هؤلاء القوم رفعوا إلى مقام القرب حيث تجاوزوا مقام

الرحمن الرحيم إلى الرءوف فى مواجهة وجهه العلى العظيم .وقولـــه " بِالْعِبَـــادِ " ــألــ هنا للعهد، أى العباد المخصوصين الذين سبقت لهم منه سبحانه الحسنى . وهؤلاء فى الدنيا أنسهم الله تعالى فوق أنس أهل الجنة يوم القيامة .

وناهيك بهذا الأنس الذى كان لأبى بكر ﷺ فى يوم الغار، حيث قـــال لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: أدركنا، ها هم القوم فوق رؤوسنا، ولو نظـــر واحـــد منهم إلى قدميه لأبصرنا . فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾(١) فكان أنس أبي بكر ﷺ بمعية الله له فى الغار فوق أنس أهل الجنة يوم القيامـــة بالنعيم المقيم ــ وأهل هذا المقام فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وشتان بين من يكون عند مشتهياته الدائمة السهلة اللذيذة، وبين من يكون مواجها لوجهه الجميل جل جلاله ــ وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾رأفة يتفضل بها عليهم بأن يرفع مقامهم عمـــا يشغل أهل الجنة من بهجة وأنس ولذة مما يلائم هياكلهم الحسية . وبـــين بهجـــة الإنسان بلذات أغضائه، وبهجته بمشاهدة وجه الله بون شاسع لايتصـــوره عقـــل عاقل، إنما يتصور ذلك الأرواح التى هى من نور الله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُـــوا خُطُـــوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

يخاطبنا ربنا جل جلاله بنداء القريب من القريب، ليؤنس قلـــوب أهـــل الإيمان بأنه تترل بجماله الدال على عنايته سبحانه بنا ببيان ما يقربنا إليه ويدخلنا فى

(١)سورة التوبة آية ٤٠

حصون أمنه سبحانه . وإن كان ينادى الكفار فإنما يناديهم نداء من يعلمهم أنـــه قادر قوى قهار – أما هنا فنداء رحمة وحنان فوق نداء الوالدة الشفيقة لولدها إذا شفقت عليه فنادته : لاتقرب من المؤذيات وافعل كذا من الخيرات – فالله تعـــالى يأمرنا وهو يعلم أننت موقنون بالدخول فى السلم بكسر السين أو بفتحها بمعـــنى الإسلام والسلام .

وفى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إشارة إلى أن القلوب صدقت وبقيت الجوارح لم تعمل، فيعلمنا الله أن الإيمان بالقلب وهو التصديق لايكفـــى فى كمال الإيمان، بل الواجب على كل واحد يدخل فى السلم أن ينفذ أوامر الله مـــن العبادات والأخلاق والمعاملات الحسنة حتى يقيم الحجة بأنه مؤمن بالله ومسلم له سبحانه، وبذلك يكون داخلاً فى السلم حقاً . " كافة " حال من " ادْخُلُوا " وقد يكون الحال من واو الفاعل فى " ادخلوا " وقد يكون من قوله :﴿فِي السِّلْمِ ﴾ أى بكل أوامر الإسلام بقدر طاقتكم وانتهوا عن نواهيه كلها، فإن المسلم واجب عليه أن يقوم بكل ما أمر به بقدر الاستطاعة، وأن ينتهى عما نهاه الله عنه مطلقا، اللهم إلا مارخصت فيه الشريعة بأن هدد بالقتل أو بترك ماله أو بشرب الخمر أو ماأشبه ذلك فإن له مندوحة ورخصة فى العمل، وليس له أن يلقى بنفسه إلى التهلكـــة إلا إذا قهره الوجد الصادق فى مشاهدة جذابة للقلب إلى نيل رضـــوان مواجـــه بـــه ومشهود له ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ الخطوات هنا المناهج والسبل، وفى هذا إجمال، ثم فصل هذا الإجمال بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ والعداوة البينـــة هنا لاتتحقق إلا بعد العلم بالنفس وبحقيقه الشيطان . وقد بينـــت لـــك حقيقـــة الشيطان فى كتاب : (الطهور المدار) [1] وحقيقة آدم وسبب العداوة التى كانـــت

(١) يطلب من مكتبة دار الكتاب الصوفى بشارع مجلس الشعب رقم ١١٤

بين آدم والشيطان وورثها أبناؤه . وخطيئة إبليس الكبرى الحسد . وخطيئــة آدم الكبرى التى تمكن إبليس بها منه هى،الطمع وكلاهما فطرتان فى هاتين الحقيقــتين . فما كان فى آدم من الفطر انتسخ فى بنيه، ولتلك الفطر أمرنا الله بجهــاد الطبــع الخبيث والنفس الأمارة بالسوء والنفس الشهوانية باتباع الشريعة المطهرة، والمحافظة على العمل بما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من عند الله تعالى وما فينــا مــن الأعضاء المؤهلة لقبوله – قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَــوَّاهَا فَأَلْهَمَهَــا فُجُورَهَــا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾(١)

ولذلك فإن النفوس المطمئنة وإن كانت دواعى الشرور الــتى تقتضــيها البشرية لاتترع منها بل هى فى غريزتها، إلا أن الله لم يجعل للشيطان عليها سلطانا، فقد يقع المؤمن فى كثير من الخطايا التى لم يتوعد القرآن أهلها بالنار كالتوســع فى المباح وكالتوسع فى صرف الأموال فى الأوجه المباحة وكالتغالى فى صرف الأوقات فى العلوم التى ليست لازمة للإنسان، وكصرف الأوقات فى الملاذ . كل ذلك ليس محرما على المسلم ولكن الله يحفظه عند هجوم نيران الفتنة والشهوة التى يســعرها الشيطان فيحفظه تعالى لشدة مراقبته لجنابه العلى . قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(٢) والعباد هنا هم الذين يخبرنا الله عنهم فى تلك الآية بقولــه تعالى : ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ وقد فصلنا إجمال تلك العداوة وهمم الشيطان التى يسعى لوقوعها منا فيما تقدم من قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَــاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٣) وجائز أن نؤول هذه الآية بما أولها به أهل

---

(١) سورة الشمس آية ٧-١٠

(٢) سورة الإسراء آية ٦٥

(٣) سورة البقرة آية ١٦٩

العلم من أن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ المخاطب به من آمنوا بموســـى وعيسى الإيمان الذى يرضاه الله من العباد – ويكون قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا فِـــي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أى ادخلوا فى الإسلام جميعاً وهذا التأويل لايمنع ما بيناه فى تأويـــل الآية من قبل .

﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَـــاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـــهَ عَزِيـــزٌ حَكِيمٌ﴾

معنى هذه الآية أن الله يخاطب أهل الإيمان بنبيه محمد ﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾ أو أهل الإيمان بموسى عليه السلام : يقول سبحانه إن حصل منكم الزلل وهو مخالفة ماجاء به الرسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لأهل الإيمان، أو إن أنكرتم مابينته فى التوراة من صفات رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وجحدتم ذلك افتراء على وتكذيبا لـــه عليـــه الصـــلاة والسلام . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ ومجىء البينات وضوحها وشـــهودها حسا وعقلاً بالحجج القويمة . فاعلموا أن الله تعالى من بعد جحودكم وإنكـــاركم ياأهل الكتاب، أو بعد مخالفتكم ياأهل الإيمان .. عزيز، أى شديد العقوبة قهار فى انتقامه . حكيم، يعاقبكم بالعدل والحكمة لأنكم بمخالفتكم ماجـــاءكم ياأهـــل الإسلام، أوبإنكاركم وجحودكم ياأهل الكتاب، تستحقون شديد العذاب فى يوم لاينفع فيه مال ولابنون ..

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾

قبل أن نبين تأويل هذه الآية الشريفة نتكلم مع أهل الإيمان .. كلنا نعتقد أن ذات الله تنزهت وتعالت وأسماءه العلية وصفاته المقدسة وأفعاله الربانيـــة لـــيس كمثلها شيء . والواجب علينا أن نسلم أخبار الله فيما يتعلق بتلـــك الكمـــالات العلية لأنها آيات متشابهات والله تعالى يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (١)

والإتيان فى اللغة الانتقال من مكان إلى المكان الذى يســـتلزم الحركـــة والسكون وهذا مستحيل على الله تعالى، فإتيان الله فى هذه الآية يجب أن نسلمه له سبحانه إذ الإتيان معلوم والكيف مجهول والبحث فيه بالعقـــل بدعـــة والتكلـــف بالكلام عنه ضلالة . وقد تأوله بعض العلماء بمعنى يأتى أمر الله أوعذابه أو حسابه على حذف مضاف و"هَلْ" هنا بمعنى ما . والمعـــنى مـــاينظرون بعـــد تكذيبـــهم وإنكارهم ومخالفتهم إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة . وهذا كـــلام مسوق مساق التهديد الشديد والإنذار الأليم من الله تعالى

قوله﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ بالرفع عطفا على الإسم الأعظم يعنى أن يأتيهم الله كما يشاء فيما يشاء من ظلل وجمال وجلال وكمال . والملائكة يأتون، وفى رواية : (إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ) فيكـــون قوله : (فِي ظُلَلٍ) عائداً إلى الملائكة . ولك أن تقول : (وَالْمَلائِكَـــةِ) بـــالجر ويكون المعنى يأتى الله فى ظلل من الغمام وفى الملائكة .

---

(١) سورة آل عمران آية ٧

وهنا إشارة خفية أن الغمام الذى يذكر فى هذه الآية هو الذى ذكـر فى قصة التجلى لموسى عليه السلام حيث كانت تغشاة غمامة النور ولاتكون تلك الغمامـة إلا دليلاً على انكشاف حقائق غيبية من كلام الله أو من صفاته . ولما كان يـوم القيامة يوم انكشاف الحقائق كما قال تعالى مخبرا عن الكفار : ﴿ رَبَّنَـا أَبْصَـرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾[1] فنستنبط من تلك الآية الشريفة أن الغمام الذى يأتى فيه الله تعـالى يدل على انكشاف الحقائق لكل أهل المحشر، فيرى كل إنسان فى المحشر من مؤمن وكافر ماأخبرت به الرسل عليهم السلام من الغيب المصون الذى وصل إلينا بطريق السماع لا بطريق الحس والعقل، وفى ظهور تلك الحقائق وانبلاحها لأهل المحشـر قيام الحجة الظاهرة على فرح المؤمن بها وذل الكافر، فإن أهل الإيمان إذا انكشفت عنهم الحجب وأتى الله فى ظلل من الغمام حتى ظهر بصفاته جمالا وجلالاكما ظهر لموسى بصفة المتكلم تكون تلك الساعة أسعد أوقاتهم، وهنا تتم علينا النعمة . وإذا انكشفت تلك الحقائق لأهل الكفر بالله حل بهم السوء وعلاهم الـذل والخـزى، وتمنوا جميعاً أن يكونوا ترابا و لم يشهدوا تلك الحقائق التى قامت بها عليهم الحجـة أنهم كانوا فى ضلال وكفر أعاذنا الله وأنجانا من هذا المشهد، ونعم عيون بصائرنا بهذا النور فى الدنيا قبل الآخرة . والظلل جمع ظلة وهى الكميـة السـميكة مـن الغمام.

وهنا أنبه إخوانى حفظنى الله وإياهم من أن يقولوا على الله مالايعلمون . فإن الكلام صفة المتكلم وكلام الله تعالى صفته العلية، فيجب أن نقـف موقـف الأدب مع كلامه جل جلاله فنسلم له متشابهه ونفهم محكمه بما بينه رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ بقوله وعمله وحاله . ومالم يرد عنه ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ يجب علينا أن نبحث

(١) سورة السجدة آية ١٢

عنه فى أقوال وأعمال وأحوال الصحابة والتابعين من الأئمة الهداة الراسخين فى العلم، وما يتعلق بالأحداث الزمنية التى لم يتكلفوا الكلام عنها حتى تحدث فهذه نفهمها بالوسائل التى وضعتها الشريعة، بعد تزكية النفس وتطهير السر وحفظ الجوارح ورعاية جلال الله تعالى . ثم نستفتى قلوبنا بعدطهارتها من الحظ والهوى والطمع والحسد، بل بعد التبرئة من نزعات النفوس الأمارة بالسوءوسوء الطبع وصولة النفس الشهوانية، وبعد أن يكون حرصنا على العمل بما نعلم لدينا أعظم من تعلم مالانعلم، ورغبتنا فى نجاة أنفسنا أولا وبالذات أكبر من رغبتنا فى نجاة غيرنا، وبعد أن نعلم حق العلم أن الله ينفع الناس بعلمنا وعملنا وحالنا، وأنه تعالى ينفعنا بما وفقنا له وأعاننا عليه، فإن للشيطان دسائس تخفى على أهل المقامات العالية . ومن ذلك إخراج آدم من الجنة، ونزغه بين يوسف وإخوته وتسلطه على بلعام ابن باعوراء، وإفساده لقلوب الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام حين قال له بطرس لما أن أحيا (العاذر) أنت الرب . وما فعله بفتى موسى عليه السلام حين قال : ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ (1) قال رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾: (إِنَّ الشيْطَانَ لَيَجْرِى مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرى الدَّمِ)

وكل أخ لايجاهد نفسه فى ذات الله معاديا نفسه وشيطانه هلك مع الهالكين، أعاذنا الله من سوء الطبع وشر النفس الأمارة بالسوء ومن مكائد الشيطان الخفية، ومنحنا الله كمال الأدب فى فهم كلام الله وكلام رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ومنحنا دوام الخشية من الله تعالى حتى لانرى لنا حولا ولا قوة، بل ولا نشهد لنا قولاً ولاعملاً إلاونخاف أن نعاقب عليه، بل ونستغفر الله منه ونتوب إليه كما علمنا الله تعالى بقوله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي

(1) سورة الكهف آية ٦٣

دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[1] وفى قوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ مكنون العلم الإلهى الذى به معرفة النفس ومعرفة الرب جل جلاله، فإن الاستغفار بعد مجىء نصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله دليل على أن الإنسان لا يأمن مكر الله تعالى ولو أن إحدى رجليه فى الجنة، كما أنه لا يقنط من رحمة الله ولو أسرف على نفسه كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[2] والسعادة والنجاه فى الدنيا والآخرة سبيلها فى هذا البحر اللجى الأدب مع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وحفظه فى سنته . كان عليه الصلاة والسلام يكثر الاستغفار خصوصا عقب الصلاة وعقب مجالس العلم ليجملنا بالجمال الذى يحبه الله ويقبل به علينا . هذا وإنى أزيد إخواننا بيانا فأقول لهم : إن الخشية فى القلوب والخشوع فى الجوارح، فمن خشعت جوارحه تأدباً مع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خشى قلبه وخشعت جوارحه مع الله والله ولى المؤمنين .

﴿ قُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُور﴾

أى نفذ الله تعالى قدره على عباده أزلاً من دورة الكون فدورة البرزخ فالبعث فالحشر فالنشر فالمغفرة فالجنة فى نعيم مقيم أو العقوبة فى النار فى عذاب أليم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ معلوم أن الأمور كلها بالله ومن الله وعلى الله وإلى الله فى الحقيقة ونفس الأمر وعند أهل الإيمان الكامل بالله ولكن جهلاء المؤمنين وأهل النفاق وأهل الكفر بالله غافلون عن تلك الحقائق . فمنهم الناسى

---

(١) سورة النصر

(٢) سورة الزمر آية ٥٣

كجهلاء المؤمنين، ومنهم الغافل كالمنافقين، ومنهم المنكر كالكفار بـــالله فـــإنهم يشهدون لهم وجودا غير معتمد إلى إيجاد الله تعالى وملكا وحولا وقوة وتصـــريفاً حتى إذا قامت القيامة وجاء ربك والملك وأتى الله تعالى فى ظلـــل مـــن الغمـــام والملائكة وتجلت الحقائق للأبصار وقعت الواقعة، فاطمأنت قلوب المؤمنين بما رأته مما كانت موقنةبه وجزع أهل الجهالة من المؤمنين، وهلع الكفار ويئسوا من رحمة الله وتمنوا أن يكونوا ترابا .

وعندما يكون الأمر كله لله بغير منازع ولا مشارك ولامعارض، وهـــذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فإن أمور المؤمنين رجعت إليـــه فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا علما ويقيناً وفى الآخرة عينا وحق يقين . ورجعت أمور من سواهم فعلاً فى الآخرة بعد أن كانت راجعة إليهم حكماً فى الدنيا . قال تعالى : ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْـرًا ﴾(1) وفى قوله ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ إشارة إلى أهل الجهالة مـــن ضـــعاف الإيمان، وتلك الآيات متصلة بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ إلخ الآية، على تأويل من تأول أن الخطاب لبنى إسرائيل .

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

أصل : ﴿ سَلْ﴾إسأل حذفت الهمزة التى هى عين الفعـــل للتخفيـــف ونقلت حركتها إلى السين قبلها فاستغنى عن همزة الوصـــل فصـــارت " سَـــلْ" والخطاب لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وليس المراد أنه عليه الصلاة والسلام يســـألهم

(1) سورة الأنعام آية ١٥٨

فإنه يعلم تلك الآيات، ولكن المراد زيادة التوبيخ والتقريع والتهديـــد . و(بَنِـــي إِسْرَائِيلَ) هم معاصرو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من يهود قريظة والنضير وقينقاع وغيرهم . ﴿كَمْ ﴾آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ " . أما ﴿ كَمْ ﴾ فقد تـــأتى للاســـتفهام وللخبر عن العدد الكثير . و﴿ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أى تفضلنا عليهم بعطايا عامـــة لخيرى الدنيا والآخرة . فخير الدنيا : المن والسلوى والماء النمير من الحجر، والغمام الذى ظللهم به، ونجاهم من فرعون بعد فلق البحر، والعفو عن خطاياهم فى عبادة العجل وفى مخالفة موسى ﵇ . أما ما يتعلق بالآخرة : فما أنزل الله على موسى من العقيدة الحقة والعبادة والأخلاق والآداب، مع جدلهم وإنكارهم وشكهم وما توعدهم به بعد إنذارهم من العذاب فى الدنيا والآخرة، وما أظهره من عقوبتهم فى الدنيا بتسليط الرومان عليهم و" بختنصر " وخراب بيت المقـــدس وتشـــتيتهم فى الأرض بعد أن أذلهم بالخزى والضعف والمسكنة، مذكراً إياهم ماحل بمن ســـبقهم ممن خالفوا أوامر الله تعالى أن هذا البلاء يحل بهم إذا خالفوا خاتم رسله محمـــدا ﴿ ﷺ وآله﴾، بعد أن بين صفاته ومحل هجرته ومولده فى التوراة . قوله : ﴿ بَيِّنَةٍ ﴾ أى ظاهرة للحس والعقل واضحة حججها محسوسة محاجها

﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ﴾

التبديل هو التغير، ونعمة الله هى محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ التى يجب أن تقبل من الله وتشكر . والشكر عليها الإيمان به ﴿ ﷺ وآله﴾ والعمل بما جـــاء به من عند الله تعالى . وقوله : (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ) حجة قاصمة لظهور اليهـــود من معاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأن نعمة الله التى هى محمد عليه الصـــلاة والسلام جاءت بالفعل، وأيدت بما لديهم من أخبار الله فى التوراة عنها، وبما أظهره

الله من المعجزات الباهرات على يده ﴿ ﷺ **وآله**﴾ التى أعظمها إخبـــاره بالغيـــب الذى لايعلمه عربى ولاعجمى غير أحبار اليهود من تاريخ الرسل والملوك السابقين من لدن آدم إلى زمانه ﴿ ﷺ **وآله**﴾، الذى كان زمن الجاهلية العمياء الصماء .

فكان تبديلهم مافى التوراة، وإنكارهم الحجج الناصعة التى أتى بها ﴿ ﷺ **وآله**﴾ مما يعجز أن يأتى بها إلا رسول صادق فإنها فوق طاقة البشـــر كانشـــقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، ونطق الذراع المسمومة، وسبح الحجر على الماء، وإدرار الشاة العجفاء، وإطعام الكثيرين من زاد لايكفى اثنين، ومن إبراء الأبرص، ورد العين المفقودة ومن إحياء الموتى كما ورد . وفى المعجـــزات الأخـــرى الـــتى شهدوها بأنفسهم . ومن إجابته على أسئلتهم التى هى من غوامض العلـــم والـــتى لايعلمها إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام . كل ذلك أعمى الحسد عيونهم عنـــه وجحدوه، لأنهم قوم بهت لم يأت نبى ولارسول إلا كذبوه وآذوه .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يعنى قوى فى انتقامه، قهار فى تعذيبه أعـــداءه، ومعـــنى : ﴿الْعِقَـــابِ﴾ المؤاخذة على قدر الجرم . (وهنا إشارة) أن شدة العقاب قد تكون فى الـــدنيا وفى الآخرة . أما فى الدنيا فهى الحرمان من الانتفاع فى الدنيا وذلك أشد من عـــذاب النار على الروح والسر .. وسرعة ذلهم وإهانتهم فى الدنيا بالجزية ونظر أهل الإيمان إليهم أنهم أعداء الله وأعداؤهم . ولولا أمر الله بأن نأخذ الجزية منهم لما أبقينا على وجه الأرض من يكذب رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ ويكذب الله تعالى، خصوصاً أيام أن كان لنا الحول والطول والسلطان . فرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ نعمة الله حقـــاً،

بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً و سعد السعادتين من آمن به واتبعه وشقى فى الدنيا والآخرة من كذبه وخالفه.

وأما فى الآخرة بالعذاب الشديد المؤلم، حيث لايكون هناك شفيع ولا نصير ولا ظهير يرد عنهم قدر الله تعالى وعذابه الذى توعد به من كفر وكذب رسوله ﴿ﷺ وآله﴾.

قوله تعالى :﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢١٢)

هذه الآية الشريفة مرتبطة بالتى قبلها، وكأنها بيان لسبب كفر الكفار وما سجله الله من القضاء عليهم فى استعدادهم لقبول ما هو شر فى الحقيقة ونفس الأمر وإنكارهم ماهو خير وسعادة ..

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾تكلم فيه المعتزلة بكلام تقتضيه مذاهبهم، ولو أنهم ذاقوا شميماً من المعرفة لسلموا لله أخباره، وعملوا بما علموا حتى يعلمهم الله ما لم يكونوا يعلمون – إسناد الفعل إلى غير الفاعل لا يقتضى الحكم من المجسمة أن الله تعالى هو المزين لهم، ولايحمل التجوز عند المعتزلة، وإقامة الحجة لغة العرب فى أنهم يسندون الفعل لغير فاعله فى مخاطبة بعضهم لبعض، والذى يجب أن نفهمه بعد اعتقادنا أن الفاعل المختار هو الله تعالى أن نتأدب بأدب الأنبياء والصديقين . قال الخليل عليه السلام ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ فنسب

المرض لنفسه . ثم قال : ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[1] وقال الرجل الصالح الخضر لموسى عليه السلام : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[2] ثم قال ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾[3] فنسب مايليق بالجناب المقدس إليه سبحانه، ومالايليق إلى نفسه أدباً منه .

والله جل جلاله كتب قدره الأزلى فى كتاب أخفاه عنا و لم يطالبنا به، وكتب أمره المحبوب فى كتاب آخر وأنزله إلينا وأمرنا باتباعه وتنفيذ أحكامه، فإذا منح سبحانه العبد الاتحاد فى الأمر والإرادة كأبى بكر فقد منحه السعادة القصوى، وإذا قدر نفى الاتحاد فى الأمر والإرادة عن عبدٍ كأبى جهل قدر عليه الكفر والامتناع عن اتباع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأمره بالإيمان . وليس لعبد أن يقيم الحجة بقدر الله على الله تعالى، اللهم إلا إذا أطلعه على سر القدر فإنه يتعبده بما أراد جل جلآله ولوكان فى ذلك مخالفة الأمر الظاهر، وحجة ذلك الخضر وموسى عليهما السلام فإن موسى أنكر على الخضر ما فعله مما قصه علينا القرآن المجيد . فثبت أن موسى لايسع إلا مامنحه الله الوسعة لقبوله فقال الخضر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[4] فـ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ جائز أن يكون زين ذلك شياطين الإنس والجن، بوسوسة من شياطين الجن فى قلوب الكفرة وإغراء الكفرة لأهل الجهالة المبعدين عن حظيرة الإسلام . ولاشك أن الكفر هو ستر الحقائق التى هى حق، كما أن الغفر هو ستر االحقائق التى هى باطل . فغفر وكفر وستر بمعنى واحد

---

(١) سورة الشعراء آية ٨٠

(٢) سورة الكهف آية ٧٩

(٣) سورة الكهف آية ٨٢

(٤) سورة الكهف آية ٧٨

. والذين كفروا هم الذين لم يؤمنوا بمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

هى تمتع الإنسان بلوازم الحياه الحيوانية فى تلك الدار من نزوله من بطن أمه إلى يوم موته . وتلك الحياة الدنيا هى انتفاع الإنسان بالحس والحركة والإرادة وهذه الحياة تزيد عن حياه البهائم السائمة بالإرادة والاختيار اللذين يتميز بهما الإنسان عن البهائم . أما حياة أهل الإيمان فى الدنيا لاتسمى بالحياة الدنيا بل تسمى بحياة الإيمان، لأن المؤمن العالم بالكتاب والسنة ليس فى الدنيا بل هو فى سجن قوى وذلك السجن هو أحكام الشريعة . أما أهل الدنيا فهم فى جنة لأنهم فى إطلاق لايتقيدون بشريعة، وهم كالبهائم السائمة أو الداجنة أو المفترسة بحسب مراتب أخلاقهم، متى تمكن خطيئة فعلها، أما المؤمن فإنه إن تمكن لايفعل خوفاً من الله تعالى فحياته ليست الحياة الدنيا، قال ﴿ﷺ وآله﴾: (الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَ جَنَّةُ الْكَافِرِ) ولايمنع الكافر عن فعل أكبر الكبائر بعد الكفر إلا القوة القاهرة . وهذا دليل خبث نفوسهم .

﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

وسبب نزول هذه الآية ماكان يحصل من كفار قريش ومن اليهود فى المدينة، ومن أهل النفاق فيها من الاستهانة والاستهزاء والاحتقار لفقراء المسلمين فى مكة كعمار بن ياسر ووالده ياسر وبلال وخبيب وعبد الله بن مسعود، وماعمله يهود المدينة ومنافقوها مع فقراء المهاجرين الذين فروا إلى الله ورسوله من

أموالهم وبيوتهم بمكة . والذين باعوا الدنيا ومافيها ليفوزوا بالسعادة الباقية عند الله يوم القيامة . يشنع الله تعالى فى هذه الآية على الذين دعاهم حب الــدنيا والجـــاه والرياسة إلى أن يكذبوا ما جاء به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جحدوا منهم، وجهلاً بأنفسهم وإنكاراً ليوم الحساب وهم مع ذلك يهزأون بمن كاشــفهم الله بالغيــب المصون الذى ثبت لديهم بخبر الله تعالى وبيان رسوله ﴿ﷺ وآله﴾، فتحققوا بــه تحققا يقيناً جعلهم ينظرون إلى الدنيا نظر من علم يقينا حقيقتها وســر إيجادهــا ومآلها، ،وأنها دار الابتلاء وكون الفساد وسفينة الآخرة، فسارعوا إلى النجاة منها بالعمل بما فرضه الله عليهم وبما رغبهم فيه .. فقوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّــذِينَ آمَنُــوا ﴾أى : من الذين صدقوا الله ورسوله .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

التقوى هى كمال الإيمان . والمعنى أن الله تعالى يقول : والذين عملوا بما علموا مراعين جانب الله تعالى والخوف من عقوبته والرغبة فى نيل مرضـــاته . وفى هذه الآية جذب من الله تعالى لقلوب المؤمنين أن يحافظوا على تحصــيل مقامـــات التقوى للفوز بما وعد الله به المتقين من الفوقية عنده . قوله : ﴿ فَــوْقَهُمْ ﴾ أى أن أهل الكفر بالله من طغاة قريش وضُلال اليهود بالمدينة ومنافقى المدينة الذين كانوا يسخرون من قوم صغَّر الإيمان فى قلوبهم متاع الحياة الدنيا الزائل، فتخففوا منهاو لم يتوسعوا فيها بل وقفوا عند الضرورى الواجب شرعاً . وتلك الســخرية كانــت منهم بسبب ما جعله الله لهم من مال ممدود وبنبن شهود استدراجاً لهم . فغرهم ما جعله لهم من زينة الحياة الدنيا واعتقدوا أن هذا هو السعادة ولا ســعادة بعــده، وسخروا بالمقبلين بكليتهم على الله وحكموا عليهم أنهم حرمــوا الســعادة الــتى

يعتقدونها، فكذبهم الله تعالى مبيناً لهم أن تلك السعادة التى جعلتكم فى غرور واستكبار وحملتكم على إهانة من عظمهم الله ستنقلب إلى عذاب وذل وهوان، حيث يكون الذين تسخرون منهم فى نعيم وبهجة فوق النعيم الذى كنتم فى الدنيا، ليزداد المتقون تقوى، ويدخل من هداهم الله من الكفار فى حظيرة الإسلام أو يزدادوا بعدا وقطيعة بتكذيب الآيات .

﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يتفضل الله على أهل التقوى بما أعده لهم سبحانه يوم القيامة من الرزق الجامع لكل خيرات الروح والعقل والجسم والحس، فللروح الأنس بالله تعالى والكلام المقدس، وللجسم النعيم المقيم الذى يلذ له من مأكل ومشرب وملبس ورياش وفراش وملامسة ومأوى، وللعقل الفرح بما يراه من الحقائق التى كان قد صدق بها بالحجة الشرعية حيث تنبلج أنوار معانى الصفات، وللحس البهجة بالمناظر العلية والسماع الروحانى والشميم العنبرى والمذاق الشهى والملبس اللين . وهذا الرزق الذى يتفضل الله به على خلقه يطمئن قلوبهم به لأنه من غير حساب، إذ إن خيرات خزائن الله تعالى لاتنتهى، وبذلك لايكون على تلك العطايا حساب، لأن الحساب إنما يكون عند من يخاف النفاذ كما يحاسب أهل الأموال المحصورة خوفاً على نفادها .

ولك أن تقول : إن الله تعالى جمل أهل التقوى بأخلاق التى هى معانى صفاته، فتفضل عليهم بتلك الأرزاق العظيمة لمقتضى تلك المعانى الربانية التى تجملوا بها من علم وحلم وصبر وشكر وتوبة وكرم وعفو، وغير ذلك من معانى صفات الأسماء الحسنى جميعها، فإن المؤمن ا لتقى صورة الرحمن وهذا معنى

قوله تعالى :﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لأن المؤمن التقى مـــتمكن فى مشاهد التوحيد العالية . وبرهان هذا التأويل قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّـــلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾[1] وأحسن ماعملوا التحقق بمشاهد التوحيد العالية التى يكون فيها التقى موقنا بلا حول ولا قوة إلابالله . وجـــائز أن يكون المعنى – يرزق الله من يشاء فى الدنيا قبل الآخـــرة العـــوارف والعواطـــف والتنزلات وشهود الغيب المصون .

قوله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّـــهُ النَّبِـــيِّينَ مُبَشِّـــرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَـــا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَـــدَى اللَّـــهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِـــرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢١٣)

يخبرنا ربنا جل جلاله أن الناس كانوا أمة واحدة، ولم يأت بيـــان عـــن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تقوم به الحجة على تعيين الناس . وقد ورد فى القـــرآن المجيد آيات كثيرة كهذه الآية، فجائز أن يكون الناس هم آدم وأبناؤه إلى ما قبـــل حادثة هابيل وقابيل وأن يكون شيث أول نبى بعث، وجائز أن يكون الناس مـــن آدم إلى نوح، ونوح أول نبى بعث . والأمة هى المجتمع الذى يكون على دين واحد وملة واحدة، وقد يكنى بالأمة عن الدين . وجائز أن يكون : أن الناس كانوا على عادات وأوابد اقتضاها الزمان والمكان والشأن، والأختلافات فطرة فـــآ الإنســـان لماركب فى جبلته من نزعات النفوس ولقس الطبع وميول الحظوظ والأهواء، فبعث

(١) سورة الأحقاق آية ١٦

الله النبيين بالبشائر والإنذار بعد قيام الحجة ووضوح المحجة، ليهتدى من هداهم الله ممن سبق فى علمه هدايتهم ويهلك من هلك عن بينة، والبشائر هى الأخبار بما يسر قبل أن يعلمه المخبر به بفتح الباء، والإنذار هو بيان عواقب المخالفات للشرائع التى تكبح نفوس أهل الغواية عن جماحها، وينكرها أهل النفوس العنادية الـــتى ســـجل عليها القرآن سوء العاقبة .

﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾

الإنزال معلوم وهو الهبوط من مكان عال إلى مكان سافل . وليس الأمر هنا كذلك، بل المراد به تفضل الله على من يشاء من خلقه بأن يوحى إليـــه مـــن روحه تتره وتعالى مابه هداية العباد أو إضلالهم، ويكون المراد فى الترول أن كـــلام الله تعالى على عظيم ولما للكلام من العلو والعظمة كان وصوله إلى الرسل علـــيهم الصلاة والسلام نزولا من على عظيم إلى عبد مضطر مسكين بحسب المكـــانتين . والكتاب هو المكتوب، والمراد به كل كتاب أنزل على الرسـل علـيهم الصـلاة والسلام من لدن نوح إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى مؤيدا بـــالحق فى نفس الأمر ولا يكون كذلك إلا ماكان من الحق سبحانه .

﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾

معنى هذا أن الله خلق الإنسان عاجزا عن أن يقوم بكل ضرورياته فضلا عن كمالياته، فهو محتاج إلى عمال كثيرين يقوم له كـــل واحـــد منـــهم بعمـــل مخصوص، فهو محتاج إلى مأوى يأويه، ولباس وفراش وطعام من أنـــواع كـــثيرة وشراب، وآلات دفاع يدافع بها عن نفسه فلا بد له من معاوضات يتبـــادل فيهـــا

المنافع مع بنى جنسه، وتلك المعاوضات تقتضى معارضات بعد مفاوضات فلابـــد للمجتمع من كتاب يبين لهم وجوه البر، ويدفع الظالم عن المظلوم، ويعطى كل ذى حق حقه بالعمل به، ثم لابد له أولا وبالذات أن يعرف نفسه وربه، فـــإذا عرفـــه وجب عليه أن يشكره بما يحبه منه، ولاسبيل للإنسان إلى معرفة ربه جل جلاله بما هو عليه بالنسبة للإنسان ولا أن يعرف محاب الله ومراضيه إلا بكتاب من عند الله يبينه له رسول أرسله الله إليه، لأن العقل الإنسانى وإن كمل لايمكن أن يصـــل إلى معرفة نفسه ولا معرفة ربه، بل ولامعرفة مايحبه الله منه ويرضى به عنه .

وهذا سر بعثة الرسل وإلا كانت بعثة الرسل عبثاً كما أن العقل الكامل لايمكنه أن يعلم ما فوق المادة من أسرار الغيب المصون من مراتب الوجـــود، بـــل ولايمكنه أن يحصل العلم بالمغيبات عنا كالبرزخ والبعث والحشر والنشر والحساب والجنة والنار، ولا مافوق ذلك من حظائر رضوان الله الأكبر وجمال تنزلاته لأهـــل محبته فى الدنيا والآخرة حيث يجلسهم على منابر من نور قدام عرشه . وإذا كـــان كل ذلك ليس للعقل أن يحصله بنفسه، كانت بعثة الرسل من أجل نعم الله تعـــالى علينا . قال سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَـــارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ ﴾(١) وذلك الســـلطان الـــذى ينفذ به الإنسان هو كتاب الله والعمل به .

ولما كانت الشريعة المطهرة أنزلها الله لمصالح العباد، وكان أجل المصـــالح نشر العدل بينهم، جعل الله حكمة إنزال الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفـــوا فيه، والمراد هنا بالناس من وهب الله لهم االقابل ليذوقوا حلاوة الإيمان ولذة التقوى

---

(١) سورة الرحمن آية ٣٣

وهم الذين يقبلون شرائع الله تعالى . وجائز أن يكون الحكم بالكتاب متعينا أن نقوم به على كل كافر عند التمكين فى الأرض كما كان فى عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومن بعده من عمال الله الذين كانوا يعملون بكتاب الله وسنة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾. وإنى لعلى يقين أننا جماعة المسلمين إذا رجعنا إلى ماكان عليه سلفنا الصالح يمكن الله لنا فى الأرض بالحق، فيكون الدين كله لله بأن تكون أحكام القرآن منفذة على المؤمن والكافر رغم أنفه

﴿ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾الاختلاف فى العقيدة والعبادة والأخلاق يجب أن يرفع من اختلفوا فيها أمرهم إلى من هو أعلم منهم بالله وبأحكام الله وأيام الله وبحكمة أحكام الله، فإذا قامت الحجة ووضحت المحجة وجب على المختلفين أن يسمعوا ويطيعوا . ويكون الاختلاف أيضا فى المعاملات وفى الصناعات وفى التعهدات وفى الأنكحة والمواريث والخصومات، ولايتكلم فيه إلا أمير أو مأمور حتىإذا تكلم بما أنزل الله فى كتابه أو بما بينه رسول الله وأئمة الهدى من بعده وجب على ولى الأمر أن ينفذ هذا الحكم رغم أنف المتخاصمين .

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

والمعنى أن الله يبين لنا أن الذين اختلفوا فى الكتاب الذى أنزله الله على رسله السابقين، هم الذين أنزله عليهم وهم اليهود والنصارى . و لم يكن اختلافهم إلا بعد إنزال الكتاب، لأن الله سبحانه قدر أن ينسخ الشرائع بموت الرسل، و لم يحفظ شريعة بعد رفع الرسول الذى أنزلت عليه إلا شريعة الإسلام، قال تعالى :

﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [1] يعنى محمداً ﴿ ﷺ وآله﴾. فكان اختلاف الأمم بعد رسلهم محمولاً على الفترة، و لم يكن الاختلاف معتدا به مؤاخذا عليه إلا ماوقع فى زمن الرسل عليهم الصلاة والسلام، كاختلاف بنى إسرائيل على موسى عليه السلام فى عصره .

ولما أن بعث الله رسوله محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ أنزل عليه دينه بالحق التـــام الكامل، الذى جاء به كل الرسل من لدن نوح إلى عيسى عليهم السلام، فجمـــع الله فيه ماأنزله فى توراة موسى وإنجيل عيسى ومزامير داود وحكمة سليمان، وكان ماأنزله الله فيه مبيناً فى الكتب السالفة . ولكن أهل الكتاب الذين شنع الله علـــيهم بأهم أهل الفرية غيروا كل ذلك وبدلوه، خصوصاً مـــايتعلق ببعثـــة رســـول الله ﴿ﷺوآله﴾، لأهم كانوا يستظهرون على قريش والأوس والخزرج ببعثته وأنه قرب ظهوره وأهم سينصرونه عليهم، فلما بعثه الله حرفوا وبدلوا وغيروا ماكانوا عرفوه قبل بعثة ﴿ﷺ وآله﴾. وجعلوا يو السبت للعكوف علـــى العبادةعنـــد اليهـــود، وجعلوا يوم الأحد للعبادة عند النصارى . واليوم الذى عينه الله لعبادتـــه خاصـــة هويوم الجمعة .

واختلفوا فى الصلاة، فكانوا إذا سافروا لايصلون حتى يرجعوا إلى بيـــت المقدس مع أن فريضة الصلاة أوجبها الله على كل مؤمن فى أى أرض نـــزل بهـــا، وجعلوا الصلاة على غير ما فرضها الله تعالى فى أفعالها وأقوالهـــا . واختلفـــوا فى الصيام وكان المفروض عليهم رمضان، فمنهم من يصوم نصف يوم ومنـــهم مـــن يصوم يوماً ومنهم من يصوم ثلاثة أيام . وأما النصارى فقـــد اختلفـــوا فى ذلـــك

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٠

اختلافاً دل على محاربتهم للحق . واختلفوا – قـبحهم الله فى الأنبيـاء فجعلـوا سليمان ساحراً وداود ملكا ظالماً، وجعلوا عيسى ابن الله، واختلفـوا فى إبـراهيم ولوط وموسى، حتى جاء خاتم الأنبياء عليه أفضل وعليهم الصلاة والسلام فكشف الله به غمة الضلالة وأظهر به الحقائق جلية .

فقوله تعالى : ﴿ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ مستثنى من فاعل : " اخْتَلَفَ " المقدر وتقديره أحد . فثبت الاختلاف للمستثنى : ﴿**الَّذِينَ أُوتُوهُ** ﴾. وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ يعنى أن هذا الاختلاف كان هوى وحظا منهم بعـد بيـان الحقائق التى لاتحتمل التأويل ولا الشك – ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ توكيـد للمسـتثنى أو مستثنى ثان تقديره : وما اختلفوا إلا بغيا، أى تعدياً حدود الله تعالى وخروجاً عن الوسط، لأن البغى هو تجاوز الحد الوسط فى كل شـىء فيقـال : بغـى المطـر والبحروالريح .

﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾

الهداية : هى البيان والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه . والمعنى : أن الله تعـالى بين الحق الذى حصل فيه الاختلاف من اليهود للذين آمنوا، ووفقهـم سـبحانه للعمل به . والاختلاف الذى اختلفوا فيه بينته لك، وذلك فى يـوم الجمعـة وفى الصيام والصلاة وفى الأنبياء الذين ذكرهم قبل . فصـرنا والحمـد لله وإن كنـا الآخرين فنحن الأولون بعملنا بما أنزل الله على رسله الأولـين علـيهم الصـلاة والسلام فى الجمعة والصلاة والصيام . وحفظ الله بما أنزله علينا مقامـات رسـله الكرام، فنحن نعتقد أن إبراهيم خليل الله، وأن لوطا رسـول الله المعصـوم، وأن موسى كليم الله، وأن داود وسليمان وعيسى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم

. وهذه هى هداية الله لنا بإذنه سبحانه وتعالى، أى بأمره الذى أنزله إلينـــا علـــى لسان رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

يعنى أن الله تعالى قدر الهداية قبل وجودنا، بل قبل كوننا، بل قبل الأفلاك والأملاك بعلم وحكمة وقدرة فهو سبحانه وتعالى ينفذ ماقدره أزلاً، فقد يرفع أقل المماليك إلى أن يجعله نبيا حكيماً كلقمان، ورفع أحقر المماليك إلى مقام الصديقية كبلال وياسر وعمار وسمية وحارثة مولى حذيفة رضوان الله عنهم وغيرهم . وقد يضل من نسب إلى خير رسول كابن نوح عليه الصلاة والسلام ولايسأل عما يفعل – وهذه الآية أوقفت العلماء والعباد والزهاد عند مقام الأدب مع الله تعالى، فإهم رضى الله عنهم مع ما أقامهم الله فيه من العمل فى محابه ومراضيه تذوب قلوهم من خوف السابقة والخاتمة، وهذا الخوف هو حصن الأمن . أسال الله تعالى أن يجملنا بجمال الأدب لحضرته العلية ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾.

قوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّـــا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْـــرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤)

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه لما هاجروا إلى المدينة عاداهم اليهود، وكانوا خرجوا بعد ترك أمـــوالهم وبيـــوقم فى مكـــة

فأصابتهم فى المدينة شدة، ثم حصل بعد ذلك واقعة بدر فأحد، وكان فى أحد مالا يطاق من الشدة والبلاء فأنزل الله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾وقد نالهم من الشدة والــبلاء فى الــدعوة إلى الحــق والعمل به بين أعداء الله ماتنوء به الجبال، وأنتم أقمتم هذا المقام — هل ترضون أو تصبرون على ما يصيبكم مما أصابهم وأكثر وتلك الآية مدنية . فالله تعالى يخاطــب رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويخاطب الأمة جمعاء إلى يوم القيامة بعدما تقدم من الآيات : ﴿ أَمْ حَسِبْتُم ﴾ أى ظننتم أن تدخلوا الجنة التى أعددتها لأحبائى وأوليائى فى راحة من أعدائى .

﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَــاءُ وَالضَّــرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾

أى يأتكم من البلاء والشدة شبه الذى جاءهم من تســليط أعــداء الله عليهم وأذيتهم وفصل ما أجمله فى قوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فقــال سبحانه : ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ فالبأساء كل بلاء فى مال أو تسليط من ظالم أو تضيق من عدو قاهر . والضراء كل ما أ لم بالجسم من مرض وآلام من الحروب – ومعنى ﴿ زُلْزِلُوا﴾أى أهينوا بانتقالهم من مكان إلى مكــان آخــر لأن زلزل مأخوذ من زال فإذا كثرت الإزالة قيل زلزل

﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّه ﴾

بعد أن بين سبحانه الشدائد التى قد يطيقها أهل اليقين الكامــل ذكــر النهاية العظمى فى الشدائد فقال :

﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ ورواية نافع برفع اللام وغيره يرويها بنصب اللام وحتى هنا غائية . وذلك منتهى الشدة، فإن الحالة إذا بلغت إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يضجر ويقول ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّه ﴾ تكون قد تجاوزت الحد الذى تطيقه نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن علم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يشكوا فى تحقق النصر من الله وإنما كان الاستفهام عن زمانه قرباوبعدا، وذلك من يكونون معه من أهل الإيمان الكامل فالهم جميعا لم يشكوا فى أن الله وعدهم النصر وهو سبحانه ناصرهم .

وليس لأحد أن يسأل كيف يبلغ بالرسول أن يضجر فيقول : ﴿متى نصر الله ﴾ لأن الرسول عبد من عبيد الله تجوز عليه أعراض البشرية وله مقدار الصبر والرضا خصوصاً فى مقام اليقين بتأييد الله له، وفى قوله : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّه ﴾ إظهار كمال العبودية والعجز أمام الله تعالى خصوصاً فى مقام نصر الله تعالى وإعلاء كلمته . والالتجاء إلى الله عند الشدة عبادة لله وتبرئة العبد من الحول والقوة إلا به سبحانه . والواجب على كل مؤمن أن يتأدب بآداب أصحابه ﴿ﷺ **وآله**﴾، ويلتجىء إلى الله عند كل شدة، وبضرع إليه سبحانه عند كل خطب .

﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

ابتداء الآية ب﴿ **أَلا** ﴾ لتصغى قلوبهم إلى مابعدها، ثم أتى بحرف التوكيد لتطمئن قلوبهم، ثم قال : " نصر الله قريب " ليشرح صدورهم ويؤانسهم بسرعة إغاثته لهم . وجائز أن يكون الذين قالوا أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فأجابهم بقوله : ﴿ **أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ وسياق الآية يدل على أن هذه الكلمة كلمة

الله تعالى ومن هذا نعلم أن كل داع مضطر يجيبه الله تعالى، فمنهم من يسمع عـــن الله بما يرد عليه فى قلبه الطمأنينة . ومنهم من يدعومؤقناً كأنه سمع سرعة الإجابـــة ويقين الداعى أنه يسأل قوياً قادراً مجيباً .

قوله تعالى :﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُــلْ مَــا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَــاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُــوا مِــنْ خَيْــرٍ فَــإِنَّ اللَّــهَ بِــهِ عَلِيمٌ﴾(٢١٥)

لأهل القلوب فى هذه الآية الشريفة شميم من فهم حكمة اتصالها بالآيـــة السابقة، فإن الآية السابقة تجعل أهل الإيمان يوطدون أنفسهم على استقبال الشدائد والبلايا قياما بالواجب عليهم من دعوة أهل الكفر بالله إلى الإيمان . ومن العمـــل بينهم بشرائعه، ويتحملون مرارة الصبر على جهاد أنفسهم فى ذات الله مسارعة إلى العمل بكل شعب الإيمان بقدر استطاعتهم، فإن الله تعالى يقول لرسوله محمـــد ﴿ ﷺ **وآله**﴾: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [(١)] وثقله عليه ﴿ ﷺ **وآلــه**﴾ مـــن حيث تلقيه من لدن حكيم عليم، ومن حيث دعوة أهل الجاهلية إليه، ومن حيـــث العمل به على الوجه الأكمل . أما ثقله علينا من حيث دعوة أهل الكفر بـــالله إلى الإيمان ومن حيث العمل به فلما فى ذلك من جهاد النفس الفادح الـــذى يجعـــل القائمين به : ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِـــنَ النَّبِـــيِّينَ وَالصِّـــدِّيقِينَ وَالشُّـــهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾[(٢)]

---

(١) سورة المزمل آية ٥

(٢) سورة النساء آية ٦٩

وبعد تلك الآية يخبرنا ربنا بقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُــونَ ﴾ وهــى حقيقة لا مراء فيها، وهذا السؤال لابد أن يكون ممن توفر عندهم الخير وجهلــوا الوجوه الاتى يحب الله الإنفاق فيها مسارعة لنيل مرضاته، ولا يجوز أن تكون تلك الآية بشرى لهم لأنهم سيحصل لهم الغنى حتى يسألوا بلسان حالهم . وعنــدى أن تلك الآية حجة قائمة على سرعة إغاثة الله لعماله المخلصــين، وقريــب نصــرته للمجاهدين، وبها يحصل اليقين الحق لكل فئة من المسلمين أقامها الله تعالى مقــام العمل لإعلاء الكلمة وإحياء السنة – مهما كان العدو المناوىء قويا لأن الإخلاص لله قائد القوم .

قوله تعالى ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ جائز أن تكون (ما) مبتدأ و(ذا) خبرها – وجائز أن تكون : ﴿ مَاذَا ﴾ كلها كلمة، وهى استفهام عن نوع ماينفق – ولمــا كان الإنفاق معلوما أنه من الخير أى (المال) كان المراد بالاستفهام عن الأنــواع التى ينفق فيها هذا الخير دليلاً على أن الله أجابهم عما يريدون بالاســتفهام فقــال سبحانه : ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْــنِ السَّبِيلِ ﴾

للوالدين الذين جعلهما الله سببا فى إيجادك وحفظ حياتك لأنهما عنايــة الله ورحمته بك وحنانه، فإن الإنسان لم ير الله تعالى يحسن إليه ويــوده ويتــولاه ولكنه رأى والديه، فإذا كفر بنعمة الله عليه بالوالدين كان كفــره بــالله أولى . وللوالدين على الإنسان من الحقوق ما جعل الله تعالى يقول : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[(١)] ويقول سبحانه : " وقضــى ربــك ألا

(١) سورة النساء آية ٣٦

تعبدوا إلا إياه وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا "فابتدأ بهما لما لهما من الواجب المقدس على الإنسان . وقد تعرف سعادة الولد فى الدنيا والآخرة ببر الوالدين ويعرف شقاؤه فيهما بعقوقهما .

﴿ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ والأقربون هم من يجمعهم وإياك أصل قريب أو بعيد كل بحسبه من أبناء وأبناء أبناء وأخوة وأخوات وخئولة وعمومة وما يدلى إليهما والأولى بعد الوالدين أهل القرابة والقربى ثم مايليهم . وحكمة ذلك أنهم كأعضاء بدنك فى الرخاء والشدة وأعوانك فيهما، وقد يكون لهم حق عليك فى صغرك أوجبه ماقاموا به لك شرعا .

﴿وَالْيَتَامَى ﴾ جمع يتيم واليتيم هو من مات أبوه ففقد العائل أو ماتت أمه ففقد الرحيم به أو ماتا معا ففقدهما، وقد ذكره الله تعالى بعد الوالدين والأقربين لاحتياجه إلى العائل والرحيم، ومن يقوم بالإحسان إليه يكون كمن أحيا نفساً من الموت أوأنجاها من الوقوع فيه، وتلك الحقائق تجعل أهل الإيمان بالله يؤثرون اليتيم على أنفسهم لما جملهم الله به من العطف والرحمة .

﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ سبق لنا تعريف المساكين، وذكرهم الله تعالى بعد اليتامى لأن حالتهم تستدعى الرحمة بهم، والانفاق عليهم يكون خالصاً لله تعالى لايشوبه شوب رياء ولاعلة إلانيل رضوان الله الأكبر وكفى بذلك دليلا على محبة الله للعبد حيث أقامه فيما يحب ،

﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ هو ابن الطريق المسافر، خصوصاًإذا كان سفره لطاعة كطلب علم أو حج أو صلة رحم أو هجرة لطلب معاش، وكل تلك الأحوال تقتضى الاحتياج المؤدى إلى الرحمة به وإنما قدم الله الوالدين والأقربين واليتامى

لعجزهم عن السؤال، وإنما أخر ابن السبيل لأنه تعود سؤال الناس . ولاينبغى للولد أن يحوج والديه، ولا للغنى أن يحوج أقاربه ولا الأيتام إلى السؤال مع قدرته علـــى كفايتهم .

ونظم الآية يقتضى الترتيب وإن كانت الواو لاتفيده، فالولد يبدأ بوالديه أولاً ثم بأبنائه فإخوته وزوجته فاليتامى والمساكين .

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

بعد أن بين سبحانه مايحبه فى الإنفاق ومن يحب أن ينفق عليهم، رغبنـــا سبحانه فى نوافل الخير التى بقيامنا بها تنال محبته الخالصة كما قال ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ بسند البخارى : (وَلا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتّى أَحِبَّهُ) وفى هذه الآية إشارة إلى أن مانفعله مما زاد على مافصله لنا من البر ونوافله يعلمه سبحانه وتعالى فيتفضل علينا بإحسانه الذى لاتعلم مقداره النفوس ولا العقول .

ومعنى الآية كل عمل من الخير عملتموه تقرباً إلى فأنا أعلمه . وكيف لا يعلمه وهو الموفق والمعين عليه والمتفضل به ؟ وما أقامنا فيه إلا لننال مزيد إحسانه فى الدنيا والآخرة . وفى هذه الآية أنس لأرواح من وفقهم الله لنوافل الـــبر بعـــد قيامهم بفرائض الله تعالى، أما من أهملوا فى تأدية الفرائض وسارعوا إلى النوافل فهم الجهلاء السالكون على غير الصراط المستقيم وهم كثير من الذين يجهلون واجـــب الوقت، فقد يكون يقتضى جهاداً فيعكفون على الزوايا والخلوات، وقـــد يكـــون مقتضى الوقت أسعى للنفقة على من أوجبت عليهم الشريعة النفقة عليه فيتركـــه ويصوم ويقوم ويقتضى الوقت الدعوة إلى الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

والوقوف فى وجوه الظلمة فيخاف على شهرته أو على مالـه أو جاهـه ويتـرك واجب الوقت، وهو مع تركه يسارع فى النوافل وينسى أن الإيمان بضع وسـبعون شعبة من ترك شعبة منها نقص إيمانه . وهذا كله بعـد أن تتـوفر الشـروط فى الشخص من علم وتقوى وإخلاص وإيمان بيوم القيامة .

قال بعض العلماء : هذه الآية منسوخة بآية الميراث . والحقيقة أنها محكمة وليست منسوخة، لأن السائلين أحياء وهذا الواجب واجـب علـى الأحيـاء، وأحكامها بعد الموت أنزلها الله تعالى بعد آية الميراث ولو كانت بعد هذه إلا أنها لم تنسخها . وقال بعضهم إنها منسوخة بآية الزكاة . وعندى أنها ليست منسوخة بها، لأن الوالدين والأقربين الذين تجب عليهم النفقة شرعاً كالأولاد فالإخوة والأخوات الصغار يجب على الوالد والولى النفقة عليهم، أما اليتامى والمساكين وأبناء السـبيل فإنهم عينهم الله تعالى لينفق المؤمن عليهم عند ضرورتهم إلى ذلك من الزكـاه إن كان بقى شيء منها ومن غير الزكاة إن كان أخرجها فى وجوهها . فإن الله جعل فى الأموال حقوقاً غير الزكاة، كإكرام الضيف والجيران وإغاثة الملهوف ودفع الغرم عن المدين ،. والإغاثة فى وجوه البر العام والخاص بحسب واجب الوقت .

قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْـتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦)

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لم يـــأذن لرســـوله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ ولأصحابه بقتال أحد من المشركين مدة الإقامةفى مكة، حـــتى أيـــده الله تعـــالى بالأنصار من الأوس والخزرج بعد الهجرة إلى المدينة، ثم أذن له ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ أن يقاتل من يقاتله . ثم بقتال المشركين . ثم أذن له بالجهاد عامة فى هذه الآية الشريفة . وقد تقدم فى تأويل : " كُتِبَ عَلَيْكُمُ " فالقتال فرض على رسول الله وأصحابه، وعلى المسلمين جميعاً إذا احتل العدو محلتهم بشروطه على كل من يعينهم الإمـــام العدل، فهذه الآية تفرض القتال على كل مسلم فى زمان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ثم صار القتال فرض كفاية إذا قام به جماعة من المسلمين سقط عن الباقين .

وعلى ذلك فالخلاف بين العلماء إذا تقرر هذا الحكم يصير خلافاً لفظياً، فإن بعض العلماء رأى أن القتال فرض على كل مسلم وذلك يكـــون إذا احتـــل العدو محلتهم، ويكون فرض كفاية لدعوة أهل الكفر بالله إلى الإســـلام إذا كـــان جماعة المسلمين فى أمن .

وعلى مدلول هذه الآية يكون الجهاد متعينا على كل مسلم، لأن العـــدو احتل أكثر بلاد الإسلام ولا يسلم من هذه الحكم إلامن كان متحيزا إلى فئـــة أو متحرفا لقتال، أما من رضى بولاية الأعداء وسكن إليها أو انتصر بالأعداء علـــى إخوته المسلمين فقد حكم عليهم القرآن بما حكم، قال تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًـــا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَـــوْ كَـــانُوا آبَـــاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [1] الآية . وقال تعالى : ﴿لا تَتَّخِذُوا الْيَهُـــودَ

(١) سور ة المجادلة آية ٢٢

وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (١) ولاتجد أمة تركت الجهاد إلا سيمت الخسف وجللت بالخزىوالذل لمن كانوا يبايعون فى أسواقهم أو كانوا أتباعاً لهم .

﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾

الكره بضم الكاف أن يلقى المرء بنفسه فى اقتحام الشدائد الفادحة . والكره بفتح الكاف أن يقهر غيره على اقتحام الأخطار (كُرْهٌ لَكُمْ) بضم الكاف أى أنه عمل يؤلم النفوس، ولكنكم تقومون به اتباعا لأمر الله تعالى رضاً من أنفسكم، والله تعالى يكشف الحقيقة : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

﴿ وَعَسَى ﴾ هنا لتحقيق الوقوع كلعل فى القرآن كأنه يقول سبحانه وتعالى : وما تكرهون من القتال فى الدنيا هو خير لكم فيها وفى الآخرة — أما فى الدنيا فبما تفوزون به على الأعداء ومن الغنيمة ومن الشهادة وذلك هو الخير العظيم فى الدنيا وأما فى الآخرة فلما يتفضل الله به علينا من أن يترلنا مقعد صدق عنده سبحانه فى جوار الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . وكأن القرآن يبين لنا أن كل ماكان مؤلما لأبداننا متعبا لها مبغوضا لدينا من عناء فى الجهاد أو فى الحج والصيام والصدقة فهو خير لنا فى دنيانا وآخرتنا، فى دنيانا لحفظ صحتنا بالصيام والحج وحفظ أموالنا وشرفنا بين إخواننا بالصدقة وحفظ ديننا وتمكيننا فى الأرض بالحق وفى آخرتنا الفوز بالنعيم المقيم .

(١) سورة المائدة آية ٥١

﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾

يكشف الله تعالى الحجاب عن الحقائق التى يميل إليها سوء الطبع إلى حد الحسد والحرص والطمع ومن خبث النفس الأمارة بالسوء وغيرها، وهو وإن كان ملائما لطباعنا فهو شر فى الدنيا والآخرة، وأما فى الدنيا فإنه يفسد الصحة ويضر المرء فى دينه وماله وعرضه وشرفه . وأما فى الآخرة فإن الله توعد عليه بالعـــذاب الأليم . وصدق الله العظيم : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾

يخبرنا ربنا جل جلاله أنه هو الذى خلقنا وأمدنا وكوَّن حقائقنا، وأحاط علما بما ينفعها فى الدنيا والآخرة وما يضرها . وبين لنا سبل المنافع والمضـــار، و لم يحظر علينا سبحانه أن نترك ما ينفعنا على الوجه الأكمل، بل أباح لنا مالابدلنا منه وأكمل، بل يسَّره من حيث ما تميل إليه النفس الشهوانية والغضـــبية والملكيـــة . وأظهر لنا مضار ما حرمه علينا من حيث الشهوات والأخلاق والمعاملات . ومن حيث ما يحبه ويرضاه من العقيدة والعبادة مما نطيقه مع حفظ حياتنا وصحتنا ومالنا ورفعتنا فى الدنيا والآخرة، أو بفقد حياتنا إذ علم سبحانه أن بقاءها لا يليق بالمؤمن لأن الله جعل العزة للمؤمنين، فأمرنا بالجهاد وهو كره لنا ليحفظ لنا تلك العزة ما دمنا أحياء، فيوجب علينا سبحانه أن نرجع إلى علمه بنا الذى رتب عليـــه الأمـــر والنهى، ونعتقد أننا لا نعلم ما يضرنا ولا ينفعنا فإذا نحن أطعنا هوانا وسارعنا إلى ما يلائمنا فى العاجل غير ناظرين إلى ما ينتجه من المضار فى تلك الـــدار العاجلـــة والآجلة . حاق بنا الضرر فى الدارين ﴿ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى لم تنكشف لكـــم أسرار الغيوب المقدرة عليكم لابتلائكم واختباركم . فإنا نرى أنفسنا إذا خالفنـــا أهل الرأى منا والحكمة حصل الخسران والدمار للمخالفين وهم أنـــاس أمثالنـــا، فكيف بمن أمر خالف أمر الله ونهيه وهو العليم الخبير ؟

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢١٧)

سبب نزول هذه الآيةأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كتب كتابا إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح ﷺ وأمَّره على سرية، وكان يحرص على مجالسة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فبكى صبابة وحسرة خوفا من فراق رسول الله ﴿ﷺوآله﴾، حتى كاد يموت من ألم الفراق . فأعطى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الكتاب لعبد الله بن جحش وأمره أن لا يقرأه إلا بعد يومين من سيره وأرسل معه سبعة رجال هم : عمار بن ياسر، وأبو حذيفه بن عتبه بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان السلمى، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعى حليف لعمر بن الخطاب .

ولما وصل إلى بطن ملل بعد مسير يومين قرأ الكتاب فإذا به أمر من رسول الله وهو﴿ ﷺ وآله﴾ : إذا نظرت إلى كتابى هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . فقال ﷺ : السمع والطاعة، وخيَّر أصحابه فى السفر معه أو الرجوع إلى المدينة فاختاروا السفر معه وضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فاستأذنوا الأمير أن يتأخروا للبحث عنه، ومضى عبد الله بن جحش ومن معه حتى وصلوا بطن نخلة بين مكة والطائف فوجدوا عيرا لقريش معها رجال منهم، وهم عمرو بن الحضرمى وعثمان

بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان، فانزعج أصحاب العير لما رأوا السرية فحلق رجل من الصحابة رأسه وتعرض لهم فقال أصحاب العير هؤلاء عمار وأمنوا جانبهم، وتشاور عبد الله بن جحش مع أصحابه فى مناوأتهم وقالوا : إن دخلوا الحرم تحصنوا منا وكان اليوم بحسب علمهم آخر جمادى الثانى والليلة المقبلة مستهل رجب، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم أصاب مقتله، وهجموا عليهم فأسروا رجلين وهما عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وفر الثالث وهو نوفل بن عبد الله، ورجعوا بالعير والأسيرين للمدينة . فكره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ القتل فى رجب، فقال عبد الله بن جحش : إنا لا نرى هلال رجب فى الليلة التى قتل فيها واقد بن عبد الله بن الحضرمى وكنا نعتقد أننا فى جمادى، فأوقف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ العير والأسيرين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، فأنزل الله تلك الآية بعد السؤال عن حكم القتل فى الشهر الحرام وفى البيت الحرام .

وقد تقدم تفسير قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ أى عن قتال فيه، فقتال بدل اشتمال من الشهر الحرام : وفى رواية يسئلونك عن الشهر الحرام عن قتال فيه فأجاب الله السائلين : قل يامحمد : ﴿ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ فقتال مبتدأ خصصته كلمة (فِيهِ) فسوغت الابتداء به لأنه نكرة، وقوله : ﴿ كَبِيرٌ ﴾ خبره . والمعنى — القتال فى الشهر الحرام من المسلمين بحسب الدين ومن كفار قريش بحسب العوائد التى ورثوها عن آبائهم كبير عند الله تعالى، بمعنى الخطيئة الكبيرة، والمبتدأ والخبر فى محل نصب فى مفعول القول والهاء التى فى ﴿ فِيهِ ﴾ عائدة على الشهر الحرام .

ثم يبين الله تعالى ما عليه المشركون من الكفر والضلال أنه شر و أكبر من قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام فقال الله تعالى : ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

﴿وَصَدٌّ ﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء بها تخصيصها بالجار والمجرور وما بعدها معطوف عليه و﴿ أَكْبَرُ﴾ خبرها : والمعنى : وصد المسلمين عن الصلاة فى المسجد وعن الحج والعمرة ﴿وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ أى والكفر بالله فى الحرم وفى الشهر الحرام بعد دعوتهم إلى الإسلام بالحجة الباهرة والمعجزة القاصمة للظهور .

﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

﴿ **وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ** ﴾ وهم سادة الحرم وأهل الحق والمراد بهم رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وأصحابه الذين أخرجهم كفار قريش، هذه الخطايا التى كل خطيئة منها كفر بالله وبرسوله أكبر إثما عند الله تعالى من قتل واقد بن عبد الله التميمى لعمرو بن الحضرمى فى الشهر الحرام ،حتى ولو ثبت أنه قتله معتقدا قتله فى الشهر الحرام مع أنه ثبت وقوع الحادثة فى آخر جمادى الثانية على حسب عقيدة القاتل فلم تقع منه مخالفة بحسب علمه، فكيف تعاير قريش المسلمين فى مكة بوقوع هذا الحادث الذى لم يتحقق حصوله فى الشهر الحرام ؟ وقريش ترتكب الخطايا التى كل خطيئة منها كفر بالله فى البيت الحرام والشهر الحرام غير خائفة من الله تعالى ولا من عقوبته ..﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾كلمة معترضة بين الجملة المتحدة، وجائز أن تكون معطوفة على ﴿ قِتَالٌ ﴾ الأولى فيكون المعنى : ويسئلونك عن الشهر

الحرام عن قتال فيه، وفى المسجد الحرام أخرت لأن السؤال موجه إلى الحادثة الـــتى وقعت فى الشهر الحرام، وكان المراد السؤال عن القتال فى الشهر الحرام والمســـجد الحرام . وجائز أن تكون معطوفة على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويكون المعنى – وصد سبيل الله وعن المسجد الحرام .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

الفتنة هى كيد الكفار للمسلمين ليرتدوا عن دينهم، السعى فى أذيتـــهم وإضرارهم ليشتغلوا عن الدين وهى فى الحقيقة ونفس الأمر أكبر عند الله من قتـــل واقد بن عبد الله التميمى لعمرو بن الحضرمى، وهنا أبين لك سرا مـــن حكمـــة الجهاد وقهر أعداء الله .

معلوم أن الله بعث محمدا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ رحمة للعالمين، وكان مقتضـــى الرحمة أن لايجرى الله على يديه إهراقاً للدماء ولا انتقاما من الأعداء . ولكنى أقول لك : إن الجهاد وإهراق الدماء من الأعداء هو الرحمة العظمى للعالم أجمـــع، لأن المشركين بعد إقامة الحجة وظهور الدلائل على التوحيد وبيان مناهج الله تعالى التى بها نيل السعادتين يكون المنكر لها والصاد عنها والمعاند لها ليس فى الحقيقة من بنى الإنسان، وإن ولد من والدين آدميين، فإن المعتبر هنا النفوس لا الأجسام . والنفس الإبليسية الخبيثة إذا منحت الجنود المطيعة كالسمع والبصر والشم واليدين والرجلين والعقل الإنسانى كانت شرا على المجتمع من الشيطان الرجيم، وأضر عليـــه مـــن الوحوش المفترسة، لأنها أعاذنا الله من النفس الأمارة بالسوء ومن الطبع الخبيـــث، توقع الناس فى الإفساد فى الأرض بالباطل وبإهلاك الحرث والنسل وكل مايتولـــد منها يكون شراً، ومن الرحمة استئصالهم من على وجه الأرض، فإن الواجب على

كل مسلم إذا استطاع أن يقتل الوحش الكاسر والثعبان القاتل وتركهما وقـع فى خطيئة كبرى، مع أن الوحش الكاسروالثعبان القاتل نهاية ضررها إهـلاك رجـل بالموت والموت لابد منه .

أما هؤلاء الأناسى الذين خبثت نفوسهم فإنهم يهلكون الناس فى الـدنيا والآخرة، فالهلاك بهم شر مستطير واستئصالهم هو الرحمة، ونحن نـرى أن سـيدنا عيسى عليه السلام قال : بعثت بالسلم . فأهلك الله كل من ادعى اتباعه، لأن النفـوس الخبيثة بقيت مزدوجة مع النفوس الطيبة فأوقعها خبثها فى الكفر الصـريح باتخـاذ عبسى ابنا لله تتره الله تعالى عن الوالد والولد، والحكمة بتر العضو الـذى يفسـد الجسم وبتره هو الرحمة والكفار مرض وبىء فى المجتمع، يجب على أهل الإسـلام استئصال المشركين منهم، والضرب على أيدى غيرهم من أهل الكتاب لتمـنعهم الذلة من الظهور بالباطل على أهل الحق . فسيف الإسلام المسلول على أعناق أهل الكفر بالله وأهل الظلم والتعدى هو المشرط فى يد الحكيم الرءوف الرحيم، الـذى يحرص على سلامة الجسد ليعيش حيا عاملا نافعا فينـال السـعادتين . ومـاترك المسلمون الجهاد والظهور على أعداء الله إلا سيموا بالخسف وجللوا بالذل وكانوا سفلة ليسوا من الإسلام فى شىء، وما تقول فى مسلم رضى بالحياه الدنيا وزينتـها ونسى يوم الحساب إذا لم يكن متحيزا إلى فئة أو متحرفا لقتال ؟ الحكم لايخفـى على مسلم بمعناه، واعتبار هؤلاء مسلمين جهل بحقيقة الإسلام وروحه .

وكان رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم **وآله**﴾ يعظم الشهر الحرام فلا يقاتـل فيـه إلا دفعاً، بمعنى أنه إذا هاجمته الأعداء فى الشهر الحرام قاتلهم ليدفعهم حـتى قـال الله

تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[١] وقــال تعــالى : ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾[٣] فأحكم الله آيا ته وصدق الله العظيم – ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أى وارتداكم عن الإسلام بسبب كيدهم، خصوصاً زماننا هذا بما يقوم به مستعمرو أوربا كفرنسا وغيرها من قهر المسلمين على النصرانية بسبب ما ينشرونه من الأباطيل وما يقومون به من الانتقامات الفادحة، كل ذلك بين الله لنا أنه أكبر من أن نقتل فى سبيله ولأن نقتل فى سبيله على الإسلام فنفوز بالسعادة الدائمة فى جوار الأخيار خير من أن نفتن فى ديننا فنرتد إلى الكفر حبا فى متاع الدنيا الزائل .

وهنا أخبر إخواننا أن الله تعالى حكم بالكفر فى صريح القرآن على كل مسلم يود الكافرين ويتولاهم أو يرضى بولايتهم قلباً وقالباً . ومتى حكم عليه بالكفر طلقت زوجته وحرم عليه ماأحله الله له ومات على غير الإسلام ولو كان من العباد فإن الله تعالى يقول : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[٤] ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ﴾[٥] ويقول تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾[٦] الآية . وخير للمؤمن أن

(١) سورة التوبة آية ٣٦
(٢) سورة البقرة آية ١٩١
(٣) سورة البقرة آية ١٩٤
(٤) سورة الزمر آية ٣
(٥) سورة المائدة آية ٥١
(٦) سورة المجادلة آية ٢٢

يفوز بالجنة من أن يرضى بمايزول من حطام الدنيا، اللهم إنى أعوذ بـــك مـــن أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم إنك مجيب الدعاء .

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

يخبرنا الله تعالى أن أهل النفوس الإبليسية الذين خلقت أنفسهم من طينة الخبال فطروا على محاربة الحق وعناد من يلبيه سبحانه وتعالى، ولايفيقـــون مـــن عنادهم هذا حتى يردوكم عن دينكم الحق . ثم كشف لنا الحقيقة مبينا لنا أن المرتد عن دينه الحق لم يكن عليه فى الحقيقة لأن بشاشة الإسلام إذا باشـــرت القلـــوب هشت لها وبشت، ونظرت القلوب بعيون الإيمان إلى حقيقة وعد الله ووعيده فأبت أن ترتد عن الإسلام ولومشطت

جلودهم بأمشاط الحديد المحماة بالنار، لأن عيون الإيمان تشهد مـــافوق المادة من الغيب المصون كشف الله تلك الحقيقة بقوله سبحانه وتعـــالى :﴿ **وَمَـــنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ** ﴾

﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾

ردة أى رجوع إلى مقتضى جوهر النفس الإبليسية المفطورة على الكفر بالله بعد أن أسلم إسلام مقهور على الإسلام بالطمع والرغبة أو إسلام تقليد لآبائه، فلما بلغ أشده دعاه خبث النفس إلى الكفر الذى هو مقتضى حقيقة النفس وبقى على الكفر حتى مات عليه، دل ذلك على أنه كان فى إسلامه كافرا لأن بشاشـــة الإسلام لم تباشر قلبه لعقده على الكفر .

﴿ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

لأن أعمالهم القلبية الإسلامية مفقودة بالمرة، وأما أعمالهم الجسمانية التى لم تكن صادرة عن القلب فإنها لاقيمة لها، قال الله تعالى : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [1] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾: (إِنَّماَ الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإنما لِكُلِّ امرِىءٍ مَا نَـوىَ) ومعنى حبطت أى هلكت . (فِي الدُّنْيَا) لأنهم بـالردة يجـب قتلـهم شـرعاً ومعاملتهم بالشدة والجفاء والقتل كما هوحكم المرتد شرعاً وفى الآخـرة معلـوم سوء مآلهم .

﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

حكم من الله تعالى عليهم، والإشارة عائدة على من ارتد ومات كافراً، و﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى الذين يدوم خلودهم فيها كخلود أصحاب الجنة – ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وعيد من الله تعالى بأنهم يخلدون فى النار أبد الآبدين أعاذنـا الله تعالى منها . أما من ارتد بباعث قهرى يسوغ له أن يقول كلمة الكفر بغير قلبه، أو ارتد مؤثراً عليه ثم تداركته العناية فأنقذه الله من الكفر إلى الايمان فإن ذلك يـدل على أنه مؤمن من الأزل وأن ردته لم تكن حقيقة وأنه يفوز يوم القيامـة بجـزاء أعماله كلها إذا مات على الإيمان، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ أى من ارتد ودام على الردة حتى مات يخلد فى النار، وأما من أرتد فرجع إلى الإيمان فإن الله سبحانه وتعالى لايضيع أجره

(١) سورة الزمر آية ٣

وهنا أبين لإخواننا حفظنا الله وإياهم من فتنة المستعمرين الذين كـــانوا مماليك يبايعون فى أسواقنا قبل مخالفتنا لكتاب ربنا وسنة نبينا، ثم لما فرقتنا الأطماع والأهواء والتفت عنا ربنا بوجهه الجميل تمكنوا منا، فجاسوا خلال ديارنا وطعنوا فى ديننا وسعوا بالحديد والنار أن يردونا عن كما فعلـــت فرنســـا فى مـــراكش، والإنجليز فى فلسطين والسودان وفى مستعمراتها شرق أفريقيا وغربها وجنوبها، وكما فعلت هولندا فى جاوا، وكما تفعل كل أمم أوروبا فى مستعمراتها بطلائع الظلـــم والبهتان من جنود المبشرين وجنود الكيد والخداع ثم جنود الحديد واالنار . كـــل ذلك من مخالفتنا لسنة نبينا ﴿ ﷺ **وآله**﴾. وهنا أصارح إخواننا المسلمين مبيناً لهم أن أمم أوروبا فى زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺأجلاهم جميعاً عن شمـــال أفريقيا وغرب آسيا، وأبقى النصارى بين المسلمين مع تمكين المسلمين من محقهـــم عن آخرهم أو قهرهم على الإسلام مع الصولة والجولة والطول والحول، ولكـــن القرآن المجيد أمرنا برحمة أهل ذمتنا، ومعاملتهم فى الحقوق الإجتماعية بما نعامل به أنفسنا . ثم انتشر الإسلام حتى وصل إلى غرب أوروبا وجنوبها فكانـــت أســـبانيا الأوربية بلآداً إسلامية وكذلك البندقية، وفتحت روما بشبان من أبناء المسلمين فى زمان بنى أمية، وانتشر الإسلام فى جزائر البحار ثم فتح شرق أوروبـــا بـــالجيوش العثمانية حتى وصل الإسلام إلى بولونيا والنمسا والمجر .

ولما قامت الحرب بين فرنسا وأسبانيا وتمكنت جنود أسبانيا من فرنســـا، واستجار ملك فرنسا بسلطان تركيا، كتب فورا لملك أسبانيا أن يوقف الحـــرب ويخرج من فرنسا، وهدده فسمع وأطاع . إلى أن تمزقت الدولة العثمانية لماً ركـــن إلى الترف خلفاؤها، ودب الضعف فى المجتمع الإسلامى، وقام كل زعيم فجعـــل

نفسه ملكا على أمته، وتعدد الملوك واختلف بعضهم على بعض فأضعفوا أنفسهم فكانت الحروب الصليبية .

ولكن المسلمين مع تفرقهم جمعتهم كلمة الدين بغيرة لله ألقت فيها على أوربا درساً وخصوصاً على ملك فرنسا الذى كان أسيرا فى بيت يهودية ببلبـــيس (قرية مصرية) وتلك العزيمة دعا إليها التمسك بالدين . كادت أوروبا للمســـلمين بمكايد لايعلمها إلاأهل الرذائل والمفاسد، فنشروا فى الشرق تحرير الرقيق، ثم خدعوا قادة الشرق بالمكيفات والمخدرات وبالنساء اللآتى كن يهجمن على بيوت قـــادة الأمم بصفة خدم ومربيات، ولاأبعد بك فإن سلطان مراكش مولاىحسن كـــان عنده فرنسية ولدت له ولده الذى كان ولى العهد، وتولى الملك فكان فرنسيا رأيا ومعيشة وعملا حتى خالف الشرع فى أعماله فتمكنت فرنسا وأسبانيا فى زمنه من نشرمبادىء الاستعمار، ثم أرسلت أوروبا جيشا آخر من ثلاث فرق : فرقة ماليـــة وفرقة تجارية وفرقة يسموها التبشير جنودها نساء طيبات أو معلمـــات ورهبـــان معلمون . فافتتحوا المدارس فى كل مدينة مجاناً، وبذلوا الأموال للـــنشء الصـــغير ولأهليهم حتى تمكنوا من الأمة، وأظهروا أنهم رحماء يرحمون العبيدوالزنوج والفقراء والمرضى فمالت إليهم قلوب الهمج الرعاع أتباع كل ناعق، فما مضت عيشـــة أو ضحاها حتى ملكوا عقارات الأغنياء وملكوا قلوب الزعماء وخدعوا الفقراء

وبينما الناس فرحون بهم فى بلاد الشرق وإذا بالأساطيل تجوب البحـــار، والفيالق تخرق المدن بالقلوب القاسية الجافية، والأيدى الظالمة الآثمة، تجعل الأحـــرر أدنى من العبيد والعظماء أحقر من العامة، فلم ينس الناس تحرير الرقيق ولا الرفـــق بالحيوانات، وتحققوا أنه البنج الذى خدروا به أعصاب الأمم حتى ســـلبوا مرافـــق حياتها، وتصرفوا فى الأعراض والدين والصناعات . وهذا جزاء مخالفـــة الشـــريعة

المطهرة . قال أبو هريرة ﷺ : (إِنَّما يَسْعَدُ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِمَا سَعِدَ بِهِ أَوَّ لُهـــا)
والواجب علينا جماعة المسلمين أن نرجع إلى ماكان عليه سلفنا الصـــالح، وهـــذا لايكلفنا بذل جهد ولاعناء، وإنما هى محبة فى الله وإخاء فى الله وعمل بسنة رسول الله، وإيثار للأخ فى الله على النفس، والثقة بكل مسلم، والحذر من كـــل عـــدو للإسلام . وبذلك يعيد الله لنا هذا المجد الأثيل ويعيد أعداءنا مماليـــك يبـــاعون فى أسواقنا كما كانوا لسلفنا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢١٨)

بعد أن بين الله حال أهل الكفر بالله وحال من آمن بالله إيمانا مزيفاً حتى إذا ظهرت له بدعة ارتد ، وبين سبحانه ماتوعدهم به فى الدنيا والآخـــرة، بـــين أحوال أهل الإيمان كما هى سنة القرآن المجيد، وشرح ما يكونون عليه فى الـــدنيا وما ينالهم فى الآخرة فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا الله ورسوله وداوموا على ذلك لأن نفوسهم صيغت من نور رضوان الله تعالى، وهـــم الـــذين سبقت لهم الحسنى .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

الهجرة مأخوذة من الهجر وهو البعد عن المألوف، والمراد به هنا عبد الله بن جحش ومن معه الذين قتلو عمرو بن الحضرمى فى الشهر الحرام حـــين كـــره رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عملهم، وطمأن الله قلوهم فى الآية السابقة فقال عبد الله بن جحش ﷺ : إن الله غفر ذنوبنا فهل يثيبنا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والسبب خاص والحكم عام كما سبق . والمهاجر هو من هجر مانهى الله عنه خصوصاً إذا كان فى تركه مشقة على النفس . فقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ﴾ أى جاهدوا العدو بأنفسهم وأموالهم إعلاء لكلمة الله تعالى، وتجديداً لسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾. ولايكون جهاد النفس فى ذات الله تعالى إلا إذا كان : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى فى بيان طريق الله تعالى وقهر لأعدائــه وإعلاء لكلمته من غير علة تدعو وهوى يدفع إليه أو طمع فيما يفنى .

﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾

﴿ أُولَئِكَ ﴾ الإشارة عائدة إلى من ذكرهم الله فى هذه الآية وهم الذين آمنوا إلى آخرها ﴿ يَرْجُونَ ﴾ بيان لكمال أدبهم وتمكنهم فى مشــاهد التوحيــد العلية، التى يعتقدون بها أن عناية الله بهم فى هدايتهم وإقامتهم فيما يحبــه الله مــن الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس إحسان عظيم يوجب على العبد أن يسارع إلى شكر الله، ويتمنى أن الله يقبل منه الشكر على تلك النعم العظمى، ولايرون لهم على الله حقاً بل يرون الفضل والنعمة والمنة لله وحده، لأنه جل جلاله قادر علــى أن يقيمهم فيما يكره من الكفر والضلال والبهتان كما أقــام أعــداءهم الــذين يجاهدونهم فتكون حالتهم الرهبة والخشية من الله تعالى، والطمع والرغبة فى نيــل مغفرته لذنوبهم التى منها نسيان تلك النعم أنها منه سبحانه وتعالى عند مزاولة العمل لله تعالى، واعتقاد أنهم عملوا عملا وفى ذلك يرون أنفسهم كأنهم أشركوا بــالله . فتلك المعانى الخفية عن غير الصحابة وعن غير أمثالهم فى العلم يخبرنا الله تعالى بقوله : ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ بعد أن بشرهم برضوانه الأكبر فى مقعد صدق عنــده سبحانه، ولكن كل تلك البشائر وتصديقهم بها لا تجعل قلوبهم تطمــئن إلى أنهــم

المخصوصون بهذا الفضل العظيم، إجلالاً وتعظيماالله بما تفضل علـيهم بمـا يحبـه ويرضاه من عقيدة وعبادة وعمل وحال فى الدنيا ووعدهم بالفوز العظـيم يـوم القيامة .

والرجاء هو الظن غلبة بنيل المقصود وقد وضع الله لنا ميزان المقامات التى أخبرنا الله تعالى أنه رضى عن أهلها وأنه يحبهم، ومن فازوا بمحبة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ونصرة الله، ومع كل الخصوصيات نراهم يثبتون أنفسهم من أهل الرجـاء مع ثناء الله عليهم ومدحه لهم سبحانه . فإذا كانوا بعد الإيمان بالله والهجرة إليـه سبحانه بمفارقة أوطانهم وأموالهم وأعراضهم، وبعد المجاهدة بالنفس والمال لأعدائه سبحانه يقومون أمامه تعالى فى مقام الراجين، فكيف يكون حالهم إذاوقعت منهم بعض المعاصى التى نحن منغمسون فى كبائرها؟ ومع هذا الحال نحكم لأنفسنا بمـالا يستحقه إلا شهيدا أو صديق . اللهم أدبنا بآداب أصحاب نبيك، وارزقنا الخشـية والرهبة من حضرتك إنك مجيب الدعاء .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

تفضل من الله سبحانه وتعالى بعد ثنائه على عبد الله بن جحـش ومـن كانوا معه، بل وعلى كل أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، لأن كل رجل منهم أمة نفعنا الله بأسرارهم، والمغفرة هى ستر الذنوب حتى لايؤاخذ عليهـا المـذنب، والرحمة هى أن يبدل تلك السيئات حسنات . ويكون المعنى والله يستر ذنوب من وصفهم جل جلاله فى الآية، ويبدل تلك الذنوب حسنات فضلاً وإحسانا منه جل جلاله والله ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢٢٠)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾

إن الله سبحانه وتعالى أدب أصحاب حبيبه محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أدبا لم يتفضل به على غيرهم من الأمم السابقة فقد سأل بنو إسرائيل موسى أسئلة لايسألها إلا جاحد أوشاك، وسأل أصحاب عيسى أسئلة تفيد الشك . أما أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فأسئلتهم محصورة فى ثمانية عشر سؤلاً كلها للآستفهام عن أحكام تدعوإليها همتهم العلية، وسؤالهم عن الخمر استفهام عن أحكامه هل هو حلال أوحرام، لتستبين لهم الحقيقة التى يحبها الله تعالى فأجابهم الله تعالى على حسب قصدهم مخاطباً رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وفى السؤال عن الميسر أيضاً بيان للحقيقة فقال: ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ وقد نزل فىالخمر آيات تدل على تحريمه ضمنا والإثم إما أن يكون هو العذاب أو هو السبب الذى يوقع فى العذاب، والمؤمن الكامل يحكم بتحريمه فى هذه الآية لأنه يرى أن كل منفعة فيه توقع فى غضب الله تعالى وعذابه فلايوقع نفسه بسبب شىء لاتدعو الضرورة إليه فيما يكرهه الله تعالى بعد أن سمع الله تعالى يقول : ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ وقد قرئت : ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ .

وعلى هذه الرواية الأخيرة الإثم أنواعه كثيرة فى الخمر والميسر، أمـــا فى الخمر فإنه مادة بلغت من التخمر مبلغا تفسد به المعدة وتقرح الكبـــد وتضـــعف القلب وتضر الكلية، وبصعد بخارها إلى الدماغ وتفسد خزانة الإدراك والحافظـــة ويمرض الخيال والوهم حتى يصير الإنسان أضل من الأنعام، لايفكر ولايتـــدبر فى شىء نافع ويلقى بنفسه فى موجات المخازى والضلال . هذا من جهه تأثيره على الأعضاء الباطنة . وهو بفسد الأخلاق ويذل الإنسان بين قومه ويضـــيع الأمـــوال والشرف والمجد ، يفسد إنما الإنسان بعقله بين بنى جنسه فاذا فقد عقله بالخمر صار سافلاً لايعتد به .وإن الله تعالى ماحرم الخمر إلالأنه مضرة فى الـــدنيا وعـــذاب فى الآخرة . وفيه مضار أخرى هى أن الإنسان إذا شربه وقرب من فمه نارا احتـــرق الخمر فى بطنه فمزقه وهو الاحتراق الذاتى، وكم قتل الخمر رجالا بهذا الاحتراق . يشرب الإنسان الخمر ثم يأتى بلهبة يشعل بها مايحرقه من التبغ " الدخان " فتصـــل الشعلة إلى أثر الخمر على شفتيه فتصل النار إلى بطنه لأن الخمر سريع الاشـــتعال. وللخمر مضار أخرى لايجهلها أهل العقل وخصوصا فيما يتعلق بالحالة الاجتماعية، فإن الخمر تجعل شاربيها وحوشا كاسرة يتعشقون الانتقام فتثور نفـــوس بعضـــهم على بعض ويحصل الهرج والمرج فتزول الألفة والمحبة والصفاء ويحل العناءوالجفاء . روى الإمام ابن جرير الطبرى فى تفسيره الكبير بسنده عن الشعبى قال : نزلت فى الخمر أربع آيات :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـــافِعُ لِلنَّـــاسِ ﴾ فتركوها، ثم نزلت : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ (١) فشربوها ثم نزلت

(١) سورة النحل آية ٦٧

الآيتان فى المائدة : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فاجتنبوه ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (١)

وعن السدى قال : نزلت هذه الآية : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ فلم يزالوا بذلك يشربونها حتى صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعا أناساً من أصحاب النبى ﴿ ﷺ وآله ﴾ وفيهم على بن أبى طالب فقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) فلم يفهمها ابن عوف فأنزل الله عز وجل يشدد فى الخمر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (٣) فكانت لهم حلالاً يشربونها من صلاه الفجر حتى يرتفع النهار أو ينتصف فيقومون إلى صلاة الظهر وهم صاحون ثم لايشربونها حتى يصلوا العتمة وهى العشاء ثم يشربونها حتى ينتصف الليل وينامون، ثم يقومون إلى صلاة الفجر وقد صحوا . فلم يزالوا كذلك يشربونها حتى صنع سعد بن أبى وقاص طعاماً فدعا ناساً من أصحاب النبى ﴿ ﷺ وآله ﴾ فيهم رجل من الأنصار، فشوى لهم رأس بعير ثم دعاهم عليه فلما أكلوا وشربوا من الخمر سكروا، وأخذوا فى الحديث فتكلم سعد بشىء فغضب الأنصارى فرفع لحى البعير فكسر أنف سعد، فأنزل الله نسخ إباحة الخمر وفرض تحريمها . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

والخمر مأخوذ من الخمار الذى تضعه المرأة على وجهها وصدرها لتستره، وسمى خمراً لأنه يستر العقل عن وظيفته التى بها حياه الإنسان فى مسرة

(١) سورة المائدة آية ٩٠-٩١

(٢) سورة الكافرون آية ١

(٣) سورة النساء آية ٤٣

وهناءة. فإذا خامر الخمر العقل صار الإنسان شراً من إبليس وأضر من الوحـــوش الكاسرة فيكون المجتمع الإنسانى كغابة وحوش وقيل إن العنب إذا وضع فى الجرار علاه رغوة تخمره أى تستره وليس الخمر من أنواع الأغذيـــة والأشـــربة المغذيـــة للإنسان النافعة لصحته الجسمية والعقلية، ولكنه من الأشربة المفسدة لكل قـــوى الإنسان . وإنما حرمه الله تعالى لما يعلمه فيه من المضار التى تجعل الإنسان فى بؤس لفقره وسوء حاله وفساد صحته فحرمه الله تعالى الرءوف الرحيم بعبـــاده ليفـــوز بالسعادتين، سعادة الدنيا بصحة أبدانهم وسعادة الآخرة بصحة عقولهم التى تعقـــل عن الله تعالى .

﴿ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الميسرهو القمار مأخوذ من اليسر، يقال ياسره أى قامره فسلب ماله . والميسر عند العرب ماكانوا يعملونه فى الجزور فخراً ورياء وكان لهم سهام بقدر الأنصبة . وصفته أنه كانت لهم عشرة قداح . وهى الأزلام والأقـــلام وهى الفذ والتوءم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنـــيح والســـفيح والوغد، لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء وقيل ثمانية وعشرين إلا الثلاثة التى هى المنيح والسفيح والوغد للفذ سهم وللتوءم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل سته وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة، ويضعونها على يد عدل ثم يجلجلها ويدخل يده فيخـــرج باسم رجل رجل قدحاً قدحا فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب المعين لها، ومن خرج له قدح من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه .. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولايأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون مـــن لايدخل فيه ويسمونه (البرم) وفى حكمه جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج

وغيرها وعن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال : (إِيَّاكُمْ وَهَاتَيْنِ اللُّعْبَتَيْنِ الْمَشْئُومَتَيْنِ فَإِنَّهُمَا مَيَاسِرُ الْعُجمِ)

أما مضار الميسر فإن فيها فساد الأخلاق وحمل السخائم والضغائن وتمنى زوال نعمة الغير وحب الانتقام، ولاترى مجتمعاً نشأ فيه هذا البلاء إلاسيم بالفقر والذل والتفرقة . فإن الذى يسلب المال يترك صاحبه فى هم وبلاء وعزم على الانتقام لأنه سلب ماله بدون وجه شرعى ولاعرفى، ومن لم يمنعه دينه وجب على الحكومة والأمة أن تصادره أو تنفيه من الأرض بتخليده فى ظلمات السجون .

ومنافع الخمر والميسر لاتخفى على أحد وهى كمنافع اللصوص والخونة وقطاع الطريق . وكل منفعة جرت ضرراً للغير دلت على خبث النفس ورب رجل خبيث النفس يوقع المجتمع فيما لاتحمد عقباه، وخير المسلمين من أتقى الشبهات وحفظ دينه وعرضه وماله، ومن فقه عن الله خطابه حرم الخمرة بتلك الآية بتاتا بدليل قوله : (وَإِثْمُهُمَا ـــ أى الخمر والميسر ـــ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) لأن نفعهما شر على المجتمع لاكتساب صانع الخمرة وبائعها أموالاً بضرر الغير، ولأن شاربها يرتكب هذا الإثم الكبير من غير أن يجد منها منفعة إلا مايتخيل أنه نفع من حيث زوال عقله وإقدامه على مالا يباح شرعاً من فعل المنكرات وأذية العباد وهو شر مستطير، ومن كان هذا عنده نفع فهومن شرار الخلق .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يحبون الأخذ بالعزائم فيما يرغبهم الله تعالى فيه، ويسارعون أن يستفرغوا كل ما فى وسعهم لنيل

مراضى الله ومحابه . ولما تحققوا أن الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ يرغبـــانهم فى الإنفاق كرروا السؤال فى هذا الموضوع . وفى هذه الآية الســـؤال عـــن مقـــدار ماينفقون هل كل المال أو بعضه ؟ فأجابهم الله تعالى بقوله : (قُلِ ــ يـــا محمـــد ينفقون ــ الْعَفْوَ) على رواية فتح الواو فيكون العفو مفعولاً لــــ ﴿ يُنْفِقُـــونَ ﴾ المحذوف أو مرفوعاً خبرا لقوله تعالى (مَاذَا) والعفو مازاد عن حاجـــة الإنســـان بدليل قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾[1] أى مازاد وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾[2] أى كثروا . وفى هذه الآية دليل على كمال رحمة الله تعالى بالإنسان لأن الله تعالى هو الذى خلق الإنسان ووضع فيه بواعث للخير (المال) فأنزل شـــريعته المطهـــرة سبحانه على قدر مافطرهم عليه جل جلاله، والشريعة المطهرة أنزلها الله لمصـــالح العباد عامة فإذا عمل العبد بها وعلمه الله مالم يعلم طولب بكمال الشريعة الروحانى فيعمل بفطرته التى هى فطرة الله تعالى مصبوغا بصبغة الله مسارعاً إلى الله تتزهـــت ذاته، ولديها يكون ملامتيا ينكر عليه أهل عصره فلا يلتفت إلى اللآئمين ويمضى فى شأنه مستتراً عن الخلق فى معاملة الله تعالى بقدر طاقته .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

معنى هذه الآية أن الله تعالى يقول : كما بينا لكم فى الآيـــات الســـابقة ماأحبه وأرضاه من أسرار التوحيد والنبوة والعبادة والأخلاق، كذلك أبين لكم ما أحبه من النفقة التى يجب أن تتقربوا بها إلى المساكين حتى تنكشف لكـــم حقيقـــة الدنيا والآخرة، وتتفكروا بعقولكم التى تعقل عنى مقدار الدارين، فتســـارعوا إلى

(١) سورة الأعراف آية ١٩٩

(٢) سورة الاعراف آية ٩٥

تقديم ما أنفعكم به يوم لقائى بعد علمكم بحقيقة الدنيا الفانية، ويقينكم ببقاء الآخرة فى نعيم مقيم أو عذاب أليم

وهذه الآية تجعل المؤمن يسارع إلى إدخال السرور على من أوجب الله عليه الإنفاق عليهم أورغبهم فى ذلك . وهذه الآية ليست منسوخة بأية الزكاة لأنها خاصة بالفضل أى الزائد عن حاجات الإنسان، وكان أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يتقربون إلى الله بما زاد عن حاجتهم ومان ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يدخر قوت سنة لأهله والصحابة رضى الله عنهم كانوا أحرص الناس على كمال الاقتداء به ﴿ ﷺ **وآله**﴾.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن الجاهلية كانو يسلبون أموال اليتامى وخصوصاً البنات، فإنهم كانوا يتزوجونهن أو يزوجوهن لأبنائهم طمعاً فى الأموال فبين الله لنا بياناً شافياً بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[1] فامتنع الصحابة عن مخالطة الأيتام وأفردوهم بالأكل والشرب والمسكن حتى ساءت حالهم، فتداركهم الله برحمته فأنزل هذه الآية لما بلغ منهم أن كانوا يصنعون الطعام لليتامى فإذا أكلوا وبقى منهم شىء تركوه حتى يفسد، وكذلك الماء حتى كانوا لايستعملون فراش اليتيم ولا فى الجلوس، فلما سألوا الله عن حالة اليتيم بين الله لهم بقوله : ﴿ قل إصلاح لهم خير

(١) سورة النساء آية ١٠

﴾ . أى أن المراد إصلاحهم تربية وأخلاقاً وآدابا حتى يعامل الرجل اليتيم معاملـــة ابنه، ثم وسع لهم سبحانه وتعالى مع رعاية الإصلاح بقولــه ســبحانه : ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ فى المأكل والمشرب والمسكن (فَإِخْوَانُكُمْ) أنزلوهم منزلة الأخــوة، وهنا يتعين أن يكون اليتيم مسلماً حتى تصلح له تلك النسبة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾

أراد الله تعالى بهذه الآية حفظ قلوب المؤمنين من أن يمازجها سوء قصد أوطمع فى أموال اليتامى فيكون الوصى مفسداً، فإذا راقب الله تعالى علام الغيوب فيعلم خواطر القلوب ونواياها فيتفضل على المصلح بخيرى الدنيا والآخرة، وينتقم من المفسد بالانتقام فى الدنيا والآخرة، فإن المفسد فى مال اليتيم خبيـــث الـــنفس قاسى القلب منزوعة الرحمة منه ومن لايرحم الناس لايرحمه الله .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأعْنَتَكُمْ ﴾

بعد أن رحم الله عباده بما بين لهم من إباحة معاملة الأيتام معاملة الإخوة حتى جعل الولى واليتيم كأنهما أخوان مختلطان، بين الله تعالى لعباده أن هذه الوسعة هى فضل منه تعالى ورحمة ليرفع عن عباده الحرج والمشقة بدليل قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأعْنَتَكُمْ ﴾ أى ولو قدر ذلك فى مشيئته لأحرجكم وشدد علـــيكم بتحريم مخالطة اليتامى الأمر الذى يوقع الولى واليتيم فى الحظر بسبب ماكان يعمله الصحابة بعد أن أخبرهم الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾ فكان الرجل كما قدمنا يحرم على نفسه طعام اليتـــامى حـــتى يفســـد، ومرعاهم ولبن حيواناتهم حتى وسع الله لنا فى ذلك، ومعنى قولـــه: (لأعْنَـــتَكُمْ)

يشدد عليكم بالتحريم تشديدا يحرجكم أو تقعون فيما حرم الله تعالى مما يخلـــد فى النار، لكن الله بعباده رءوف رحيم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يعنى قوى قادر ينفذ مايشاء بقوة وقدرة، ولولا رحمته بالخلق لأعنتـــهم فاستحقوا شديد انتقامه وعقوبته ويفعل ذلك سبحانه بحكمة بالغة .

قوله تعالى :﴿ وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلامَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْـــرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢)

﴿ وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلامَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْـــرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بعث مرثد بـــن أبى مرثد إلى مكة ليخرج أناساً من المسلمين بها سراً فعرضت له امرأة تسمى (عنان) كانت تحبه فى الجاهلية وخلت به وهمت به فقال لها إن الإسلام يمنع من هذا ولكن أعدك أن أتزوجك، ثم سأل رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عن هذا فأنزل الله تعـــالى : ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلامَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ

﴾ ولك أن تقول إن سبب نزولها اتصالها بآية الأيتام والمراد بها الترغيب فى نكـــاح اليتامى اللائى أخبرنا الله عنهن بقوله : ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾

والنكاح فى اللغة معلوم، وهو فى الشرع العقد أو الملامسة بالأدلة المؤيدة بكل مذهب . وما يقتضيه كل مذهب من أن النكاح هو العقد أو أنه هو الملامسة مذكور فى كتب الفقه . ﴿ الْمُشْرِكَاتِ ﴾ اللفظ عام لكل مشركة والمشرك مـــن كذب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما جاء به من عند الله ومن جحد الألوهة ومن اتخذ مع الله ولداً أو نداأو شريكا . فلفظة الشرك تعم، ولكنها فى هذه الآية خاصة بمشركى مكة على شاكلتهم بدليل ماأباحه الله لنا من نكاح نساء أهل الكتـــاب فأحل للمسلم أن ينكح اليهودية والنصرانية . ولم يحل للمسلمة أن ينكحها يهودى ولا نصرانى .

وقد بين الله تعالى الحالة التى بها يجوز للمؤمن أن يتزوج المشركة بقوله : ﴿ حَتَّى يُؤْمِنَّ ﴾ وفصل ذلك بقوله : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِـــنْ مُشْـــرِكَةٍ وَلَـــوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ يعنى أن الأمة المؤمنة سواء من الحرائر أو المماليك خـــير مـــن المـــرأة المشركة ولوكانت غنية جميلة . وهذه الآية بعد الأولى التى عينت نهى الله تعالى نهى تحريم تدل على أن تحريم الله المشركات لحكمة تعبدية وحكمة عقلية . أما العقليـــة فلأن نفوس المشركين خبيثة جداً لأنها حرمت القابل عـــن الله تعـــالى فانحطـــت حقيقتها عن النوع الإنسانى الفاصل وصارت أضل من البهائم السائمة، والنســـاء خزن الذرية وأرض غراس الأولاد، والأرض الخبيثة لاتنبت إلا نكداً . وحيـــث أن المراد من النكاح هو عمارة الكون بما يخلقه الله بين الزوج والزوجة من الأولاد وإن جهل ذلك أهل النفوس الشهوانية لأن الله أودع فى المـــرأة قـــوة الشـــهوة لا لأن الشهوة مقصودة بالذات وإنما لتكون باعثاً لرغبة المرأة فى الرجل ورغبة الرجل فيها

ليحصل ماقدره الله تعالى وإذا كانت هذه هى الحقيقة فنكاح المــؤمن المشــركة مفسدة للعمران . وقد أباح الله لنا نساء أهل الكتاب لأهن خلق الله فى نفوســهن صفاء حتى قبلن الإيمان بموسى وعيسى ولولا ضعف قلوهن لاتبعن الإسلام والذى منعهن عنه تقليدهن آباءهن .

﴿ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾

ينهى الله تعالى الآباء والأولياء عن أن يزوجوا البنات المؤمنات غير المؤمن لحكمة تعبدية وعقلية أيضاً فإن الأرض الطيبة الخصبة إذا اوضع فيها النبات الخبيث الشائك تخرجه خبيثا كما كان . وقد بينت لك ما يكون من المشركات من الشر فكذلك يكون من المشركين إذا تزوجوا المؤمنات من الشر . والله تعالى هو العليم الخبير بتلك الحقائق . والواجب علينا أن نقول ماقالته الملائكة : " قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا " (١) وأن نسارع إلى اجتناب ماهانا الله عنه والعمل بما أمرنا به . والخيرية هنا على إطلاقها أى ولعبد مؤمن خير فى المعاشرة وفى العناية بحق الله تعالى والقيام بفرائضه التى فرضها، وفى الشرف فى الدنيا وفى الآخرة، فقد يكرم الله قوماً بحبيب له يظهره فيهم .

وهنا إشارة فى الآية أن مانراه بأعيننا ونحكم به بعقولنا فى جانب مايأمرنا به الله وينهانا عنه مضمحل لا قيمة له، لأن جوارحنا تكذب علينا فى حكمها، فقد تكذب عليك العين فترى الشمس قدر الرغيف وترى السراب ماء وترى الجبـــل الذى بينك وبينه سفر أيام كأنه تحت قدميك، ويكذب عليك اللسان فيذوق الحلو

(١) سورة البقرة آية ٣٢

الخالص الحلاوة مراً لمرضه، وكذلك كم أخطأ العقل فى أحكامه لأنه مخلوق مقهور كالجوارح، فقد تقهره الشهوة والغضب فيحكم بما يغضب الله وتنفذ الأعضـــاء . والخير الحقيقى هو الخير عند الله تعالى، والمؤمن الكامل من جاهد نفسه الشهوانية والغضبية والتروعية جهاداً فى الشريعة يجعلها تسارع إلى أمتثال أمر الله واجتنـــاب نهيه بعد يقينه أن ذلك غاية السعادة .

﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾

بين الله لنا فى هذه الآية الحكمة جلية فقاتل : (أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) يعنى أن المشركات إذا تزوجن المؤمنين أو أن المشـــركين إذا تزوجـــوا المؤمنـــات والزوجية رابطة تأثيرية، فقد يميل المؤمن إلى المشركة فيحبها ويحب ماهى عليه وقد تميل المؤمنة إلى المشرك فتحبه وتحب ماهو عليه فيحصل ضعف فى الإيمان إذا لم نقل ردة عنه، ويكون الزواج سبباً فى الخلود فى نار جهنم . ومن الذى يرضى أن تقهره شهوته فيصرفها فى أنفاس توجب عليه الخلود فى النار ؟ وإن كان يقال ذلـــك فى نساء أهل الكتاب كما رآه أمير المؤمنين عمر ﷺ حين تزوج حذيفة بنصـــرانية أو يهودية فغضب وكتب إليه أن خلها فقال : إنها ليست حراماً فقال عمـــر : نعـــم ولكن أخاف .. ففى رأى أمير المؤمنين عمـــر ﷺ مايفيـــد أن الله أبـــاح زواج الكتابيات ليسلمن، أما ونحن فى هذا العصر فالأولى منع نكاح الكتابيات اقتـــداء بأمير المؤمنين ﷺ .

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾

يعنى أن الله تعالى بين لكم الحرام والحلال وأمركم بالســـمع والطاعـــة لتفوزوا بالجنة، والسمع والطاعة بتوفيقه وهدايته سبحانه، فهو جل جلاله يدعو إلى الجنة والمغفرة ويقدرهما ويعين على الفوز بهما . ولك أن تقول : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ﴾ أى وأولياؤه الربانيون الراسخون فى العلم يـــدعون إلى الجنـــة والمغفرة بإذنه أى بتقديره وإرادته، وهى الحكمة البالغة لتحريم نكاح المشـــركات والمشركين لأن مخالطتهم توقع فى خسران الدنيا والآخرة ولو لم يكن فيها إلامودة من حاد الله ورسوله لكفاها تعسة . وإن الاقتداء بأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لمن أكمل الحيطة للدين .

﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

أى أنه يتترل سبحانه ليبين لهم الحرام والحلال ووجوه الخير والمنفعة بياناً يفهمه كل ذى عقل لتحصل لهم الذكرى . قال سبحانه : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

قوله تعالى :﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَـــاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَـــرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢)

سبب نزول هذه الآية أن المشركين واليهودكانوا إذا حاضـــت المـــرأة أبعدوها عنهم فلايتكلمون معها ولا يجالسوها، وكان النصارى إذا حاضت المـــرأة لايبالون بالحيض ويباشروها، فلما نزلت هذه الآية الشريفة نفذ الصحابة معناهـــا

(١) سورة الذاريات آية ٥٥

فهجروا النساء وأبعدوهن عنهم . فشكا بعضهم إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾ أن بعد النساء عنهم يقتضى فراشا ودثاراً كثيرا وليس عندهم إلاما يكفيهم مجـــتمعين فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ (إنما أمرتكم بأن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضـــن و لم آمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم) وأباح لنا الاستمتاع بما فوق السرة ومادون الركبة . والمراد من المحيض هو محل الحيض وهو الدم السائل،والحيض هو السيل، يقال حاض الوادى : أى سال ماؤه وبهذا سمى الحيض كما يقال الحـــوض الذى يسيل فيه . وإن قيل إن الحيض هو العضو يكون هنا محذوف ويكون المعنى — يسئلونك عن المحل الذى يسيل منه الحيض .

وقوله : ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ أى ذو أذى لأن الحيض دم سائل مـــن الـــرحم لايسمى بأذى . وعلى هذا فالمحرم هو مباشرة المرأة فى وقت حيضها، ولذلك أمرنا الله تعالى باعتزال هذا العمل فى وقت الحيض لا إبعاد النساء عن بيوتهن كما يفعل اليهود والعجم . والفرق بين الحيض والاستحاضة أن الحيض دم تقذفه الطبيعة من الرحم قدره الله ليكون غذاء للجنين فى بطن أمه . وأما الاستحاضة فهو دم يسيل من عروق فى الرحم عن احتقان ومرض . وهذه الآية لا تحرم على الزوج مباشرة المستحاضة وعليها الصيام والصلاة فإنما تلك الأحكام لاتتعلـــق إلا بالحـــائض إذ تسقط عنها الصلاة وتقضى الصيام .

﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾

هذه الآية جاءت فى تحريم الوطء فقط، ومعنى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾أى اتركوا وطأهن ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ أى لاتطؤوهن ﴿حَتَّى يَطْهُـــرْنَ ﴾ أى إلى تمـــام طهرهن بامتناع الحيض وبالطهارة الشرعية بالماء .

﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾

أى إذا ثبت طهرهن صحة وشرعاً فباشروهن ملامسة فى الموضع الذى أمركم الله أن تأتوهن فيه، احترازاً من الوقوع فى الفاحشة التى خسف الله لأجلها أمة قوم لوط . وإن كان هذا معينا من قوله : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ فإن الإتيان لايكون إلا فى محل الحرث والحرث هو محل الزراعة والإنبات، ولكن الله رحمة بعبادة المؤمنين يزيدهم علماً وبياناً .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

تقدم الكلام على لفظ التوبة لغة، وبينا أنها الرجوع عما يكرهه الله تعالى إلى مايحبه، وهنا نشير إلى أنواع التوبة بالنسبة للتائبين . فالتوبة قد تكون من الكفر إلى الإيمان، ومن المعاصى إلى الطاعات، ومن التوسعة فى المباحات إلى التورع، ومن الحرص على الحلال إلى الزهد فيه، ومن القيام بالعبادات غير حاضر القلب حتى تقع منه كالعادات إلى إيقاظ القلب بالمجاهدات لنيل المشاهدات، ومن فرح القلب بالمشاهدات إلى الفرار إلى مشاهد التوحيد العلية، ومن مشاهد التوحيد العلية إلى التمكين فى مقام " لا حول ولا قوة إلا بالله "

ونمسك القلم عن أن نكتب ما فوق ذلك من توبة التائبين، ومن الفناء عن التوبة من التوبة، ومن البقاء بالله فى رياض ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾[1] حيث يكون الحق معالم بين عينيه لايغيب إذا غاب الناس، ولا يغفل إذا غفل الناس، حسبك على ذلك قول الله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ

(١) سورة الحديد آية ٤

تَوَّابًا ﴾(1) بعد جهاد النفس وجهاد العدو الفادح، وبعد أن كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يستغفر فى المجاس سبعين مرة ولا تسألن عن ماذا كان يستغفر رســـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم . ونرجع إلى التفسير :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها، بينت لك فى الآية السابقة أن أهل الجاهليـــة واليهود كانوا لايساكنون النساء فى المحيض، وسألوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن ذلك فبين لنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن المراد من الآية الامتناع عن المباشـــرة " الوقاع " فقط وأن لايمسها إلا بعد الطهر . وفى هذه الآية يعلمنا الله تعالى أنه يحب التوابين، ومحبة الله تعالى عالية غالية . والتوابون هنا بحسب ارتباط الآية بما قبلـــها تدل على الذين تابوا عما كانوا عليه قبل بيان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من تـــرك مساكنة النساء فى حيضهن ورجوعهم إلى بيان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾. والتوابون جمع للمبالغة، يعنى الذين يسارعون فى السمع والطاعة رجوعاً إلى الحق وإن كثـــر وقوع الذنوب منهم، أو التوابون الذين يجاهدون أنفسهم أشد المجاهدة حتى لاتقع فى ذنب فإذا وقعت رجعت إلى الحق نادمة .

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ الذين يتطهرون بالماء فى الوضوء وفى الغسل من الجنابة والحيض والنفاس، أو الذين يطهرون قلوبهم وجوارحهم من أن يباشرها أو يخطر عليها مالا يحبه الله، أو يطهرونها بالتوبة من النجاســـات الـــتى باشـــروها . والإنسان لايسلم من المعاصى ناسياً أو عامداً فيجب عليه أن يتـــوب حـــتى مـــن الأعمال الصالحة، لأن الله لايقبل إلا ماكان خالصاً لوجهه . وقد يغفل الإنسان فى أثناء تأدية الفرائض ونوافل البر فيتوب ويستغفر مما ألم به من النسيان أو الغفلة أثناء

---

(1) سورة النصر آية ٣

العمل أو فى غيره والمعصوم رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، ومن نظر بعــين الإيمان فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ﴾ صغر فى عينه كل جهاد فى سبيل الفوز بنيل محبة الله له، و لم يقل الله له : ويحب الطاهرين ويحب الأطهــار لأن الملائكــة وأنواعهم ليسوا فى جهاد كالإنسان، وإن محبوبية الله لاتنال إلابقدر جهاد العبــد نفسه، فمن صبر على القيام بأوامر الله وعلى ترك نواهيه ورضى عن الله وقــدره أحبه الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَــدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٢٢٣) وَلا تَجْعَلُــوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَــيْنَ النَّــاسِ وَاللَّــهُ سَــمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٤) لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَــبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٢٢٥)

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾

من علم أن حكمة إيجاد الذكر والأنثى هى كثرة النسل لعبادة الله تعالى ومعرفته يعتقد أن مباشرة الرجل امرأته أمر مرغب فيه، ومستحسن عمل مايعينــه عليه من مداعبةوتنوع فى الإتيان فأباح الله لنا ذلك بأن يأتى الرجل امرأته فى قلبها وهى مضطجعة أو ملقاة على ظهرها أو على شقها أو على وجهها فى ليل أو نهار فى سفر أو حضر ليحصل الشبق، مبينا أن ذلك كله لايكون إلا فى محل الحــرث وهو محل إنبات النبات كما بينت لك، فإن الرجل لايحرث إلالزرعها وهو لايحرث بطون الأنهار ولاتلال الرمال ولاسطح الصخور .؟ فكذلك حظر الله علينا أن نأتى امرأة فى غير محل الحرث وأباح لنا أن نأتيها حيث شئنا وأنى شئنا . وقــد أشــار

رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى هذا المعنى بقوله : (هل رأيـــتم الحمـــام) ليعلمنـــا بأسلوب الحكيم فننظر إلى الحمام وعمل الذكر بـــالأنثى وكثـــرة مداعبتـــه لهـــا ومؤانسته، ونفورها لتستجمع القوة ويحصل موافقة الماءين فيكون ذلـــك أدعـــى للعمل . فأمره تعالى بقوله : ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ ﴾ أمر للنـــدب بحســـب القرينـــة، والحرث كناية عن فرج المرأة و﴿ أَنَّى ﴾ اسم شرط وضعت للمكان ولكنها تفيد أيضا الزمان وتفيد الهيئات.

وسبحان الرءوف الرحيم الذى ماترك لنا صغيرة ولا كـــبيرة إلا بينـــها لنكون على الحال الأجمل المحبوب لحضرته العلية فعلمنا حتى النكاح، وتعـــس والله من احتاج إلى غير القرآن وبيانه بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أحواله الشخصية أو المعاشية أو المترلية أو الاجتماعية العامة والخاصة، وما بلينا بتسلط أعداء الله علينا إلا لوقوعنا فى مخالفة الكتاب والسنة، ولو أنا رجعنا إلى العمل بهما لأعاد الله لنـــا المجد الذى كان لسلفنا حيث كان من يستعبدنا اليوم أرقاء يباعون فى أسواقنا، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾(١) نعوذ بالله من مخالفة الكتاب والسنة .

وسبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا إذا أتى الرجل المرأة وهى باركة من جهه دبرها فى قبلها يخرج الولد أحول، وكانت قريش تفعل هذا . فلما تزوج الصحابة بنات الأنصار وأرادوا أن يعملوا هذا بأن يأتوا المرأة فى فرجها من جهـــة دبرها كان ذلك عظيماً فى نفوس الأنصار فبلغ ذلك رســـول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾

(١) سورة الرعد آية ١١

فأنزل الله مخالفة اليهود بقوله : ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾أى ائتوا المرأة فى محـــل الحرث كيف شئتم كما بينت لك أولا . وهنا أزيدك وضوحاً .

تعلم أن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلا لِيَعْبُـــدُونِ ﴾ (١) وكثرة الأناسى إنما تكون بكثرة الولادة ووضع البذرة فى موضع لاينـــتج ذلـــك مضرةومخالفة، أما المضرة فإن تلك الثغرة بها حفظ الجسد وسلامته من المضار فإذا استعملت فى هذا فسدت، فابتلى الإنسان بالأمراض الفتاكة، وإذا فعل الشقىمن الناس هذا ابتلى بالارتخاء فى الأعصاب، فإن الدبر ليس فيه مايسهل نزول الماء من بين الترائب . وإذا نزل الماء فيه بغير جواذبه الطبيعية فيبقى منه شىء فى أعضـــائه فيتعفن أو يتخمر . وإذا نزل فى دبر المرأة تعفن وأفسد المعى . والشريعة إنما أنزلهـــا الله للمصالح العامة . وما ورد فى بعض كتب التفسير من الخلاف بـــين الصـــحابة والتابعين فى هذا فمحمول على الخلاف فى الحرث هل هو الفرج أو هو كل المرأة . فالأولى بالمسلمين الوقوف عند الظاهر الذى تعبدنا الله به، والعمل بما أجمعـــت عليه الأمة تحرزا من الوقوع فى مخالفة أمره تعالى . وقد حرم الله هـــذا العمـــل فى الذكور لحكم أكثرها يخفى علينا فهو أولى أن يحرم هنا لوجود ماهو أولى شرعاً

﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾

تأويل هذه الآية متصل بما قبلها من الآيات من أول قولـــه تعـــالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ إلى تمام الأسئلة كلها، ومعنى ذلك أن الله يقول ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾العمل بما سألتمونى عنه وبينته لكم، فإن عملكم به يكون لكم ذخيرة عند الله فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى :﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ

(١) سورة الذاريات آية ٥٦

عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [1] وجائز أن تقول : إن قوله تعالى ﴿ وَقَـــدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ راجع إلى السؤال الأخير وهو قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ أى وقدموا لأنفسكم رعاية الآداب التى بينتها لكم فيمـــا يتعلـــق بالنساء فى محيضهن وغيره . والذى عليه أهل التأويل أن قوله تعالى : ﴿ وَقَـــدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ مرتبط بالآيات من أولها — وجائز أن يكون له اتصال بكل ماسبق من أعمال البر التىيحبها الله والتى بينها فى الآيات السابقة عقيدة وعبـــادة ومعاملـــة وخلقاً حيث لانص يعين أنهامتصلة فقط بقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِـــيضِ ﴾ ومابعده .. وفى قوله تعالى : ﴿ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾حجة على أن فرائض الله وسنن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ لخيرنا وسعادتنا لأن الله غنى عنا وعن عبادتنا .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾

تقدم تفسير التقوى واختلاف العبارات التى وردت بها فقد يقول تعالى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ [2] ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فقوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ لمـــن يـــدعوهم إلى الإسلام أو للمسلمين الذين يدعوهم سبحانه إلى اجتناب مايكره ولا يقول (وَاتَّقُوا اللَّهَ) إلا لأهل الإيمان الذين يحب سبحانه أن يرفعهم من مقام إلى مقام أعلى منه — وفى هذه الآية يرغب الله المؤمنين إلى مجاهدة أنفسهم فيما قد تدعو إليه طباعهم مما لايليق بأهل العلم بالله تعالى .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ ﴾

(١) سورة المزمل آية ٢٠

(٢) سورة الحج آية ١

أمر الله تعالى بأن يعملوا بعلمهم فلا يحصل منهم السهو ولا النسيان الذى ينتج عدم مراقبة يوم الحساب فى كل حال وشأن . لتصدر أعمالهم فى محاب الله ومراضيه، فإن المراد من العلم العمل، والعلم يهتف بالعمل وإلا ارتحل، ومن لايعمل بعلمه فالجاهل خير منه، وفى هذه الآية أمر فى الجملة بأن تتصور النفس نعيم يوم القيامة وأهوالها على جوهرها فيحصل لها يقظة دائمة، فلا تقدم على عمل إلا إذا علمت أنه ينجيها من عذاب الله تعالى وينيلها ثوابه سبحانه لأن علم اليقين بملاقاه الله تعالى يوم القيامةيقتضى العمل الصالح، ومطلق العلم بها فقط يكون كالسراج الذى يحرق نفسه ويضىء لغيره، ولا يكون عاملاً بعلمه إلا من بلغ علمه اليقين الذى يكون أقوى فى التأثير مما تراه العين وتسمعه الأذن ويذوقه اللسان، فإن الإنسان بعلمه اليقينى قد يرى السيف يسل على عنقه فيقدم إقدام من لايخاف بعد الموت ليقينه أن الموت حياة باقية وسعادة دائمة .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

تقدم معنى البشرى . والله تعالى يأمر فى هذه الآية نبيه بأن يبشر من سألوا فأجيبوا فسارعوا إلى العمل بما يحبه الله تعالى، فتفضل الله عليهم بالبشرى بالفوز بالجنة وبالنجاه من النار يوم القيامة، وبالتوفيق والهداية والعناية فى الدنيا . " الْمُؤْمِنِينَ " أى الذين صدقوا الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ تصديقاً مؤيداً بالعمل.

﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن أبا بكر ﷺ أقسم على أن لايصل مسطحا وله رحم به ماسة وامتنع عن بره باليمين ومعنى الآية ولا تجعلوا اليمين بالله قوة تمتنعون بها عن البر والتقوى فإن الله يحب منكم بر الوالدين وصلة الأرحام، ورعاية تقـــواه سبحانه بأن تكفروا عن أيمانكم وتبروا وتصلوا . وهذه الآية نزلـــت فبـــل آيـــة الكفارات، وقد بينت أن قلوب المؤمنين يجب أن تكون معقودة على الرحمة بجميع الخلائق خصوصا ذوى الأرحام – وإنما تعظم الأيمان بالله تعالى إذا كـــان متعلـــق اليمين الامتناع عما يكرهه الله تعالى، والامتناع عما لم يكن من أعمال البر . أمـــا اليمين بالله عن الامتناع من عمل البر فالله يحب أن يعمل الإنسان البر ويكفر عـــن اليمين . وكلمة : " عُرْضَةً " فى اللغة يعنى قوة .

﴿ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

البر والتقوى من محاب الله تعالى – والاصلاح بين الناس من من محابـــه سبحانه ومراضيه وهو قيام أهل الإيمان بإصلاح ذات البين بين المســـلمين بإزالـــة الشحناء والسخائم والضغائن من بينهم، حتى يزول الجفاء ويحل الصفاء ويتعاونون على البر والتقوى .

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أى انه سبحانه وتعالى يسمع أقوالكم فى الأمر بالمعروف والنـــهى عـــن المنكر والإصلاح بين الناس، ويعلم تصريف نواياكم وجهودكم وأعمالكم الـــتى تقومون بها لنيل مرضاة الله تعالى وخير إخوتكم المؤمنين – ومعنى : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يعلم أعمالكم الظاهرة وأعمال قلوبكم فيكون جزاؤكم علـــى

قدر نواياكم مهما كان العمل، فإن الذى يريد أن يصلح بين الناس قـــد يكـــذب لذلك فيجازيه الله تعالى على قدر نيته لاعلى قدر قوله قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: (إِنَّ اللهَ لاَ يَنظُرُ إِلَى كُلِّ كَلامِ الْحَكِيمِ وِلَكِنَّهُ يَنظُرُ إِلَى هَمِّهِ وَهَوَاهُ)

﴿ لاَ يُؤَاخذُكُم اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَٰنكُمْ﴾

معلوم أن الإنسان الذى يعتبره الشرع هو من كان له قلب لايغفل عن الله ولسان ينطق عن قلبه، قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: (الْمَرْءِ بِأَصْغَرَيْهِ قَلِبِهِ وَلِسَانِهِ) وقـــال العربى : –

لسأن الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم .

قـــال عـــليـــه الصـــلاة والســـلام : (إنـــما الأعمـــال بالنـــيات وإنمـــا لكـــل امـــرىء ما نوى) ولما كانـــت الجـــوارح المجـــترحة هى الـــتى تلـــتقط صور الأحداث فقد تنفعل بطبيعة قوتها التروعية فتتسرع فى الحكم قبـــل الرويـــة والفكر، فيصدر منها أقوال وأعمال بطريق العجلة الفطرية ثم يرجع الإنســـان إلى صوابه ويتوب قبل الوقوع فيمافيه الحد الشرعى، وفى ذلك لاإثم عليـــه فى جميـــع أعماله حتى لو اعتقد عقيدة ونفذ مقتضاه بحسن نية بمعنى أن يكون فى الجهاد فيرى من يعتقده عدوا فيقتله فيتبين أنه مسلم وهو فى الميدان فلاشىء عليه، وكذلك إذا اعتقد أن هذا السائل ماء قراح فأخذ منه حسية فإذا هو خمر فلا إثم عليه .

و الأيمان داخلة فى هذه القاعدة وأنواعها أربعة : يمين بر، ويمين حنـــث، ويمين غموس، ويمين لغو . فالثلاثة الأول ما صدرت بعد الروية والفكر من القلب، واللغو ماصدر عن عجلة أو غلبة ظن . فاليمين البر أن يقسم بالله أن لايفعل كـــذا

بعد روية . واليمين الحنث أن يقسم أن يفعل مع الروية أيضاً . واليمين الغموس أن يفعل الشيء عالماً به موقناً ويقسم أنه لم يفعل، أو لم يفعله ويقسم أنه فعله متعمداً، وحكم البر والحنث أن الرجل إذا ظهر له أن الخير عند الله يفعل ماأقسم أنه لايفعله أو يترك ما أقسم أن يفعله فعل أو ترك وكفر عن يمينه . وأما الغموس فقد قال بعض العلماء يكفر . والذى عليه الفقهاء أنه سمى غموساً لأنه يغمس صاحبه فى نار جهنم، وأما اللفظ الذى يصدر من الإنسان مع العجلة بدون روية ويكثر فى كلامه من غير أن يتبصر فى الأمر أولغلبة ظن بحسب ما يتصوره كأنه يقسم بقوله : لاوالله. ويلى والله . أو هذا والله ملك فلان . أوهذا والله هو كذا بتسرع وظهر ان الحقيقة غير ذلك، فهذا هو اللغو الذى لايؤاخذ الله عليه .

﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾

المؤاخذة من الأخذ . ولما كان الله تعالى لايخلو من حكمة تقتضى العدل بمعناه الأكمل، قال الله تعالى : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ ﴾ أى لايحاسبكم فيكافئكم على أعمالكم إلا على عمل تعمدته قلوبكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولكن لفظ المؤاخذة هنا وضع للجزاء على سوء عمل، واللغو يراد به هنا كل يمين يكفر عنه ولايؤاخذ عليه . والاستدراك هنا بمعنى الاستثناء، فلاتثبت مؤاخذة الله على نوع من أنواع الأيمان إلا على يمين تعمدت القلوب فيه تقوية الباطل ليبطل حقا أويحق باطلا باليمين، وهو اليمين الغموس الذى بينته قبل، لأن هذا اليمين حجة على خبث الطبع ورداءة جوهر النفس حتى تكون نفساً أمارة بالسوء لأن النفس المطمئنة والنفس التى هى اللطيفة الروحانية والجوهرة الربانية لايصدر عنها ولايكون منها إلا الفضيلة عقيدة وعبادة وعملاً وقولاً . ومن تعمد قلبه تقوية الباطل باليمين

دل على نجاسة فى نفسه . ولاطهارة لتلك النفس إلا بالانغماس فى جهــنم حــتى تتحقق بصدق ماجاءنا به محمد ﴿ ﷺ وآله﴾.

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يغفر مايشاء من الذنوب فى الدنيا والآخرة بمغفرته سبحانه، ويمهل أهــل المعصية فى الدنيا رحمة بهم ليتوبوا، أو استدراجاً لهم أعاذنا الله تعــالى . ليرتكبــوا كبائر الإثم والفواحش ليكونوا من أهل جهنم، وستر عليهم فى الدنيا بحلمه، وحلمه على أهل النفوس الأمارة بالسوء فى الدنيا استدراج لهم .

قوله تعالى :﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَــاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِــيمٌ(٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢٢٨)

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾

هذه الآية مرتبطة بالتى قبلها لأن السابقة فى أحكام الأيمان، والإيلاء يمين ولكنه خاص بالزوجية ولايكون إيلاء إلا فى حالة غضب الرجل من المرأة وغضب المرأة من الرجل، فإذا تقاضيا وأقسم بالله أن لا ينكحها أو لا يباشرها فى فرجهــا ومضى على ذلك أربعة أشهر، فهى طالق منه . ومعنى هذه الآيــة أن الرجــل إذا أقسم أن لا يباشر زوجته زمن كذا مدة كذا لخير فلاإيلاء فيه . وإن أقسم علــى

ذلك فى شر فله الرجوع إليها قبل مضى الأربعة أشهر، فإذا مضى الأربعة أشـــهر حرمت عليه ووقع الإيلاء .

ودليل ذلك ماورد أن رجلاً أمر زوجته أن ترضع ابن أخيه فقالت لـــه : إنى أخشى الغيلة، أى أخشى أن تنكحنى وأنا أرضع اثنين فيضرهما . فإن نكـــاح الرجل زوجته وهى ترضع سبب فى أمراض المولود إلا إذا احتاط لنفســـه فأمرهـــا بالامتناع عن رضاع الولد حتى تطهر لأن هذا النكاح يجعل الدم يسرى فى الثديين فإذا أرضع الولد عقب الجماع مباشرة تسمم وأكثر أمراض الأطفال من هذا العمل الجاهلى . فأقسم الرجل ألا يباشرها حتى تفطمهما فلما فطمتهما شكر الناس لـــه صنيعه فقال له رجل من أهل العلم : إن امرأتك طالق لأن هذا إيلاء، فرفع الأمـــر لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : إنما الإيلاء فى الغضب لافى الرضا والخير .

فقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ ﴾ أى يقسمون أن لايباشروا نســـاءهم فى غضب ويهجر زوجته أربعة أشهر فهى محرمة عليه، وإن رجع إليها قبـــل مضـــى الأشهر الأربعة كفر عن يمينه، لقوله الله تعالى :

﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ وفى تلك الجملة محذوف ملحوظ . أى امتنـــاع المباشرة أربعة أشهر فإن تمت الأشهر حصل الإيلاء وطلقت المرأة .

﴿ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

أى عادوا إلى الصفا قبل مضى المدة . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يستر الذنوب ويتجاوز عن العقوبة عليها ﴿رَحِيمٌ ﴾أى يبدل تلك الخطايا بحسنات من فضله .

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يعنى بمعنى المدة التى عينها الله تعالى أو بإعلان الطلاق للزوجة . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسمع كلام النفس وخواطر الضمير " عَلِيمٌ " بما يصدر منكم . وفى هذه الآية تحذير لمن وقع فى شىء من ذلك بينه وبين الله تعالى ثم رجع عنه وحاول إظهار غيره، لأن الله تعالى يحب لنا الخير ويأمرنا به، ويعلم أن مخالفته الشر المستطير فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾

والمطلقة شرعاً هى المرأة المتزوجة المدخول بها التى يتعين عليها القيام بتنفيذ هذا الحكم من الله تعالى . أما المعقود عليها و لم يدخل بها أو المخطوبة و لم يعقد عليها فليست لها عدة إذا طلقها الخاطب أو تركها من طلبها لنفسيه . وهذا الحكم خاص بمن تحيض . أما مقطوعة الحيض أو التى يأتها الحيض أو الحامل أو الأمة فلهن أحكام أخرى، فتعين أن هذا الحكم خاص بذوات الحيض . وقوله تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾أى يمتنعن عن قبول الخطبة وبالأولى العقد حتى يتم ماقدره الله لهن فيكن بائنات ويحل لهن النكاح .

والقرء فى اللغة هو الوقت الذى يكون معتاداً فيه حدوث حدث لايتغير كالمطر والبحر والنبات . فالقرء هو الوقت الذى يزيد فيه النهر . أو تورق

الأشجار أو تنزل فيه الأمطار لذلك سمى الحيض النازل للمرأة قرءاً أى وقت نزوله . وإختلف العلماء فى القرء فمنهم من قال : إنه الطهر . ومنهم من قـــال : إنـــه الحيض النازل وعلى القولين فإن المراة لاتحل لغير المطلق إلا إذا طهرت من الحيضة الثالثة بالماء، فلو أن الحيض جف وأحضرت المرأة الماء ودخلت مغتسلها وقبـــل أن تغتسل راجعها زوجها حلت له . ولو جف الحيض وظنت أن القروء الثلاثة انتهت وعقدت على آخر قبل طهرها بالماء كان العقد باطلاً، وكذلك لو أن الرجل طلقها فى وسط طهر لم يباشرها فيه فعليها أن لاتنكح غيره حتى تتم ثلاثـــة قـــروء لأن أحكام الله تعالى لها حكم متعددة لايعلمها إلا الراسخون فى العلـــم . والواجـــب الوقوف عندما تعبدنا به الله تعالى وهو لفظه الظاهر خصوصاً فى أحكامه الشرعية . والذين تأولوا القرء بالحيض وهم كثير من الصحابة والتابعين يقولون : إن المرأة إذا دخلت فى الحيضة الثالثة لارجعة لها ولاتحل له ولايرثها ولاترثه .

﴿ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾

لما كان المحبوب من الإنسان هو صفاته الحميلة وللنساء بالأخص العفـــة والأمانة، وكانت فطرة بعض الرجال على سوء الخلق وسوء الظن وسرعة الحـــدة أمراً مبغوضا لكل إنسان وخصوصاً للنساء . وكان النساء يبغضن الأزواج لأسباب توجب فقد الألفة والتآلف . كانت المرأة إذا ظفرت بطلاقها من زوجها حرصت على أن لاترجع إليه وتعمل لذلك بقدر طاقتها، فإذا كانت حاملاً أنكرت ذلـــك لتتخلص منه . وسبب نزول هذه الآية الشريفة أن المطلقات كن ينكرن الحيض أو الحمل . أويثبتن الحيض أو الحمل لأغراض خبيثة، فحرم الله ذلك على المؤمنـــات فقال سبحانه : ﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فالله سبحانه رحمة بالمؤمنين والمؤمنات وفضلاً منه أن يدخلهم الجنة يـوم القيامة ويحفظهم من النار، أشار عليهم بما به صلاح حالهم ومعاشهم ومعادهم وما به دوام الصفاء بقوله ﴿ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ ﴾ أى لايحل للمطلقات أن يكتمن الحيض ولاالحمل لكيد أزواجهن، ولا أن يثبتن الحيض من غير أن يكـون تخلصـاً مـن أزواجهن، ولايثبتن الحمل وهن لاحمل عندهن لمضارة الزوج كما يفعـل النسـوة الخبثاء فيدعين الحمل بالباطل ليسلبن أموال الأزواج فى النفقة عليهن، وقد تمكـث المرأة تدعى الحمل أكثر من مدته وهى مصدقة ولايخلص زوجها من شـرها إلا أن تتزوج غيره فيحرم الله كل ذلك .

﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

هذه الآية أفزعت قلوب أهل الإيمان لأن الله بين فيها أن مـن خـالف أحكامه لايكون ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر، وذلك لأن مخالفةأحكام الله تجـرؤ على الجناب المقدس خصوصاً إذاوقعت المخالفة من عالم متعمداً من غير رخصـة شرعية فكان ذلك دليلاً على استهانة بأحكام الله، والمستهين بأحكـام الله مرتـد وعليه أن يجدد إيمانه بتوبة نصوح لأن الله يقول :﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِرِ﴾ يعنى أنه يطالبهن بتلك الأحكام فريضة منه عليهن إن كن مؤمنات بـالله واليوم الآخر، فإذا لم يكن مؤمنات بالله واليوم الآخر فسواء قمن بهذا الواجب أو لم يقمن فإن الشرك الظاهر والخفى يحبط الأعمال، والله جعل من علامة الإيمـان بالله واليوم الآخر المسارعة إلى تنفيذ أحكامه سبحانه بصبرونشاط .

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾

البعل هو الزوج، أى وأزواجهن الذين طلقوهن أحق برجوعهن إلـــيهم قبل القرء الثالث وقبل ولادة الحمل فإن مضى القرء الثالث أو ولد الجنين بانـــت المرأة من زوجها، وظهرت الحكمة وهى عدم إرادة الإصـــلاح فى المعيشـــة مـــن الطرفين أو من أحدهما لقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾ لأن هناءة الزوجيـــة فى الإصلاح بينهما، فإذا تنافرت طباعهما فسد ذات بينهما، ومفهوم هذه الآية أن الذى يراجع زوجته من غير أن يريد إصلاحا يكون مضاراً لزوجته وذلك مالايأمر الله به عباده .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

قدر الله وهو القادر أن يجعل كثرة الإنسان المـــرادة لله تعـــالى بوجـــود النوعين الذكر والأنثى . وليس عند الله فرق بين الذكر والأنثى من حيث أنهمـــا مخلوقان له سبحانه وتعالى، ولكنه جل جلاله خص الذكر بنعم عظمى بما جمله به من العقل والقوة والصحة لاتعتريه الأسقام فى كل شهر، لذلك كلفـــه بالجهـــاد وبالدعوة إلى الله، وفرض عليه كفاية أن يكون إماماً وقاضياً وساعياً فى مناكـــب الأرض، وتحصيل مالابد منه هو ومن تجب عليه نفقتهم من أصوله وفروعه وأهله، وتلك الخصوصيات لاتمنعه من أن يكون عليه حق لزوجته التى خلقهـــا الله تعـــالى لتكون أرضا لغراس الإنسان .

قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ ﴾ أى مثـــل مـــا للـــزوج . أى للزوجة على الزوج حقوق لاتقل عما عليها له . والذى عليها له السمع والطاعـــة فيما أباحه الشرع وأقره العرف والعادة، وعليها أن تحفظه فى حضوره وغيابـــه فى عرضه وماله ووالديه إن احتاجا إليه، وعليه لها القيام بنفقتها هى وأولادها وإعداد

مأوى يؤويها يناسبها مع اللباس والفراش وتحصينها من أن تحتاج إلى الغير فيما لابد لها منه مع الاستطاعة .

قوله تعالى : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بالحالة الوسط التى يتعارف عليها أهل عصرهم مراعياً فى ذلك حسن المعاشرة التى تطيب بها العشرة . وهذه الآية الشريفة تبين للزوج أن رجوع المرأة لذمته بعد طلاقها ليس المراد منه المضارة والتشـــديد، وإنما المراد منه أن تعيش معه فى سعادة تناسبها وأن يعيش معها فى راحة، كل يقوم للآخر بما يجب عليه شرعاً وعرفاً مع الصفاء والوفاء لينالوا رعاية الله تعالى وفضله فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

الدرجة هى المترلة . والدرج هو طى الثوب أو قطع المسافة . والمعنى هنا والله تعالى أعلم أن الرجل له مترلة على المرأة، لأن الرجل هو الذى يدفع الصداق ويقوم بمعاشرتها ولوازمها، وله فضل فى الميراث والغنيمة والإمامة وقيادة الجيش فى الجهاد، وتعليم الناس العلم الذى حصله، وفى الشهادة وفى العبادة لأن المرأة تسقط عنها الصلاة فى الحيض . وكل تلك الحقائق تجعلها ناقصة فى عـــين الرجـــل، لأن الحكمة أقتضت أن تكون كثرة بنى الإنسان بالنوعين معاً بل تلك الحقائق تقتضـــى أن تترل الزوجة مترلة الأم رحمة وعناية وتثقيفاً ومساعدة وأنه يجب على الرجال أن يوقفوها عند مستواها الذى يقتضيه نوعها فلا تكلف فوق قوتها، ولا يعهد إليهـــا بأعمال تقتضى طول البحث وقوة الفكر والصبر وقوة الأعصاب والعضلات لأنها إذا أسند إليها شىء من ذلك خارت همتها ودعتها الضرورة إلى التساهل المؤدى إلى

خيبة الأمل، فإن الله أودع فيها سبعين قوة فى الرغبة إلى الشهوة وفى الرجل قـــوة واحدة .

وكلنا يعلم بحسب الفطرة أن الرجل إذا دنت منه المرأة مهمـــا كانـــت الأعمال المختصة به تجدد عنده الميل إلى النساء، ودعته الشهوة إلى أن يميل إليهـــا ويعطف عليها وهو بالنسبة لها واحد من سبعين فى تلك القوة، فكيـــف بهـــا ظ والرجل قد يستغنى عن المرأة لأنه إذا توفر المنى فى المجموع المنوى اندفع بليل او نهار من غير مباشرة النساء . وأن المراة إذا دعتها تلك الضرورة احتاجـــت إلى ثلاثـــة أعمال : الإيلاج والمباشرة من ظاهر العضوين وإنزال الماء الذى يتطلبه الرحم بشبق شديد .

لعلك أيها الرجل الخبير تحكم معى بأن المرأة يجب أن تكون فى خدرها، ومن اقتدر أن يضع النار على البارود فلا يتأثر البارود بالنار أسلم له أن يجعل المرأة تشترك فى الأعمال الفكرية، وتجلس على كراسى الاشتراك مع الرجال فى أعمالهم، بل من اقتدر أن يغير طبع حيوان بالتثقيف والتهذيب حتى يجعله ينسى ما فطر عليه، كما حصل أن رجلاً هذب قططاً وجعلهن تحمل الشموع ويقفن حول الموائد، وفى يوم من الأيام حملت القطط الشموع فسقط عليهن جرذ (فأر) فألقين الشـــموع على الأرض وفررن وراءه فاحترق البيت وذعر الجالسون .

فكذلك الذى وضع شدة الشبق فى النساء للرجال ليصبرن على الحمـــل والوضع والرضاع هو الذى وضع الفطرة فى الحيوانات . والتثقيـــف والتهـــذيب والتعليم لا يغير الحقائق عما جبلت عليه .

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

أى قوى قهار فى تنفيذ ما قدره، حكيم فى وضع أحكامه وأوامره . وليس للعقل وإن كمل أن تتجلى له الحقائق التى بها خير الإنسان فى الدنيا والآخرة . ولو كان ذلك لكانت بعثة الرسل عبثاً ولكن العزيز الحكيم هو الذى خلق الإنســان وعلم خيره والوسائل التى بها نجاته وسعادته فى الدنيا والآخرة، فأنزلها على أنبيائــه وأمرهم بتبليغها لعباده . وكل فئة أو مجتمع خالف أحكام الله تعــالى ســاهياً أو متعمدا و لم يتب ويرجع إلى الحق خسر الدنيا والآخرة . والدليل القاطع والحجــة الدامغة على ذلك ما حصل للمجتمع الإسلامى من تسليط من كانوا مماليك عنده يباعون فى الاسواق عليه، بمخالفته لأحكام الله وترك العمل بسنن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

قوله تعالى :﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَــا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢٣٠)

﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾

سبب نزول هذه الآية أن أهل الجاهلية وصدرا من الإســلام فى عصــر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كانوا يطلقون النساء طلاقا مكرراً حتى إذا قربت نهايــة

العدة راجعوهن . وغضب رجل من الأنصار على امرأته فقال لها : لا أقربك ولا تحلين منى، فقالت كيف ؟ قال : أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقـــك حتى فإذا دنا أجلك راجعتك . فشكت ذلك إلى النبى ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ فـــأنزل الله تعالى ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ وذلك لأن الطلاق فى الجاهلية وفى الصدر الأول من الإسلام لم يكن لوقوعه نهاية فحدده الله تحديـــدا بينا حتى إذا كانت الثانية كان له أان يراجع زوجته فإذا كانت الثالثة ملكت نفسها وذلك رحمة من الله تعالى بالمرأة التى يعلم الله منها الضعف وسرعة الانفعال، فجعل ثلاث طلقات تكفى فى تهذيب أخلاقها وصفاء سريرتها فإذا لم تنتج النتيجة المطلوبة تحقق أنها لا تصلح لمعاشرته . ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعنى أن الرجل له أن يطلق امرأته ويراجعها فإذا أحسنت العشرة صافاها وإذا لم تحسن طلقها الثانية وراجعها، فإذا أثرت فيه وفيها وتصافيا كان بها ، وإلا طلقها وصارت لا تحل له ولا يحل لها حتى تنكح زوجا آخر فترى منه ما يجعلها ترغب فى الأول أو تدوم مع الثانى ، فإن طلقها الثانى فهى بالخيار فى الزواج من زوجها الأول أو غيره كما سيأتى بعد .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ يعنى أن الرجل إذا طلق المرة الأولى وراجعها فإن طلقها الثانية فله أن يراجعها فيمسكها أى يدوم على عشرتها : ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ أى الطلاق الثالث من غير مضـــارة ولا إكراه، بل يدفع لها باقى صداقها ويمنحها نفقتها والمتعة إن كانت لها بإحسان مـــن غير ضرر وعناد لأن ذلك الإحسان من شأن أهل الإيمان . أما أهل النفاق وأهـــل النفوس الخبيثة فإنهم ينتقمون من النساء ويؤذونهن وذلك من ضعف الإيمان .

﴿ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾

سبب نزول هذه الآية الشريفة بسند الإمام ابن جرير الطبرى قال : سئل ابن عباس هل كان للخلع فى الإسلام أصل ؟ فقال : إن أول خلـــع فى الإســـلام لأخت عبد الله بن أبى فإنها أتت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقالت : " يارسول الله لايجمع رأسى ورأسه شيء أبداً تعنى زوجها إنى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدد فإذا هو أشدهم سوادا وأقبحهم وجهاً . قـــال زوجهـــا : يارســـول الله إنى أعطيتها أفضل مالى " حديقة " فلتردد على حديقتى . قال ﴿ ﷺ وآله﴾: ماتقولين ؟ قالت : نعم، وإن شاء زدته . قال : ففرق بينهما " وبالسند المتقدم عن عائشـــة رضى الله عنها . أن حبيبة بنت سهل زوجة ثابت بن قيس بن شماس ضربها زوجها فكسر بعضها فأتت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد الصبح فاشتكته، فدعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثابتاً فقال .خذ بعض مالها وفارقها . قال أويصلح ذلك يارسول الله ؟ قال :نعم . قال فإنى أصدقتها حديقتين وهما بيدها . فقال النبى ﴿ ﷺ وآلـــه﴾: خذهما وفارقها . أما تأويل هذه الآية أن الله سبحانه يحرم علينـــا أخـــذ ماآتينـــاه لأزواجنا من صداقهن ومما بقى علينا لهن منه ومن نفقتهن، بل ومما أعطى لهن على سبيل صلح أو غيره .

﴿ إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾

اسستثنى الله من هذا الحكم أن الزوج له أن يأخذ ما آتاه للمرأة إن ظن أو تحقق أنها لاتقيم حدود الله معه، وكذلك للزوجة أن تأخذ ما آتاهـــا الـــزوج ويفارقها إن ظنت أنه لايقيم حدود الله معها، وهذا هو الخلع . فإن كرهت المـــرأة الرجل وأبت أن تطيعه ونشزت فللقاضى أن يحكم عليها برد ماأخذتـــه منـــه وأن يفرق بينهما . وإذا كره الرجل المرأة وأبى معاشرتها وأخرجها كارها لها فللقاضى

أن يحكم بدفع مالها من الصداق ومالها عنده وأن يفرق بينهما . وقوله تعـــالى : ﴿ إِلا أَنْ يَخَافَا ﴾ أى ظنا أو تيقنا لأن الظن يحل محل الخوف كما يحل الخوف محـــل الظن وفى رواية : " إن ظنا"

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾

الخطاب لولاة الأمر الذين هم مسئولون عن تنفيذ أحكـــام الشـــريعة . والمعنى أنكم ياولاة الأمر إذا ظننتم أن الزوج والزوجة لايقيمان حدود الله بمخالفة الزوجة زوجها بأن تقول له لاأطألك فراشاً ولاأطيعك فى أمر ولا أسمع منك قولاً، فيخاف أن يضربها أو يشتمها فيكون ذلك موجباً لغضب الله تعالى وذلـــك هـــو الخوف منه ومنها فلاحرج على ولاة الأمر إذا أعادوا للرجل ماأعطاه لها وهو الذى تفتدى به نفسها من زوجها . وجائز أن يكون الخوف من جهه الزوجة أو مـــن جهة الزوج فقط .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِـــكَ هُـــمُ الظَّالِمُونَ ﴾

الإشارة إلى ماتقدم من الأحكام التى هى أحكام الله المنزلة على نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فيمايتعلق بالزوجية، وهـــى الـــحدود الـــفاصلة بـــين الحـــق والبـــاطل، ومـــن خـــالف تـــلك الأحكـــام بـــأن تـــعداها إلى هـــواه وحظه : " فَأُولَئِكَ "

﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ والإشارة هنا عائدة إلى مـــن يتعـــدى حـــدود الله . والظالمون هم من ظلموا أنفسهم بمخالفة أحكام الله وقد يعظم الظلم فيكون شركاً

. قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) وبلوغ الظلم إلى حالة تعظيمه هو أن يستهين الإنسان بأحكام الله وينفذ هواه عناداً .

وهذا تهديد من الله يتعدون حدوده فى أحكامه، مايتعلق منها بالزوجية وغيرها، اللهم إلا ما رخصت فيه الشريعة أو دعت إليه الضرورة بدليل قوله تعالى : ﴿ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ (٢) ومعنى أنها حدود الله الفاصلة بين الحق والباطل أن الزوج المؤمن الأولى له أن يكون رحيما فيتجاوز لزوجته عن بعض ماله أو عن كله رغبة فة نيل رضوان الله، وبذلك قد ينتقم الله منها إن كانت ظالمة له .

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾

هذه الآية مرتبطة بالآيات السابقة من قوله تعالى : ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ أى تطليق الثالثة وهى المذكورة هنا . ويظهر أنه لاعلاقة لها بالآية السالفة والمعنى والله أعلم فإن طلقها الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره .. ولفظة النكاح صالحة أن تكون العقد أو النكاح بعد العقد . وفى هذه الآية مدلول النكاح : الغقد والنكاح . فإن نكحها غيره بالعقد من غير وطء فلا تحل له أو نكحها من غير عقد فلا تحل له .

والذى عليه الأئمة أن النكاح هنا هو العقد والوطء . عن عائشة رضى الله عنها أن رفاعة القرظى طلق أمرأته فبت طلاقها فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير فجاءت للنبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فقالت " يانبى الله إنى كنت عند رفاعة فطلقنى

---

(١) سورة لقمان آية ١٣

(٢) سورة الأنعام آية ١١٩

ثلاث تطليقات فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنه والله مامعه يارســـول الله إلا مثل الهدبة، فتبسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثم قال لها : لعلك تريدين النكاح ؟ تريدين أن ترجعى إلى رفاعة، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عســيلتك " وهـــذا الحديث بيان للآية .

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾

أى فإن طلقها الزوج الآخر فلا جناح على الأول ولا عليها أن يتراجعا، لأنها بطلاق الآخر لها بعد النكاح الصحيح جاز للأول أن يتزوجها .

﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾

أى إن حل رجوع الزوج الأول لهامشترط فيه أن تكون المرأة تهـــذبت والرجل تهذب وندما على ما حصل منهما وعزما على إصلاح عشرتهما .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

أى هذه الأحكام التى يفصلها سبحانه لنا جلية يبينها للعـــالمين الـــذين علمهم الله مراده من أحكامه، وهم الذين يسألون فى مثل هذه الحقائق فيشرحونها للناس، أو هم ولاة الأمر الذين ينفذون أحكام الله إذا رفعت إليهم القضـــايا . وفى قوله : (يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أن الإنسان إذا لم يكن عالماً بتلك الأسرار وجـــب عليه أن يسأل من فوقه فى العلم وأن يقلده فيما بينه له من أحكام .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ

نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٢٣٢)

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾

هذه الآية وما بعدها عناية من الله تعالى بالزوجات، لأنه سبحانه وتعالى أمر النساء أن يطعن أزواجهن بما بينه بأمره لهن أن ﴿ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾[1] وذلك من الغيرة عليهن أو بما فطرهن عليه من المرض فى كل شهر بالحيض، ومن المرض بالحمل والوضع والرضاع الذى يجعل المرأةلاتطيق مزاولة عمل من أعمال الرجال من تجارة وصناعة وزراعة ومهنة إلا عند الضرورة التى تدعوإذا كانت خالية من الزواج ولاولى لها، أو حصل لزوجها مايمنع عن العمل فإذا خرجت المرأة عما فطرها الله عليه وترجلت من غير ضرورة داعية وجب على من له الأمر عليها أن يكبح جماحها، لأن النساء إذا خرجن فترجلن كان ذلك ضرراً على المجتمع الإنسانى بفقد النسل، لأن المرأة لاتستغنى عن الوقاع فتضطر أن تخالف الشريعة إن كانت خبيثة النفس، أوتستعمل مايمنع الحمل لتعمل عمل الرجال فى الأسواق والحقول وتعيش مع زوجها وهذا ينذر بخراب المجتمع .

---

(١) سورة النور آية ٣١

أما مايعمله النساء الفقيرات من ذلك فى بلاد الأرياف فذلك فضل منهن وعادة جعلتهن لايرغبن فى الرجال الذين يزاولون الأعمال معهن ولايرغب الرجال فيهن كالإماء اللائى تزاولن الأعمال فى المنازل والأسواق، أو كالأفرنجيات اللائى لاتميل إليهن طباع الرجال لكثرة اختلاطهن بهم من غير مبالاة ولاصون . وبهـــذا يأمر الله تعالى الرجال أن يعاملوا أزواجهن كما يحبون أن يعاملوا بالرفق والعدالـــة والرحمة والمساواة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِـــكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى ارجعوهن إلىعصمتكم بحالة ترضيهن كما أمركم الله تعالى : ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى فارقوهن بمعروف بأن تعطوهن ما عليكم من بـــاقى صداقهن ومتعتهن، وأن تستروا عنهن العيوب التى اقتضـــت مفارقتـــهن حفظـــاً لمستقبلهن .

﴿ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾

أى لاتحبسوهن مضارة لهن وذلك بتأخير عـــدة الزوجـــة أو بتركهـــا كالمعلقة، فإن معاملة النساء بتلك المعاملة دليل على خبث النفس وسوء الطبع كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى من يفعل ماحرمه الله من أذية الزوجة فقد ظلم نفسه أى أوقعها فيما يقتضى غضب الله عليه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة لأن الظلم كما بينت لك هو وضع الشىء فى غير موضعه .

وسبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار يدعى ثابت بن بشار طلق امرأته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة فراجعها ثم طلقها ففعل ذلك بها حتى مضت تسعة أشهر مضارة لها فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَلا تُمْسِـــكُوهُنَّ ضِـــرَارًا لِتَعْتَدُوا ﴾

﴿ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾

يهدد الله تعالى من يهزأون بأوامره سبحانه ونواهيه التى بينها مفصلة فيما سبق من هذه الآيات، خصوصاً فى أحكام الطلاق والرجعة التى ترتبط بها أحـــوال المعاش والمعاد، فإن العمل بأوامر الله تعالى وترك نواهيه سبحانه مما تحسن به العشرة فى الدنيا فيعيش الإنسان فى هناءة وصفاء، وينال به النعيم المقيم يوم القيامة . ومـــا خالف أوامر الله ووقع فى نواهيه أحد إلا ساءت حاله فى الدنيا وعذب يوم القيامة، أما فى الدنيا فإنه يعيش حزين القلب مغموماً مضيقاً عليه الرزق . وأما فى الآخـــرة فإنه يحرم نعيم الرحمة والإحسان من الله تعالى بسبب سوء معاملتـــه لزوجتـــه أو مضارتها .

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ)

الذى أراه أن نعمة الله تعالى علينا هو سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ نبى الله ورسوله الذى أرسله سبحانه إلينا بالهدى ودين الحق، وجعله لنا بشـــيرا ونـــذيرا وداعياً بإذنه وسراجا منيراً . وجائز أن نفهم فى قوله : (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) أنها جميع النعم إجمالا ثم فصلها بقوله تعالى (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) وإن كانت واو العطف هنا تفيد التغاير فتكون نعمته هى محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنه بين لنا ما أنزله الله علينا فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ مثلا أعلى فى قوله وعمله وحاله بمحاب الله تعالى ومراضيه، وكانت أعماله وأحواله وأقواله أمامنا مما نطيقه بسهولة، فكأن الله تعالى أرسله لنا لنتشبه به تمام التشبه وبذلك نفوز برضـــوان الله

الأكبر قال تعالى : " وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ "[١] يعنى أنه تعالى جعله أمامنا بشراً يعمل مافى طاقة البشر من عبادة بأنواعها ومعاملة بأجملها وبذلك يكون : (وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ) معطوف على قوله : (نِعْمَةَ اللَّـــهِ) أى : اذكروا ماأنزل عليكم . (مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ) أما الكتاب فهو القــرآن المجيد، وأما الحكمة فكلام رسول الله وبيانه بالعمل والحال والقول .

(يَعِظُكُمْ بِهِ)

الموعظة هى بيان الخير والرشد البيان الذى يقبله العقل ويؤيده الشرع . وكانت موعظته ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بأسلوب الحكيم لأن الله تعالى ألقى عليه محبة منه، فكان إذارآه العدو اللدود الذى أقبل ليقتله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ونظر إلى وجهه وسمـــع كلامه أحبه بملء قلبه، وكانت المحبة التى ألقاهاسبحانه على موسى لحفظ ذاته من فرعون وجنوده، ولكن المحبة التى ألقاها سبحانه على رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لرحمـــة الخلق من عمار السموات والأرض، لأن الله تعالى حفظ العالم مما كان قبل ظهوره ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من غرق وخسف ومسخ . قال سبحانه : " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَـــذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ " [٢]

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أى خافوا الله مخافة تجعلكم تسارعون إلى تنفيذ أوامـــره بصبروســـرور، وتتباعدون عن الوقوع فى معاصيه تعظيما وإجلالاً له سبحانه، لأن التقوى عمـــل

(١) سورة اللأنعام آية ٩

(٢) سورة الأنفال آية ٣٣

من أعمال القلوب يجعل جوهر النفس يتمثل جمال الله وجلاله ورهبته وعظيم نعيمه وشديد عقابه .

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

ذكرى من الله للمؤمنين الذين لم يبلغوا مقام الإحسان الذى بينه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله بسند الإمام البخارى : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه) فإن أهل الإيمان قد تدعوهم المقتضيات فينسى الرجل منهم واجب الوقت وبذلك ينسى الله فى كل حال من أحواله وينسى معيته له أينما كان . فيذكرنا ربنا بهـذه الآية الشريفة أن نجاهد أنفسنا استحضاراً عند كل رخاء وشدة أنه يعلم حالنا وشئوننا وما تكنه ضمائرنا . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ (المؤمن فى يمين الله كلما وقع أقامه) فدل ذلك على أن المؤمن ينسى ولكن عناية الله تعالى به تقيمه كلما وقع . وهذه الآية تدل على ذلك لأن الله يقول : (وَاعْلَمُوا) أى تحققوا " أَنَّ اللَّهَ " أتى بحرف التوكيد تقوية للخبر وهو من الصادق جل جلاله " بِكُلِّ شَيْءٍ " من أعمالكم وأقوالكم وأحوالكم ومعاملاتكم (عَلِيمٌ) مطلع عليها اطلاع حيطة بكل جزء من أجزائها لايخفى عليه شيء . ومؤمن يراعى فى كل شأن من شئونه أن الله به عليم يجاهد نفسه فى مرضاة الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٢٣٢)

سبب نزول هذه الآية الشريفة مابينته لك أولا من عمل الجاهلية، ومـا كان يعمله بعض الناس من مضارة الزوجة بأن يطلقها الطلقة الأولى ويتركها حتى إذا قاربت وفاء العدة راجعها ثم طلقها الطلقة الثانية فتمضى ستة شهور فإذا قاربت وفاء العدة الثانية راجعها ثم طلقها فتمضى ثلاثة شهور أخرى فتكون قد مضـت تسعة أشهر فى ضرر فحرم الله ذلك على المؤمنين ونهانا عن عضل النسـاء بقولـه تعالى : (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) يريد سبحانه التطليقـة الأولى وأردتم مفارقتهن (فَلا تَعْضُلُوهُنَّ) بتأخير العدة عليهن فإن الله سبحانه يكره أن يضـار الرجل زوجته .

وهذا الخطاب يجوز أن يكون للأزواج أولأولياء المرأة، فإن كان الخطاب للزوج فيكون المعنى : فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن الذين قدر الله لهم الزواج منهن، وإن كان الخطاب لأولياء المرأة بالمعنى يكون: فإذا بلغن أجلهن أى قـاربن إنهاء العدة وقبل انتهائها وحصول البينونة طلب الرجل إرجاع زوجته إليه فعلـى الوالد أو الولى أن لايمنعها عن الرجوع للزوج .

(إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

المراد هنا إذا تراضى الرجال والنساء وعلت الرجال على النساء والتراضى وقوع الرضا من كل جانب منهم عن الآخر . وقوله : " بِـالْمَعْرُوفِ " أى بمـا يتعارفه أهل العقل والحلم مما لا يخالف شرعاً ولاعقلاً ولا عرفاً .

(ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

الإشارة عائدة إلى مابين الله من أحكام الطلاق والرجعة والخلع والكاف هنا لخطاب رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ و(يُوعَظُ بِهِ) أى تؤثر الموعظة به إلا على من كان يؤمن بالله أى يقر بوحدانية ويصدق بربوبيتة ويسارع إلى القيـــام بـــأوامره والبعد عن نواهيه سبحانه وتعالى : " وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " أى يصدق بيوم البعث وبما فيه من النعيم المقيم لمن اتعظ بأحكام الله وعمل بها، وبالعذاب الأليم الذى يكون فيـــه من خالف أوامر الله تعالى ووقع فى نواهيه .

(ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ)

يعنى أزكى لنفوسكم وأطهر لأخلاقكم، ومعلـــوم أن تزكيـــة النفـــوس وتطهير الأخلاق من محاب الله ومراضيه سبحانه . قال تعالى : " قَدْ أَفْلَـــحَ مَـــنْ زَكَّاهَا " (١)

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

معنى ذلك أن الله تعالى يعلم ماقدره من الخير فى حسن العشـــرة، ومـــن تفضله بالبركات على من عامل الله تعالى فىزوجته ورحمهـــا وأحســـن إليهـــا، وعاملت المرأة زوجها بالآداب الشرعية والمحبة والمحافظة على عرضه وماله ووالديه، فإن ذلك يجعلها منعمة بخيرى الدنيا والآخرة " وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ " ماقـــدره الله فى المستقبل، فالأولى لكم أن تحافظوا على المسارعة إلى ما أمركم الله به والبعد عمـــا نهاكم عنه .

(١) سورة الشمس آية ٩

قوله تعالى : وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٣)

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ)

بين الله لنا فى هذه الآية أحكام الرضاع ومايتعلق بذلك . ولما كان الكلام السابق متعلقا بالطلاق ناسب أن يبين لنا أحكام الزوجة التى تلد لزوجها بعد بينونتها قال تعالى : " وَالْوَالِدَاتُ " اللاتى ولدن أولاداً من زوج طلقهن بتاتا " يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ " والأمر هنا للندب لاللوجوب يعنى أهُن أولى برضاع أولادهن من سواهن وجعل لنهاية الرضاع مدة عينها سبحانه بقوله : " حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ " والحولان سنتان هلاليتان . وفى قوله " كَامِلَيْنِ " خروج عن التجوز . لأن الإنسان قد يكون فى شهر الحجة والمحرم فيقول مضى على عامان وهذا هو الغالب فى لغة العرب . فقوله تعالى " كَامِلَيْنِ " أراد به أهما أربعة وعشرون شهراً لمن أراد أن يتم الرضاعة، والمراد بـ(من) هنا الزوج والزوجة إذا رضيا على أن يرضع الولد من أمه حولين كاملين من غير منازعة فيكونان أتما نهاية الرضاع، وإذا أراد الوالد أن يفطم الولد قبل العامين و لم ترض الأم فلا .. وكذلك إذا أرادت الأم أن تفطمه قبل الحولين و لم يرض الوالد فلا .

وبترتيب على هذا الحكم أحكام . أن رضاع المولود بعد تمام الحولين من غير أمه لايحرم عليه مايحرمه الرضاع فإنه فى الحولين يتركب العظم واللحم، فإذا أتم الولد الحولين كانت قد تمت عظامه ولحمه . ورضاع الأم المطلقة لولـــدها لـــيس بواجب عليها لقوله تعالى : " وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِـــنْ سَعَتِهِ " [1] (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) فإذا فهمنـــا قولـــه تعالى : " وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا " [2] مع قولـــه ســـبحانه : " وَالْوَالِـــدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ " يظهر لنا أن أقل الحمل ستة أشهر وأكثره ثلاثون شهراً، ومن مكث فى بطن أمه ثلاثين شهراً كان لارضاعة له لأنه إذا نـــزل نـــزل كامل الأسنان كامل العظم واللحم فلايحتاج إلى رضاع .

وقد انتهى بحث الأطباء إلى حقيقة . هى أن الأولاد إذا فطمـــوا قبـــل السنتين كثرت الوفيات منهم، وإذا رضعوا السنتين قلت الوفيـــات منـــهم . لأن أعضاءهم الباطنية تكون غير قابلة للأغذية النباتية وغيرها . فثبت بتلك النظرية أن الله هو الذى خلق الإنسان وعلم منافعه ومضاره . ولذلك فالشريعة تأبى على المرأة أن تفطم ولدها قبل سنتين إذا لم يرض والده بذلك – وكذلك تمنع الشريعة فطام الولد إذا أراد والده وأبت والدته، وعلى الوالى أن ينفذ أحكام الشريعة رغم أنف المخالف منهما رعاية للمصلحة التى حكم الله بها فى كمال السنتين فى الرضـــاعة أوجب الله تعالى على الوالد أن يقوم بالواجب للوالدة من مطعم ومشرب وملبس ومسكن وفراش .

---

(١) سورة الطلاق آية ٦–٧

(٢) سورة الأحقاف آية ١٥

﴿بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا ﴾

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى بالمتعارف بين الناس بالنسبة لهما ما لم يوقع فى ضـــرر أحدهما . ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا﴾بيان لقوله تعالى : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى أن الله تعالى أوجب على الرجل أن ينفق على المرأة بقدره وقدرها فلا يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ولا مبسوطة كل البسط فيرهق نفسه . أو يضر المرأة التى حبست نفسها لترضع ولده فتكون مخالفة حكم الله فى عدم كمال رضـــاع الحـــولين ســـبباً فى استطراق الأمراض إلى الطفل فيموت بقدر الله الذى قدره عليه سبحانه، فـــإن الله جل جلاله يعلم خفيات الضمائر وخواطر القلوب فيعامل خلقه بقـــدر تصـــريف نواياهم فلا يكلفهم إلا بقدر ماتسعه حالتهم المالية والخلقية، أى ما تطيق أن تقوم به من غير ظلم أو تظالم .

يقول العربى (يسعنى هذا الأمر وأنا أسعه) أى أطيقه وأقدر عليه . وقد سأل تلميذ شيخه فقال : انصحنى، فقال : لتسعك الشـــريعة . أى أن االشـــريعة أباحت مالابدلك منه وأكمل فلا تتعداها إلى هواك وطبعك .

﴿ لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾

يعلم الله مافى النفوس من الحرص والطمع والتروع إلى الســـوء، وذلـــك يكون جليا خصوصاً إذا طلق الرجل امرأته وكانت حلا منه فإن الطلاق لايكـــون إلا بعد معارضة تفضى إلى عناد وشحناء فيحب كل واحد مهما أن ينـــتقم مـــن الآخر، فقد تدعو تلك الشحناء إلى أن الرجل يقهر المرأة على أخذ ولـــده منـــها ليرضعه عند غيرها وفى ذلك من الضرر مالا يجهله أحد، أو أن المرأة لبغضـــها فى

والد ماولدت تأبى أن ترضعه فتلزمه بأخذه، أو أن الرجل يأبى أن يقوم لهـــا بمـــا يلزمها بحالة ترضيها ويحصل النزاع والشقاق، وفىذلك ضرر على الوالد والولـــد والوالدة وذلك يكرهه الله منهما . لأن الرحمة إذا انتزعت من قلب إنســـان فهـــو شقى .

ورجل تنزع الرحمة من قلبه بالنسبة لولده أو امرأة تنزع الرحمة من قلبها بالنسبة لولدها تقوم الحجة على أنهما ليسا من بنى الإنسان، فالله تعالى يحذرنا مـــن أن يقع الرجل أو المرأة فى مثل هذا الضررالذى به غضب الله تعالى على من يتعمده منهما وهى أبلغ موعظة من الله لنا . وكل إنسان تعمد هذا يجب أن يسقط مـــن رتبة الإنسانية لإقامة الحجة على نفسه أنه وحش كاسر لايرحم ابنه، وكذلك كل أمرأة تعمدت هذا وجب على الناس بغضها لأن امرأة لاترحم ولدها الطفل كيف ترحم غيره وقد خلقت للرحمة ؟

﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾

أى أن الله تعالى أوجب على المولود له رزق المرأة التىولدت إلى إتمـــام الرضاع، فإن مات الوالد فعلى وارث المولود له مثل ماعلى والده، فإن لم يكن له وارث من أخ أو عم أو خال فعلى العصبة العاقلة، وذلك واجب شرعى أوجبه الله تعالى، إذا لم يقوموا به ألزمهم القاضى بالقيام به قهراً لأنه أرحم الـــراحمين يحـــب الرحمة من عباده ويكلف أهل الإيمان أن يتشبهوا بأخلاقه العلية جـــل جلالـــه . وأفضل مايحب الله تعالى أن يتقرب به العبد الرحمة خصوصا فيما يتعلـــق بـــالمرأة الحامل فى أيام حملهاورضاعها .

وهنا يظهرجليا من قوله تعالى : ﴿ الْوَارِثِ ﴾ أن الوراثة لا تكلف بشىء من هذا ومن نظر إلى أحكام الله بعين الإيمان يعلم مقدار ما كلــف بــه الرجــل ومارفع من التكاليف عن النساء لعلمه سبحانه وتعالى بماركبه فيهن من القوى التى لها قدر معلوم فى حمل الواجبات وطوقها . ومن نظر بعين الرأس المجردة التى تكذب على الإنسان فى غالب أحوالها أنزل المرأة منزلة الرجل فقال : إن المرأة تأخذ مــن الميراث بمقدار الرجل وأن عليها واجباً للمجتمع تقوم به كما يقوم به الرجل لجهله بما كونت منه من الحقائق، وليس للعقل إن كمل ولا للجسم وإن صح أن ينظر إلى أحكام الله بتلك العين الكليلة .

وقد قلد من أعمى الله بصائرهم جهلاء أوربا الماديين فى كثير مما يخالف أحكام الله التى أنزلها فى كتابه جهلاً منهم بحقيقة الرجل وحقيقة المرأة . والحقــائق لاتنقلب إلى ضدها فى وقت ما، فالأنثى أنثى ولو حصلت من العلوم مقدار الجبال، فإن بواعث الأنوثة مهما قهرها المقتضيات تنجذب بشدة إلى الــذكورة فتمحــو الحفيظة، وتوقيع المرأة فيما تقتضيه رتبتها من وضعها فراشاً للرجل يعلوهــا مــتى رسمت صورته على خيالها بمعنى جذابة لاتبالى فى ذلك الحلال والحرام ولديها تفدية بشرفها ودينها وعرضها .

والواجب على الرجال أن يحصنوا أعراضهم بأكثر مما يحفظون به أموالهم، ومن قدر أن يضع النار على االبارود أو الغاز فلا يتأثر نسلم له أن يضع المرأة حيث شاءت كما فعل الجهلاء بالحقائق فى أوروبا، وقد عاب العرب على عزيز مصــر قوله لزوجته ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (١) ولو أن عربيــاً

(١) سورة يوسف آية ٢٩

وقعت له تلك الحادثة ما وسعه إلا أن يقتل المملوك وسيدته، ولكن الله صاغ نفوس العرب ليكونوا أولياءه المتخلقين بأخلاقه والغيرة من خلق الله ســبحانه وتعــالى، ولذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن وتوعد عليها الخلود فى النار .

﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾

جعل الله الحولين الكاملين نهاية رضاع المولود للزوجة المطلقة، وأوجب لها على المولود له رزقها وكسوتها بالمعروف . ثم جعل الفصال أى فطام الولد قبل الحولين إن طلبا ذلك بتراض وتشاور بينهما مباحاً لهما لاجناح عليهما فيه وبذلك لو أرادت المرأة فطام الولد قبل الحولين الكاملين و لم يرض الوالد فلــيس لهــا أن تفطمه كما لو أراد فطامه قبلها فليس له أن يقهرها، وعلى من يريد ذلك منفــرداً الجناح .

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَــيْكُمْ إِذَا سَـــلَّمْتُم مَّآءَتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾

بعد أن فصل الله لنا ما يتعلق بوجوب النفقة على الوالد لمرضعة ولــده المطلقة منه، بين لنا مايقع فى حالة الحرج من المرأة المرضع إذاأبت أن ترضع ولدها بعد أن قام لها الوالد بما يجب عليه لرضاع ابنه . فإذا أبت المرأة أن ترضــع فعلــى الرجل أن يقيم مرضعة أخرى، وكذلك إذا أبى الرجل على المرأة أن ترضع ولــده منها لقلة لبنها أو لمرضها أو لفقد عنايتها بالمولود ورضيت بذلك فلا جناح علــى الرجل ولا على المرأة إذا ما أرادا الخير للمولود . وفى قوله تعالى : ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يعنى إذا سلمتم الوالدة أو المرضعة ما تعهدتم به لها بحالة ترضى

بحسب العرف والعادة . وجائز أن يكون المعنى إذا حصل التسليم من المولود لـــه والوالدة المطلقة أو المرضعة بالقدر الذى عيناه .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى خافوا الله فى تنفيذ أحكامه التى فرضها علـــيكم فى الرضاع والاسترضاع لافرق بين المولود له والوالدة المطلقة والمسترضعة، ثم أزعـــج الله قلوبهم بقوله جلت ذاته : ﴿ وَاعْلَمُوا ﴾ أى تيقنوا﴿أن الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مؤكداالجملة بحرف التوكيد و ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى بكل عمـــل تعملونـــه بقلوبكم أو بجوارحكم مبصر أو ذو إبصار .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِـــهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٣٤) وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُـــمْ سَـــتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِـــنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُـــغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـــهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٢٣٥)

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾

بين الله تعالى فى هذا الموضوع كل البيان رحمة بالمسلمين بقوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ﴾ أى يموتون، ثم ترك الخبر عنهم لأن الحكم يتعلق بعـــدة

الأيم فترك الخبر عن الذين يتوفون منكم وساق الخبر إلى ما أنزلت هذه الآية لأجله وهو بيان عدة المرأة التى مات عنها زوجها (الأيم) .وترك الإخبار عن المبتـــدآت إذا قصد بها بيان أحكام تتعلق بغيرها مستفيض فى لغة العرب . وقولـــه تعـــالى : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أى يمتنعن عن الزواج مدة مقررة غير مدة المطلقـــة، فإنـــه سبحانه جعل عدة المطلقة ثلاثة قروء لأن المطلقة لايتعرض لها الرجال إلا بعد زمن طويل فلا تحتاج إلى احتياط ولكن التى مات زوجها يكثر التعرض لها . ولما كانت علامات الحمل فقد الحيض وألم الوحم وعلامة عدم الحمل نزول الحيض، وتلـــك العلامات كلها لاتؤكد أن المرأة حامل ولاغير حامل، وكان المقام يقتضى الاحتياط فقد تكون المرأة حاملاً وتحيض وهذا الحيض يكون من الدم الزائد على نمو الجنين وقد لاتكون حاملا ويحتبس الدم لمرض أو لفقردم فيكون الحكم عليها بأنها حامل أو غير حامل مضرة عليها وعلى حملها فى المستقبل فبين الله تلك المـــدة ليكـــون الحكم على المرأة بحمل أو بغير حمل صحيحاً .

فإن الروح تنفخ فى الجنين بعد أربعة أشهر فجعلها الله تعالى مدة العـــدة للمتوفى زوجها، وزاد عليها عشرة أيام لتنكشف الحقيقة وتكون علامـــة الحمـــل الحقيقية حركة الجنين فى البطن . ومن فقه هذا المعنى أمكنه أن يقهر عقله ليسجد لأحكام الله العليم الخبير بما خلق وما أقر فى الأرحام . ولنا أن نحكم علـــى مـــن يستظهر على أحكام الله بحسب هواه المعلل وعقله المستعبد للهوى بأنه مرق مـــن الدين كما يمرق السهم من الرمية، وعلينا أن نتبرأ من كل قول يخالف أحكـــام الله تعالى وأن نعمل بماأمرنا الله تعالى وبما علمناه من أحكامه ليعلمنا سبحانه مالم نكن نعلم

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

معنى هذه الآية أن الله تعالى بين لنا حكم المتوفى عنها زوجها بعد أن تتم أربعة أشهر وعشرة أيام، أن الأولياء لايؤاخذهم الله تعالى بشيء إذا طلبت المرأة أن تتزوج بمن ترضاه لنفسها ويرضاها لنفسه لأن الجاهلية الأولى كانت المرأة إذا مات زوجها تمكث حولاً كاملاً فى حزن وشظف عيش لاتخرج ولاتتزين، وعند المجوس فى الهند والصين وغيرهما إذا مات الرجل أحرقوه بالنار فتدخل المرأة فى النار فتحترق وهى عوائدهم التى كادت تكون دينا لازماً . فبين الله تعالى لنا مايحبه لنا من أحكامه التى محت البدع والضلالة والهوى وأظهرت أن المحبوب المعبود العلى العظيم الذى لايموت ولايغيب هو الله تعالى، وأن الحكم له لاشريك له .

فإذا أتمت المرأة ما وقته الله لها بعد وفاة زوجها فلها الخيار فى أن تتزوج من تشاء، وعلى الولى أو الوالد أن لايعضلها . وقد ورد فى الإنجيل عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال : من تزوج المطلقة فقد زنى . وجائز أن يكون قال : من تزوج بمن مات عنها زوجها فقد زنى . وفى ذلك من التضييق على خلق الله ما فيه . وفى قوله تعالى : ﴿ فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ ﴾ من الصبر على وفاء العدة ومن اختيار زوج و ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بما يتعارفه أهل التقوى والعقل من أن يكون كفؤا صالحاً .

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

أخبرتك فى تفسير الآية السابقةأن المرأةالتى مات عنها زوجها يرحمها الله تعالى فيلقى عليها محبة منه عناية بها، أما المرأة المطلقة فإنها لم تطلق من زوجهـــا إلا بسبب فى الغالب يكون فساد الأخلاق منها، فقد يكـــره الرجـــال أن يخطبوهـــا لأنفسهم مؤاخذة من الله تعالى لها . ولما كان ذلك بين الله تعالى لنا بياناً شافياً فى هذا الموضوع فلم يجعل حرجاً على رجل مالت نفسه إلى زواج المتـــوفى عنـــها زوجها وكان الناس قبل هذه الآية يرون أنفسهم بهذه النية أخطأوا . وكان بعضهم يتكلم مع المرأة بكلام يتجمل فيه ثم يرجع نادماً فرفع الله تعالى الحرج عن المؤمنين فى العزم على زواج من مات زوجها وأمرنا سبحانه أن لا نواعـــدهن ســـرا أى نكاحاً، وأباح لنا ماعدا ذلك من التعريض بقولنا لها إن فيـــك لبقيـــة فـــاحفظى صحتك لمستقبلك، وله أن يقول إنى أحب أن أتزوج ولى غرض فى زوجـــة غـــير مصرح . ومثل هذا قد رفع الله الحرج عنه بدليل قوله تعالى : ﴿ **إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا** ﴾

والقول المعروف هو الذى لايخجل المرأة ولايجعلها تنسى ما أوجبـــه الله عليها من العدة بما يثير عاطفة الأنوثة . والعليم الخبير الذى فطر الخلق أعلم بخيرهم، والواجب علينا رعاية أحكام الله والتأدب بأدابه التى أدبنا بها ولانتعدى حـــدوده سبحانه فنفسد على المرأة عدتها الشرعية، فإن النساء إذا نبهن إلى مافطرن عليه قد يلقين بأنفسهن إلى مالا يرضاه الله، ويكون سبب ذلك كلام من رغب فى نكاحها فصرح بما حظر الله عليه فيه . وخير المجاهدين من جاهد نفسه وقهر حظه وهـــواه فى رعاية أحكام الله تعالى ..

﴿ **وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ** ﴾

وقت للمرأة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام حجة لوفائهـــا حتى تحل للأزواج بعد تحققها من سلامتها من الحمل، وبينت لك حكمة توقيـــت الله العدة بتلك المدة حتى تحصل الحيطة، لأن نزول دم الحيض أو حبس الحيض قد يكونان لمرض أو لزيادة الدم النازل عن نمو الجنين فلا يكونان حجة على وجـــود حمل فى وقت حرج مثل هذا والحجة على وجود الحمل هـــى حركـــة الجـــنين . ولاتكون تلك الحركة إلابعد أربعة أشهر وعشرة أيام لأن الروح إنما تنفخ فى الجنين بعد تلك المدة عادة استقرائية . وقد بين الله للرجل الذى يحب أن ينكح المرأة التى توفى عنها زوجها مايلزمه من الأدب فى معاملة الله تعالى ومعاملة الأيم، وأباح لنـــا التعريض وفيه مندوحة وإباحة شرعية، وذكرت لك مقدار مايباح له من الكلام فى مثل هذه المواضيع .

وحرم الله تعالى التصريح للمرأة بأن يقول لها : أتزوجك أو أنكحـــك، وهى فى العدة .ويكون تحريم العزم على عقدة النكاح أولى بأن يتفق معهـــا علـــى زواجها وتعقد العقد قبل تمام العدة، ومعلوم أن الشريعةجعلت العقد نكاحاًوجعلت الوطء نكاحاً، فلو أن الرجل عقد العقد عليها وامتنع عن الوطء حتى تـــتم المـــرأة العدة فذلك مخالفة الشرع وتعد لحدود الله تعالى، والواجب علينا أن نقـــف عنـــد حدود الله . وأهل الورع لايتجاوزون الوسط ولايقتربون من الحد، فقـــد يتـــرك الرجل أبواباً كثيرة من المباح فصلاً عن ترك المحرم محافظة على الورع .

﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾

من الورع أن لايعقد الرجل عقدة النكاح إلا بعد مضى العدة وزيـــادة، و﴿ حَتَّى ﴾ تفيد دخول الغاية بخلاف (إلى) فقد يقول الإنسان سافرت حـــتى

البيت يعنى دخلته، ويقال سافرت إلى البيت أى قاربته . ومعنى : ﴿ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ أى تنتهى المدة التى يحرم على الرجل أن ينكح المرأة الأيم فيها .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾

يأمرنا الله تعالى أن نعلم علم اليقين الذى يقتضى المراقبة لا علم السماع والفهم أنه سبحانه وتعالى يعلم خفيات أنفسنا وخواطر قلوبنا وأخفى من ذلك . ﴿ فَاحْذَرُوهُ ﴾ أى خافوه أن تخالفوه أن تخالفوا أحكامه فإنه شديد الغيرة لأحكامه . ومن رحمة الله بنا أن يكرر الموعظة لنا بعد كل حكم لنسارع إلى محاربه ومراضيه، وفىذلك دليل على عنايته بنا جماعة المسلمين .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

الآية السابقة حكم الله تعالى فيما يتعلق برغبة الرجل فىزواج الأيم و وفى طىهذا الحكم تهديد عنيف يتذوقه أهل القلوب لأن قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ نهى للتحريم . وقوله تعالى قبلها : ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ ﴾ ليس هذا استدراكاً فى المعنى، ولكنه كناية عن استثناء متصل . فإن قوله تعالى : ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ فى طيها فاذكروهن إلا مواعدتهن سرا فحذف مايعلم . و:أن المستثنى متصل لأنه نهى عن ذكرهن بأن يخاطبهن بخطاب يفيد نكاحها فاستثناه سبحانه من أنواع الذكر وكل ذلك تهديد من الله تعالى، والأولى فى مثل هذا الموضع حفظاً لعفاف المرأة ومحافظة على حدود الله تعالى .

وقد قال رجل من أهل البيت لأيم : أنت تعلمين قرابتى من رســـول الله ومكانتى فى الأمة . فقالت يابن رسول الله أتواعدنى سرا وأنا فى عدتى ؟ فقال : لا إنما أتكلم معك كلاّماً أباحه الله لى . إذا تقرر ذلك فقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُــوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ أى يستر سيئاتكم بستره الجميل حتى تأتوا يوم القيامة وليس عليكم شاهد بذنب . وإنى قدمت لك أن الغفر والكفر والستر والجن ألفاظ مترادفة لمعنى واحد، ولاتتفاوت إلا من حيث ما تدل عليه . فالغفر ستر العيوب، والجن ســتر الحقائق، والكفر ستر الحق، والستر كلمة مطلقة لكل تلك المعانى . فمعنى غفــور أى ستار . " حَلِيمٌ " أى يمهل عباده يعالجهم بالعقوبة وحلمه أمهال للفيئة إلى الله وإلى التوبة النصوح .

وأما صبره على الكفار والمنافقين فاستدراج منه لهم أعاذنا الله من مكره واستدراجه أعداءه . قال سبحانه : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِــي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١) وذكر هذين الاسمين فى ختام تلك الآية دليل على أن الله وسع للمسلمين لعلمه سبحانه وتعالى فطرهم ونزوع أنفسهم إلى ماتقتضيه الشهوة فى حل، و لم يترل الله شريعة إلا لمصالح عباده رحمة بهم وشفقة عليهم كما قال على عليه السلام : " اللهم أنت لى كما أحب فأجعلنى لك كما تحب)

قوله تعالى : ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّــوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَــدَرُهُ مَتَاعًــا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ(٢٣٦) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّــوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّــذِي بِيَــدِهِ

(١) سورة القلم آية ٤٤-٤٥

عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢٣٧)

﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾

رفع الله الحرج عن المؤمنين فى موضوع حيوى اجتماعى، وهو أن المؤمن إذا تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فإما يكون فرض لها فريضة أى قدر صداقتها أولا – وسيأتى بيان ذلك – فإن لم يكن قدر صداقها فعليه أن يمتعها وليس عليه أن يدفع لها نصف صداق المثل إلا إذا كان نصف صداق المثل يساوى المتعة . فإن كان أقل منها دفع لها نصف المثل، وأقل صداق المثل عشرة دراهم فيكون النصف خمسة دراهم . فإن كان النصف أقل من المتعة دفع النصف فقط أى خمسة دراهم . وإن كان أكثر دفع المتعة فقط والمتعة شرعاً جلباب وملحفة وخمار أوبدل ذلك خادم " مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً " أى لم تنكحوهن فإن " تَمَسُّوهُنَّ " كناية عن الوطء لأن الله تعالى متره وكل كلامه فى الأحكام على أسلوبه الحكيم جل جلاله فيكنى عند ذكر الهنات(١) ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أى تقدروا لهن صداقاً كما سيبين فى الآية الآتية .

﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾

جعل الأمر موكلا إلى من يلى تلك الأقضية من إمام أو وكيله أو والد أوولى، والمعنى أنه ينظر فى حال الرجل والمرأة ويكون النظر مراعى فيه حال الرجل

(١) الهنات : مايستقبح ذكره

أكثر لأن الله يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا ﴾ (1) فيفرض على الرجل مالا يرهقه وللمرأة ما يناسبها .

﴿ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾

أى متعوهن متاعاً وهذا المتاع يكون بالمتعارف شرعاً عادة وعرفاً وفى قوله : ﴿مَتَاعًا﴾ دلالة على وجوب المتعة للمطلقة قبل الوطء إذا لم يفرض لها فريضة . وإن قال بعض العلماء إن تلك المتعة مندوبة لأنه قال : ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ فلو قال قائل إنى مسلم ولست بمحسن فليس عليه حق . ولكن هذا ليس هو المراد من كلام الله تعالى، فمراده وهو أعلم به جل جلاله حث أهل الخشية من الله على العمل بما يحبه سبحانه .

وقد دخل رجل من التابعين على آخر فقال : إنى أن أزوجك ابنتى، فقال : قبلتها بكذا وكذا دينار فلما توجه الرجل إلى بيته أرسل له كل الصداق وأرسل معه طلاقها فسئل الرجل عن ذلك فقال : عرض على ابنته فكرهت أن أرده وعينت صداقتها، فقيل له : لم أعطيتها كل الصداق ولها نصفه ؟ فقال : أحب أن أكون متفضلا . والله تعالى يجب أن يكون المؤمن على أحسن الأحوال التى يرضاها . وتقدم لك تعريف المحسن .

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(1) سورة البقرة آية ٢٨٦

معنى هذه الآية أن الله تعالى يبين لنا النوع الثانى من المطلقات من قبـــل المساس أى الوطء بعد أن عين لها الزوج صدقها، فأخبرنا الله تعالى خـــبرا يفيـــد الوجوب أن ندفع لهن نصف ما فرضنا وبذلك تكون المرأة لاعدة لها ولامتعة ﴿ إِلا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أى تعفوالمرأة فتقول إن الرجل لم يمسنى و لم يتمتع بى فلا آخذ منه مالا ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ أى يعفو وليها . والفرق بين قولك النســـوة يعفون والرجال يعفون أن الواوفى الأولى لام الفعل والنون ضمير النسوة فاعـــل، والواو فى الثانية ضمير الرجال فاعل والنون حرف لعلامة الإعراب . ففى قوله : ﴿ إِلا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ أى النسوة .

وهنا رغبنا الله تعالى فى العفو لأنه أقرب للصفاء وأدعى للمحبـــة، وإن كان طلاق الرجل المرآة قبل الدخول بها مما يشينها فى نظر الرجال لأنه وصـــمها بذلك وصمة تعيبها، إلا أنها إذا عفت أقامت الحجة أنها لا تعبأ بالرجـــال وأنهـــا ليست معيبة، وفى ذلك دلالة على الفضيلة . ولذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُـــوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ أى أقرب لتقوى الله تعالى والتماس رحمته .

﴿ وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ينهانا ربنا عن نسيان الفضل وهويتعلـــق بالأخلاق والمعاملات، والفضل فى المعاملات أن تؤثر أخاك علـــى نفســـك، وفى الأخلاق أن تحسن إلى من أساء إليك وأن تصل من قطعك وتعطى من حرمـــك . وفضل الله تعالى يهبه لمن تجمل بالفضل، كما أن رحمة الله يهبها لمن يرحم خلقه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يكرر الله تلك المواعظ التى تجذب قلوب أهل الإيمان إلى الفوز برضوان الله الأكبر سبحانه لتكون له الحجة البالغة، وهو سبحانه يوفق إلى ما يحبه من يحبه، ويقيم فيما يكره من يبغضه . فأهل الإيمان بالله تكون لهـــم تلـــك الآيات كشراب طهور يدار عليهم بفضل الله تعالى، وأهل النفاق والكفـــر بـــالله

تكون تلك الأحكام ظلمة فى قلوبهم وشجى فى حلوقهم ووقرا فى آذاهم، حفظنا الله من قضاء السوء

ومعنى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أتى بحرف التوكيد لتقوية الخبر مع قوته، لأن خبر الصادق جل جلاله تترعج منه العقول فتسلم له سبحانه تسليماً . وقوله : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ بأى بأعمال قلوبكم وجوارحكم مبصرأو ذو بصر . وتلك حكمة الله التى يقيم بها الحجة على أعدائه، ويجعلها جواذب رحمة وحنان لأوليائه .

قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ(٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(٢٣٩) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ(٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢٤٢)

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

بين الله تعالى فى الصلاة بياناً فصل فيه ما يجب على القلب وعلى الجوارح من طهارة وحركات وسكنات وعلى اللسان من تلاوة، وعلى العبد من محافظة عليها، حتى قامت الحجة أن أحب عمل إلى الله تعالى الصلاة، قال سبحانه فى هذه الآية : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ وقال فى آية المؤمنين : ﴿

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [1] وفى آخر هذه الآيات ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [2] وقال : ﴿إِنّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [3] وقال سبحانه : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ (٢) وقال : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ﴾ [4] مما يدل على أن العلامة التىتميز المؤمن من الكافر هى الصلاة . حتى إذا رأينا رجلاً يمشى على الهواء أو يقول ياسماء أمطرى فتمطر، ويأرض ايبسى فتيبس أو يمشى على الماء وهو تارك للصلاة نقول هذا عبد مبعد مستدرج من الله تعالى .

لأن الله جمع الصلاة عبادة كل المخلوقات فجعل قيامنا فى الصلاة صفوفا كقيام الملائكة الحافين بالعرش، وجعل تسبيحنا وتحميدنا فيها تسبيح عمار السموات من الأرواح الطاهرة وجعل ركوعنا فيها ذلا لله تعالى ونزولا إلى درجة الحيوانات وتواضعاً للرب جل جلاله ،وجعل سجودنا فيها نزولاً إلى رتبة النباتات حيث جعلنا نضع جباهنا على التراب كالنباتات، وجعل جلوسنا للتشهد كرتبة الجمادات كالروابى والتلال والجبال، فكأننا نشكر الله تعالى فى الصلاة بقدر كل رتبة تنزلاً وخضوعا لعظمته، وذلاً لعزته، وخشوعاً لكبريائه . وبها ذكرالعبودة الخالصة حتى نتمثل أننا وقفنا بين يدى الله وركعنا وسجدنا بين يديه، فيحصل المثول له فيشهد العبد وجه ربه ويأنس برضاه سبحانه .

وإذا كانت الصلاة جماع شكر كل العوالم وعبادتها كانت الركن الأعظم للدين، وتارك الصلاة مارق من الدين . ومن تأول فى الصلاة تأويلاً بحسب عقله

(١) سورة المؤمنون آية ٢

(٢) سورة المؤمنون آية ٩

(٣) سورة النساء آية ١٠٣

(٤) سورة الأنفال آية ٣

وهواه ضل وهوى . فإن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أثنى الله على أهل معيته أكمل الثناء وأجمله فقال : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾(١) فمن ترك الصلاة قطع عن معية رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بتاتا، وليس بيننا وبين ربنا نسب إلا نسب العبودية لجلاله العلى، ولا يتحقق هذا النسب العلى الذى هو أشرف الأنساب الحقيقية ومعناه إلا فى الصلاة . لأننا فى الصيام نتشبه بالصمدية، وفى الزكاه نتشبه بالمعطى ،وفى الجهاد نتشبه بالقهار، وفى الحج نتشبه بالقوى النافع، ولا نتحقق بمقام العبد الكامل إلا فى الصلاة لأنها تجمله بالذل ظاهراً وباطناً وهو مقامنا بالنسبة لله تعالى، وركعة واحدة من عارف بالله متحقق بهذا النسب خير من عبادة العوالم كلها ألف سنة . قال سبحانه : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (٢) ومعلوم أن السجود وضع أشرف أعضائك على التراب، فإذا تحققت بمعنى الصلاة ظهر لك جلياً، وناداك : أنت نعم العبد لى . وهو جل جلاله نعم الرب لنا جميعا ودعاء العارف الكامل (اللهم أنت لي نعم الرب فاجعلني لك نعم العبد) ولايثبت هذا النسب إلا فى الصلاة .

ومسلم يصلى غافلاً عن هذه المعانى أو يترك الصلاة مرة واحدة نافس الربوبية ومنافسة الربوبية شرك ظاهر، والمسلم يسلك لينال خيرى الدنيا والآخرة فكيف يسلك ليهلك فى الدنيا والآخرة ؟ فقوله سبحانه : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ أى سارعوا إلى القيام بها فى أوقاتها بشروطها وفرائضها وسننها وأدابها من غير تهاون فى تأديتها، فإن لله حقاً فى الليل لايقبله بالنهار، وحقا فى النهار لايقبله باليل، وإن المنعم الذى أنعم عليك فجعلك إنسانا سويا لك السموات السبع

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩

(٢) سورة العلق آية ١٩

والأرضين ومافيهن و من فيهن بفضله، يجب عليك أن تحافظ على تأدية أوامــره بمراقبة يخشع فيها قلبك، وتحضر بها روحك، ويتأدب بها عقلــك، ويخضــع بهــا جسمك، وإلا فالله غنى عنك وعن حركاتك وسكناتك . وأول ما يعذب عليــه العبد يوم القيامة هو الجهل فإن العبد الذى لايحصل العلم النافع لايقبل الله له عملاً.

﴿وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ هى من الصلوات ولكن خصها بعد الصلوات لأنها تأتى فى أوقات الغفلة فقد يتساهل الناس عن تأديتها، فأمرنا الله تعالى بالعناية بهــا وترك الاشتغال بما لاينفع ولا يضر فى الدنيا والآخرة . والذى عليه العلماء بالله أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر لما ورد عن عائشة رضى الله عنها أنها قرأت : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى صلات العصر﴾ ولأن العصر هو الصلاة الوسطى لأن قبله فريضتان وبعده فريضتين، ولأنه يأتى فى وقت يكون الناس فيه قد ملوا العمل وأرادوا أن يستريحوا فتكون شواغلهم كثيرة، والمؤمن الكامل يحقر كل عمل يشغله عن الصلاة . وهى الصلاة التى ذكرها الله فى القرآن عن سليمان بقوله : ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (١)

وقال بعضهم : هى الظهر، وقال آخرون صلاة الصبح لما فيها من الجهاد للنفس . ولكن ورد عن رسول الله صلى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى يوم الخندق أنه قال : ﴿ شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاة الْوُسْطَي صَلاة الْعَصْرِ مَلأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ نَاراً ﴾ .

﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ يأمرنا ربنا جل جلاله بالقيام له سبحانه فى نوايانا وهممنا ولممنا فى حال الصلاة، فإن القيام يراد به القيام الحسى والمعنوى، فيوجــب علينا سبحانه أن نجعل كل ذلك خالصاً لله تعالى بدليل قوله تعالى : ﴿قَانِتِينَ﴾ فإن

---

(١) سورة ص آية ٣٢

لفظة القنوت تدل على معان كثيرة منها طول القيام وطول الركوع والســـجود، ومنها خشوع القلب وخنوع الجوارح والسكوت عن الكـــلام المخـــالف لآداب الصلاة، والدعاء قبل الركوع فى الركعة الثانية من الصبح أو بعد الرفع منه .

وعلى العموم فالقنوت هو القيام بالصلاة على الوجه الأكمل، ولاتكون الصلاة كاملة ويكون المصلى قانتاً لله إلا إذا راعى فى صلاته أنـــه لمـــن يصـــلى فاستحضر أو حضر، وبمن يصلى فالتجأ واعتمد، وبمن يتشبه فى صلاته حتى يكون أشبه الناس برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الخشوع فى الصلاة قلباًوجسماً . وبذلك يكون قام لله فى الصلاة قانتاً .

وفى قوله : ﴿ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ أسرار عالية تجعل العبد فى الصلاة يواجه وجه ربه العلى، ويسمع منه التلبية والإجابة عند القراءة والدعاء والتسبيح وعند قـــراءة القرآن، وهذه هى الصلاة التى إذا صلاها العبد مرة واحدة فى العمر رجحت عبادة العالم أجمع مدة الدهر، لأن العبد المؤمن إذا صلى صلى بكل الحقائق التى جمعها الله فيه وهى ثمانى عشرة حقيقة، ثمان منها ظاهرة وعشر منها باطنة، وإذا صلى العبـــد المسلم بكل حقائقه كانت صلاته فوق صلاة العالم أجمع لأن الله خلق العوالم كلها بيد واحدة وهو خلقه الله باليدين ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١) . ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا**﴾

بعد أن أمرنا بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى بين لنـــا كيـــف نحافظ على الصلوات فى وقت الفزع الأكبر عند التحام الصفين فقال سبحانه : ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ** ﴾ من عدو غاصب أو متغلب وقمتم لدفعه مجاهدين فى ســـبيل الله فى

(١) سورة سبأ آية ١٣

وقت الملحمة حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى رجالاً أو ركبانا، يعـــنى أن الرجل منكم وهو ماش فى الملحمة يصلى الظهروالعصروالعشاء ركعتين بالإيماء إلا أنه يخفض للسجود أكثر من الركوع موليا وجهه حيث كان الشأن الداعى، ففى قوله : ﴿ رِجَالًا ﴾ أى مشاة و ﴿ رُكْبَانًا ﴾ أى على ظهور الخيل، أو وقوفا خلف المدافع وفى أيديكم السيوف أو المسكتات (البنادق) أو الرماح والحراب، فـــإن ذلك العمل فى هذه الحال بينه لنا سبحانه أنه صلاة الخوف فى شدة الفزع، وهـــى صلاة لا ينقصها إلا حضور القلب مع الله بتصريف النية ــ ثم اليقين الأكبر بـــأن الصلاة أكبر من هذه الأهوال الشديدة فلا يسوغ لمسلم تركها بحال من الأحـــوال ولو كان القتل المسلط على الرقاب وذلك لعظم حق الله فى الصلاة .

﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

وفى قوله : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ ﴾ صورتان، الأولى : النصرة على الأعداء ونيل الغنيمة والأسرى، وفى هذا يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل الفزع فنصـــلى كمـــا علمنا الله جل جلاله فى حالة الأمن . والصورة الثانية ولم يـــذكرها المفســـرون : ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ أى رجع العدو عنكم إلى مرابطه . فإن الواجب شرعاً أن يقســـم الإمام الجيش قسمين، قسم يقف على جبهة الجهاد وقسم ينصرف معه فيقيم بهـــم الصلاة، فإن كانت صلاة ثنائية كصلاة السفر صلى بالقوم ركعة وأطال الوقـــوف حتى يتم من خلفه الركعة الثانية ويسلموا وينصرفوا إلى الواقفين على جبهة الجهاد، فيدركون الإمام واقفا فيصلون معه ركعة ويسلم الإمام ثم يقومون فيأتون بالثانيـــة أفذاذا . وإن كانت الصلاة رباعية صلى الإمام بالنصف الأول ركعـــتين ووقـــف مطيلا الوقوف حتى يتموا الركعتين الثانيتين وينصرفوا إلى المرابطين على الصف فى الجبهة،فيسرعون إلى الإمام ويدركون معه الركعتين الثانيتين له الأوليين لهم عمـــلاً

والأخيرتين قولاً فإذا سلم الإمام وقفوا فأتوا بالركعتين الأوليين قولاً والأخيرتين عملاً وسلموا . فإذا كانت الحكمة تقضى اتصالهم بإخوانهم المرابطين أسرعوا لهم وإن لم يكن ثم فزع استراحوا إلى ان تنتهى المدة المعينة لهم عرفاً . وقد بين الله لنا فى هذه الآية صلاة الفزع الأكبر فى الملحمة، وبين تلك الصورة الثانية بآية أخرى بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾(١)

ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أى فأقيموا الصلاة المكتوبة عليكم فى أوقات الأمن مراعين ما علمكموه الله وبينه سبحانه بالقول وبينه رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بالعمل والحال .

وجائز أن يكون : ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أى سبحوه وقدسوه وكبروه ونزهوه واشكروا له ،لأن تلك الأحكام التى بينها لنا مما لابد منه فى حياتنا الاجتماعية والمترلية والقروية والمدنية وفى المجتمع الإسلامى العام مما يتعلق بالعبادة والمعاملة والأخلاق نعم عظمى توجب علينا شكره على نعمه، إلا أننى تأولت لك الآية بما تأولته أولاً للمناسبة . أما قوله : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ فكلمة عامة تصدق على إقامة الصلاة وعلى الذكر وعلى الشكر وعلى الدعاء ،لأن كل هذا ذكر الله تعالى .

﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من أحكامه التى تقتضيها الأحداث الزمنية و ومثل هذه الحادثة التى حدثت فى واقعة الأحزاب حتى أخَّر رسول الله ﴿ ﷺ

(١) سورة النساء آية ١٠٢

وآله﴾ هو وأصحابه صلاة العصر إلى أن غابت الشمس وحصل لعمر وغيره مـــن الحزن ما حصل بسبب شغلهم بالملحمة عن صلاة العصر وفى قراءة السيدة عائشة ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وصَلاةِ الْعَصْــر ﴾ وفى الحـــديث (الصَّلاَةُ الْوُسْطَى هِيَ صَلاةُ الْعصْر)، وعلى هذا تكون الصلاة الوسطى هى الصبح لانها بين الليل والنهار، أو الظهر لأنها فى وقت الهاجرة وهذا الوقت أصـــعب مـــا يكون على المصلى فى وقت الهاجرة فكان المسارع إلى صلاته فى وقتـــه مجاهـــداً . والذى عليه أهل العلم كما بينت لك هو أن الصلاة الوسطى صلاة العصر لأنهـــا وسط بين الصبح والظهر والمغرب والعشاء .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَـــى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾

هذه الآية الشريفة منسوخة بالآية قبلها، ولا يرد علينا أن تكـــون الآيـــة السابقة ناسخة للاحقة لأن هذا التأخير والتقديم ليس بحسب الترول ولكنه ترتيب آخر، فإن الآية السابقة متأخرة فى الترول، وهذه سابقة فى الترول وكـــون الآيـــة السابقة سبقتها لا يمنع تأخيرها فى الحقيقة وكان فى الناس إذا مات الرجل وجـــب على زوجته أن تمكث فى بيته حولاً كاملاً ينفق عليها حتى نزلت آية الميراث فلـــم يبق لها متعة، وأنزل الله تعيين مدة أربعة أشهر وعشرة أيام للأيم ولها بعد ذلـــك أن تتزين للنكاح فتنكح من تشاء . وإن كان بعض العلماء قال : إن هذه الآية ليست منسوخة بالتى قبلها إلا فى المتعة فقط، وللمرأة أن تمكث فى دار زوجهـــا حـــولاً كاملاً فإن التعيين هنا للندب ويكون بوصية الزوج . ولما لم يكن ثم أثارة من علم عن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ولا عن أصحابه وجب علينا أن نقف موقف الأدب.

ورواية نصب ﴿ وَصِيَّةً ﴾ على تقدير فعل محذوف أى يوصى وصـــية، وعلى رواية رفعها أى فحكمها وصية فتكون خبرا لمبتدأ مقدر ملحوظ . ﴿ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ ﴾ أى يتمتعن متاعاً من طعام ولباس وفـــراش ومـــأوى إلى الحـــول . وقدمت لك أن : ﴿ إِلَى ﴾ تدل على قرب الغاية و﴿ حَتَّى ﴾ تفيد الدخول فقوله : " إِلَى الْحَوْلِ " أى إلى نهاية الحول فقط حتى يقرب الحول الثانى، وفى هذا رحمة من الله تعالى بالأيم : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ يعنى أن ولى الميت لا يقهرها على الخروج من بيت زوجها الميت حتى تتم الحول، ولها بعد ذلك ما تشاء من التزين للرجال . وهذه الآية هى التى دعت بعض أهل العلم إلى الحكم بأنها لم تنســـخ فقـــالوا : إن المرأة إذا أقامت فى بيت زوجها المتوفى أربعة أشهر وعشرة أيام و لم تتزين فلا حرج على الولى، وإذا أقامت السنة و لم تخرج فلها الخيار .

وقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وشكت إليه رمداً بعينيها وقالت : إن زوجى توفى وأنا بحاجة إلى أن أضع الكحل فى عـــينى أفأكتحـــل ؟ وكانت لم تمض أربعة أشهر وعشرة أيام فقال : ﴿ إِنَّكُنَّ كُنتُنَّ تَمْكُثْن حَوْلاً كاملاً أَفَلاَ تَمْكُثْنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرَ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ ﴾ فانصرفت المرأة حزينة وذلك لأن الكحـــل من زينة النساء، وفى الماء والملح شفاء للعين من الرمد .

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾

كان المشدد عليه فى الإقامة سبعةأشهر وعشرون يوما فإذاخرجت المـــرأة بعدها فلا جناح على الولى ولاعلى غيره إذا تركها وشأنها، ولها أن تتزين لتنكح . وقد بينت لك أن هذه الآية نسختها التى قبلها .

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

أى شديد الانتقام فى جزاء من خالف أحكامه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى لايتعدى فى أحكامه العدالة والحكمة .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾

يعنى أن الله سبحانه أوجب المتاع مدة الثلاثة القروء من أكل وشـــرب ومسكن ولباس وخادم بحسب ما يناسب المرأة والرجل ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ أى واجباً أوجبه الله على المتقين . ولذلك فإن بعض العلماء لايرى النفقة على المـــرأة واجبة وإنما يراها مندوبة، والذى عليه العلماء أن قوله تعالى : ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ حث منه سبحانه على القيام بالنفقة ووصف من يقوم بها بالتقوى، ليسارع أهل الإسلام إلى الفوز بنيل ذلك المقام عند الله تعالى .

وقد أتت امرأة إلى قاض من قضاه السلف فطلبت أن يقضى لها بنفقتها، فحضر زوجها فقال له : إن كنت تقياً فمتعها كما أمر الله المتقين فألزمه القاضـــى .والإجماع أن متعة الأيم واجبة شرعاً ومتعة المطلقة فيها الخلاف لأن الله تعالى قال فى الأيم :﴿عَلَى الْمحْسِنِينَ﴾ وهنا قال : ﴿ عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ..

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

أى كما بين الله لكم أحكامه فى الآيات السابقة بين لكم أحكامــه فى هذه الآيات (لعلكم تعقلون) أى لتعقلوا لأن لعل وعسى فى القرآن بمعنى الــلاّم وليست بمعنى الترجى ولا التوقع، لأن الذى يترجى ويتوقع لايعلم الغيب .

و﴿تَعْقِلُونَ﴾ أى أحكام الله عند سبحانه، وليس العاقل من يعقل شئون الكون ولكنه من يعقل عن الله تعالى، لأن العقل الذى يعقل شئون الكون عقــل مكتسب يزيد بالتجارب والدربة والهم والفرح، فإن الذى اكتسب عقلاً كونياً إذا أصابه الغم أو أصابة الفرح أضاع تلك القوة، أما العقل الذى يعقل عنه ســبحانه فهو من الله تعالى لايتأثر بالأحداث الزمنية لاستغراقه فى تعقل آيــات الله وبيناتــه واحتقار الكون وشئونه .

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَــذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّــاسِ وَلَكِــنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ(٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَــمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَــثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢٤٥)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾

استفهام لتقرير الحقيقة سواء رآها بعينه أو رآها باليقين عن خبر الصادق جل جلاله ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ أى انتقلوا منها خوفاً من الموت الذى كــانوا يتوقعونه بسبب ماحل بالبلد من الطاعون عن ابن جرير بسنده عن السدى قــال تأويل هذه الآية كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط وقع بها الطاعون فهــرب

عامة أهلها فترلواناحية بعيدة منها فهلك من بقى فى القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم عدد كبير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا : أصـــحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لوصنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون مـــرة ثانيـــة لنخرجن معهم، فوقع فى قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفا حتىترلوا فى ذلـــك المكان وهو واد فسيح، فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتـــوا فماتوا حتى إذا هلكوا بقيت أجسادهم فمر هم نبى يقال له حزقيل فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه، فأوحى الله إليه ياحزقيل أتريد أن أريك فيهم كيف أحييهم ؟ قال : نعم، وإنما كان تفكره أنه تعجب من قـــدرة الله عليهم فقال :

نعم .

فقيل له ناد فنادى : يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعى . فجعلـــت تطير العظام بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام، ثم أوحى الله إليـــه أن ناد : يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحماً فاكتست لحما ودماً وثيابها التى ماتت فيها وهى عليها، ثم قيل له : ناد، فنادى : يا أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى، فقاموا يقولون سبحانك ربنا وبحمدك لاإله إلا أنت فرجعوا إلىقـــومهم أحياء يعرفون أهم كانوا موتى، فسحنة الموتى على وجوههم لايلبسون ثوباً إلا عاد كفنا رثاً مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم .

وبسنده أيضاً قال: قال عطاء الخراسانى فى معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَـــرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ كـــانوا ثلاثـــة آلاف . وبسنده عن ابن عباس قال : كانوا أربعين ألفاً أو ثمانية آلاف قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ

أُلُوفٌ ﴾ أى جمع ألف أو وهم مؤتلفون ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ أى خـــوف المـــوت الذى كانوا يتوقعونه مما حل ببلدهم من الطاعون .

﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾

أى قدر موتهم فى وقت واحد قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (1) . قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَحْيَاهُمْ** ﴾ أى وبعد أن بنوا عليهم حائطاً ونخرت عظامهم وتمزقت جلودهم أحياهم الله كما بينت لك فيما سبق من الرواية عن نبى الله حزقيل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾

لايحصيه العادون ومن ذلك يقدر الله تلك الأحداث المعجزة للبشر مـــن الإماتة والإحياء فى نفس الوقت عبرة لمن شهد تلك الأحداث، ولمن علمها بخـــبر الصادق سبحانه وتعالى، ليقوى الإيمان فى قلوب المؤمنين فيسارعون إلى الجهاد فى سبيل الله إعلاء لكلمته وتجديدا لسنةنبيه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وقولـــه تعـــالى : ﴿**عَلَـــى النَّاسِ**﴾ أى الذين سبقت لهم منه الحسنى ممن قبلوا ما أنزله الله على رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾

وهم الذين لم تسبق لهم الحسنى من الله تعالى ممن فطروا علـــى كفـــران النعمة .

---

(1) سورة يس آية 83

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يأمر الله المؤمنين من لدن محمد رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى يوم القيامة بأن يقاتلوا من أوجب الله علينا قتالهم، بعد أن بين الله لنا ما بين من أنه سبحانه بيده ملكوت السموات والأرض يحيى من يشاء ويميت من يشاء، بقتال وبغير قتال، وأنه يحيى من أماته بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١)

فمن قدر له النسيئة فى عمره وخاض ميدان القتال خرج سالما ظافراً، ومن قدر عليه الموت وحصن نفسه بكل الحصون مات رغم أنفه، وأمر الله لنا بالقتال لحكم علمها من علمها وجهلها من جهلها، منها أن يكون قتلنا فى سبيل الله حياة باقية عند ربنا يرزقنا الله بها فى كل نفس رزقاً جديدا وذلك الرزق هو مايتفضل به الله علينا من جزاء أعمال من جاهدناهم فأسلموا وعملوا بالكتاب والسنة، أو من جاهدناهم فسلم الناس من ظلمهم ومن التظالم لهم، ويرزقنا الله تعالى عوضاً عمابذلنا فى سبيله خيراً مما كان لنا فيمنحنا نفخة القدس التى نشهد بها على جماله فى الأفق الأعلى، وروحاً عالية ملكوتية نشهد بها جلى آياته فى الأفق المبين بل وتكون أرواحنا فى عليين .

فإذا كان يوم البعث جعل الله لنا أجنحة نطير بهاإلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهذه العطايا بعض مايتفضل الله به على من استشهد بين الصفين حاضر القلب مسارعاً إلى لقاء ربه فرحاً بمفارقة كون الفساد .

---

(١) سورة يس آية ٨٢

﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى فى دين الله ليكون الدين كله لله، فيتحقق المجاهد بنيل تلك المترلة العالية بأن يكون مجاهداً بقلبه وجسمه وماله وأهله، لايخطر على قلبه رغبة فى غنيمة أو سيادة أو فخر ورياء أو لعزة حزبية بل تكون كل قواه التى كون منها مستغرقة فيما وجه وجهه إليه من نيل رضوان الله الأكبر، وإعلاء كلمته، وتجديد سنة نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى تيقنوا أن الله يسمع كلام أنفسكم من خواطرها وواردالها ونواياها فلا يخفى عليه شيء ، عليم سبحانه وتعالى بما تكنه قلوبكم وما تجترحه جوارحكم، وعليم سبحانه بهممكم وعزائمكم، فيتفضل على من سمع وأطاع بإحسانه فى الدنيا بالنصرة والغنيمة، وفىالآخرة بالفوز بالنعيم المقيم فى جوار الأخيار، أو يجازى من خالف أوامر الله تعالى ووقع فى نواهيه بالخذلان والخيبة فى الدنيا، وبالعذاب الأليم يوم القيامة .

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾

القرض أن يعطى الرجل لغيره مالاً يملكه ليرده إليه إذا طلبه منه، والقرض أيضاً ما يقدمه الإنسان من حسن وسيىء، ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يتفضل ببيان ماننال به الفوز العظيم فى الدنيا والآخرة . فيقول سبحانه : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ ﴾ أى يعين المجاهدين فيقوى الضعيف ويعين الفقير ويجاهد بنفسه فيكون أقرض الله تعالى ماله ونفسه كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [1] وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿مَثَلُ الَّـــذِينَ يُنْفِقُـــونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّـــهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [2] وهذه الآية بشرى من الله تعالى لنا لأنه سبحانه جعـــل مانقدمه فى سبيل الله قرضاً افترضه منا، ليكشف عنا به الحجاب ويشهدنا مايجعلنا به عنده سبحانه وتعالى عندية ننال بها ما نشاء كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [3]

﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾

وهذه الآيات بشرى تطمئن بها قلوب المؤمنين، فإن وعد الله حق وقـــد وعد الله تعالى أن يضاعف لنا نفقاتنا على الجهاد أضعافاً كثيرة، فنحرص علـــى أن نبذل أنفسنا وكل مالنا . والضعف أن ينال الإنسان ضعف ماأنفق فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف أو أكثر لقوله ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ والقرض الحســـن أن يقدم ماله ونفسه لربه ليفوز من الله بخير لا يعلمه إلا هو سبحانه كماورد : (مـــالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وقد ورد عن أبى الدحـــداح رضي الله عنه أنه أتى إلى رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ فقال (يارسول الله إن الله يستقرضنا فقال : نعم ياأبا الدحداح، فقال : أقرضت ربى حائطاً لى فيها ستمائة نخلة " وقال بعض العلماء : إن الله أعطاكم الدنيا قرضاً وسألكموها قرضاً، فإن أعطيتموها طيبة بهـــا أنفسكم ضاعف لكم مابين الحسنة إلى عشرة إلى سبعمائة إلى أكثر من ذلك .

(١) سورة التوبة آية ١١١

(٢) سورة البقرة آية ٢٦١

(٣) سورة الشورى آية ٢٢

﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

أنزل الله هذه الآية الشريفة حثاً لعباده المؤمنين الذين بسط لهم الرزق أن يبسطوا أيديهم لتقوية الضعفاء وإغاثة الفقراء ليجاهدوا فى سبيل الله، ووعدهم الله تعالى على ذلك أن يمنحهم أضعاف أضعاف ما أنفقوه مما يعجز العقل عن حصره . والقبض هو تضيق الرزق، والبسط هو توسيعه، والله سبحانه وتعالى يضيق الرزق على من ابتلاه بتكليفه بالجهاد ندبا مع فقره ليعلم مقدار صبره وابتلى أهل اليسار بما ابتلاهم من بسط الرزق ليعلم مقدار ثقتهم بالله، ومسارعتهم إلى النفقة فى سبيله . وفى تلك الآية برهان على وحدة الأفعال وهى من مشاهد التوحيد العلية التى لا يتذوقها إلا أهل العلم بالله سبحانه وتعالى . وهذه الآية مايدل على أن المسلمين منهم الفقير والغنى والضعيف، فطلب الله تعالى من الغنى أن يعين الفقير بماله، وأن يقوى الضعيف بما يلزمه بظهر يحمله أو آلة حرب يدافع بها، ليكون كل مسلم مجاهداً فى سبيل الله بما آتاه الله ويكون المسلم القوى الغنى مجاهداً بماله ونفسه .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى وإلى الله الذى أمركم ونهاكم ووعدكم وبسط الرزق وقبضه ترجعون يوم القيامة، فيحسن إلى المحسن ويعذب المسىء، وجائز أن تكون الهاء فى ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ عائدة إلى التراب أى ترجعون إليه كما بدأكم منه .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى

يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٤٧)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

معنى ذلك أن الله تعالى يقول لرسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾: ألم تر بما علمناك إلى الملأ أى إلى الأشراف من بنى إسرائيل فى زمان شمويل أو صموئيل الذى أقامه الله نبياً بينهم بعد أن قام أنبياء من بعد موسى، فاتبعوا الأول منهم وهو يوشع فى زمن موسى وبعده ثم اتبعواالثانى وخالفوا مع الثالث، ثم اتبعوا وأنكروا مع الرابع وغيروا وبدلوا، إلى أن كان النبى الذى يخبرنا الله عنه حيث كان العمالقة قهروا بنى إسرائيل واستعبدوهم لمخالفتهم سنة موسى وأحكام التوراة .

وهذه سنة الله فى خلقه أن من خالف سنة أنبيائه وعصى أوامره يسلط عليهم أعداءه وأعداءهم حتى يستعبدوهم، كما فعل المسلمون فى هذا العصر من مخالفة سنة رسول الله وترك العمل بكتاب الله فسلط عليهم فى كل بقاع الأرض أعداءه الإ فرنج وأعداءه المجوس وغيرهم، وصار المسلمون لخروجهم عن الكتاب والسنة شيعاً كما حصل لبنى إسرائيل . فلما ظلم العمالقة بنى إسرائيل و لم يكن لهم ملك يجمع كلمتهم قالوا لنبيهم ماأخبرنا الله به، اجعل لنا ملكا يجمع الله به كلمتنا ونطيعه فى جهاد عدونا – وكأنه سألهم : لم تريدون ذلك ؟ فقالوا :

﴿ نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وعلى هذه الرواية يكون الفعـــل مجزومـــاً فى جواب الأمر المتقدم، وعلى رواية نقاتل يكون مرفوعاً صفة لـــ﴿ مَلِكًا ﴾ .

﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا ﴾

يعنى أن شمويل قال لهم إنكم قوما لا توفون بالعهد ولاتقومون بما أوجبه الله عليكم، ولاأراكم أهلا لأن يكون لكم ملك تقاتلون معه، وهذا معنى قوله (هَلْ عَسَيْتُمْ) أى هل قاربتم ﴿ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ والشرط هنا فاصل بين عسى وخبرها – ﴿ أَلا تُقَاتِلُوا ﴾ أى أنكم لاتقاتلون، و﴿ إِنْ ﴾ هنـــا جـــائز ذكرهـــا وحذفها وهى من اللغة الفصحى . وقد ورد إظهارها وحذفها كثيراً فى القرآن .

﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾

أى ومن يمنعنا أن نقاتل أعداءنا الذين أخرجونا من ديارنا وأبنائنا وأموالنا وسفكوا دماءنا ؟ والواو فى قوله : ﴿ وَقَدْ ﴾ للحال ليقيموا الحجة للنبى عليه السلام على شديد رغبتهم فى قتال الأعداء .

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

جواب لسؤال مقدر كأن سائلا سأل، فماذا كان حالهم بعد أن كتـــب عليهم القتال ؟ فأجاب بهذه الآية وتقدمت عن تأخير فإنهم إنما تأخروا عن القتـــال بعد أن رأوا الأعداء وكثرهم وامتحنهم الله بالنهر كما سيأتى .

﴿تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾

بعد أن رأوا أعداهم وابتلاهم الله بالنهر كما سيأتى رجعوا على أعقابهم ، وفى بعهدهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً بعدد أهل بدر الذين كانوا مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

يعنى أن الله تعالى سبق فى علمه القديم أن هؤلاء القوم يظلمون أنفسهم بمخالفة أوامر الله، وإنما مايبتليهم به من تسليط العدو والنقص من الثمرات والأموال الباعث على الرجوع إلى الله والعكوف على عبادته لم ينالوا منه خيرا، وهو الجاذب القوى للإقبال على الله لأن المصائب تذكر القلوب وتجعل الإنسان يسارع إلى تحمل مشاق العبادة والعمل بالكتاب والسنة رغبة خيرى الدنيا والآخرة .

ولو فكر العاقل قليلا لعلم أن الله جعل جنة فى الدنيا، فإذا دخل العبد نار الدنيا فصبر وحفظ حدود الله تعالى جعله من أهل الجنة فى الدنيا والآخرة، وإذا دخل العبد الجنة فى الدنيا فطغى وفجر ونسى الآخرة فهذا قدر له السوء فى العاقبة واستدرج بماله وولده، حتى إذا أخذه لم يفلته . وإن كتب الله له فى الأزل سعادة فقبض الرزق عنه وامتحنه بما يحيى قلبه لمشاهدة حكمة الله والعمل بأحكامه فتكون المصائب معارج إلى الله . ومنهم من يدخله الله الجنة فى الدنيا ليدخله النار يوم القيامة . ومنهم من يدخله النار فى الدنيا ويحجب عنه آياته، ويبغضه فى أهل العلم بالله الذين يحيون قلوب العباد بأحوالهم وأقوالهم فيعيش فى النار فى الدنيا، فإذامات خلد فى النار يوم القيامة، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: (إن لله جنة عاجلة من دخلها لا يحتاج إلى جنة آجلة) وهى جنة الرضا عن الله، فإن الراضين عن الله فى

الجنة ولو أصابهم ماأصاب أيوب، فإن الرضا عنه سبحانه أنــس القلــب بمواقــع المصائب، وسكون النفس إلى منفسها عند الشدائد .

وهذه الآية أنزلها الله تعالى تهديدا لمعاصرى رسول **الله** ﴿ﷺ **وآله**﴾ من يهود بنى إسرائيل من أهل خيبر والنضير وقينقاع، وبشرى لأهل الإيمان ليحثهم الله بها على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من بيع النفس والمال له سبحانه كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (١) ومــن بــاع السلعة كيف يرجع فيها؟ وما من آية نزلت فى بنى إسرائيل تدل على أن الله غضب على أمة من الأمم بسبب عمل من الأعمال، أو رضى عنها بسبب ماقاموا به مــن السمع والطاعة لله ولرسوله إلا وجرت بذيلها الأمة الإسلامية . فقد كنا فى زمــن سلفنا الصالح نملك من غلمان أوروبا وفتياها كثيراً نشتريهم من أسواقنا، وكان لنا الحول والطول أيام كنا نعمل بأحكام ديننا، فلما أن خالفنا سنة نبينا ونسينا أوامر ربنا وأخذنا بالحظ والهوى والرأى، سلط الله علينا من كانوا لنا عبيداً يبــايعون فى أسواقنا، فأصبحنا أذل من العبيد . ولأننا بمخالفة الله ورسوله أصبحنا أعوانا لهــم على أنفسنا فلا ترى مسلماً يتذوق طعم الرحمة لأبيه أو لأخيه أو لأمه، حتى أصبح أعداؤنا يسلبون مرافق حياتنا ويضربوننا ببعضنا .

وكلما أردنا أن نتحد على العمل بكتاب الله وسنة رسوله قام العدو بخيله ورجله فمنى منا قوماً ووعدهم المساعدة والنصرة والتأييد، فقاموا يضربون وجــوه بعضهم بعضا حتى إذا أضعفوا أنفسهم وضــع نعالــه فــوق رؤوس عظمــائهم وكبرائهم، فأصبحوا حثالة لايستجيب الله دعاءهم إذا دعوا، ولا ينظر إلــيهم إذا

(١) سورة التوبة آية ١١١

جاءوا، ولايرحمهم إذا ذلوا . قال أبو هريرة ﷺ : " إنما يسعد آخر هذه الأمة بما سعد به أولها "

وقد أصبح الدعاة إلى الله بالحق للحق قليلين جداً، وأصبح المنتحلون الدعوة إلى الله أضر على المسلمين من الشيطان الرجيم، لايخافون الله ولايرجون اليوم الآخر، ملأ الحسد قلوب العلماء، وأفسد الظلم قلوب الولاة والأمراء أذلت الخيانة أنفس التجار، وأفسدد الكيد النساء، حتى أصبح العلماء فى مصائد إبليس بالحسد، والحكام فى مصائده بالظلم، والتجار فى مصائده بالخيانة، والنساء فى مصائده بالكيد . قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [1] وتلك سنة الله فى خلقه من لدن آدم، فإن الذى أفسد وهو فى الجنة كيف يعجز عن أن يفسد من أحاطت به الفتن والمصائب ؟

وفى هذه الآية تهديد من الله تعالى لجميع خلقه الذين يظنون أنهم فى ستر لايراهم أحد ويقعون فيما يغضب الله ويجهلون أن الله عليم بهم أو ينسون ذلك، ومتى راقب العبد العليم الخبير القريب الذى هو أقرب للعبد من حبل وريده، دلت تلك المراقبة على خوفه من الله وعظيم قربه منه، ولو ربط الحجر على بطنه جوعاً، ولو فقد تلك المراقبة وسيقت إليه الدنيا بحذافيرها كان أشقى مخلوق . لأن فاقد المراقبة مع مافيه من القوى المتضادة الدافعة إلى العلو والكبرياء فى الأرض وطلب الغنى والمافسة، لايجد حصناً حصيناً يدفع عن نفسه شرورها إلابما يمن الله به على العبد من تلك المراقبة . من الله علينا بحسن مراقبته فى أحكامه، وبكمال مراقبته فى جلاله حتى نكون له كما يحب كما أنه سبحانه يكون لنا كما نحب .

(١) سورة سبأ آية ١٣

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٤٧)

بعد أ ن بين لهم شمويل عليه السلام أنهم قوم لاوفاء لهم، وأنهم بقية الحيف لابقية السيف، وقد مضى عليهم زمن وهم تحت ظلم العمالقة ولاملك يجمعهم، ولا شجاعة تجعلهم يقومون على دفاع العدو، وبسبب ذلك أذلهم الله للعمالقة وفرق كلمتهم . فبينوا الباعث على طلبهم مابينه الله بقوله : ﴿ وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ فأقاموا الحجة على صدقهم فى عزمهم، وحرصهم على دفع الضيم عنهم بقتال أعدائهم، وبمسارعتهم إلى العمل بالتوراة وبسنن موسى عليه الصلاة والسلام . فأوحى الله إلى شمويل بأنه سبحانه أقام طالوت ملكا على بنى إسرائيل، فطلب من الله آياته فأخبره سبحانه أن أول رجل يدخل عليه فينش الشحم المقدس يكون هو الملك .

وكان طالوت قد ضاع منه ومن أبيه حمر خرج هو وغلامه يبحثان عنها، فقال الغلام لطالوت : ادخل بنا على هذا النبى نسأله عن حمرنا ليدعو لنا، فأجاب طالوت الغلام ودخلا، وكان الشحم المقدس فى فرن أمام شمويل وعليه الذباب فنشه طالوت، فقال له : أنت ملك بنى إسرائيل، فقال له : ألم تعلم أنى من أحقر سبط من بنى إسرئيل ؟ قال : بلى، طالوت : ألم تعلم أنى من أدنى قبيلة فى هذا السبط ؟ قال: بلى قال: ألم تعلم أنى أفقر بيت فى هذا السبط ؟ قال : بلى ولكن الله يؤتى ملكه من يشاء، قال : ما دليل ذلك ؟ قال : إنك ترى الحمر التى ضاعت

من أبيك قد ردت إليه . ونادى فى بنى إسرائيل فأسرع إليه أشرافهم فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ فوقعوا فيما اعتادوه مع الأنبياء بعد أمـره لهـم فقالوا ماأخبرنا الله عنه : ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ تفصيل ذلك أنه ليس من سبط الملـوك ولا مـن سـبط الأنبياء، لأنه كان سقاء وقيل كان دباغاً، وكان الأنبياء والملـوك محصـورين فى أسباط مخصوصة، وكان هذا الجواب منهم دليلاً على ضعف إيمـانهم وغـرورهم بأنسابهم .

وهنا أبين لك سر السلوك إلى الله تعالى، لأن بداية معرفة السالك نفسـه معرفة تجعله يتجمل بالسمع والطاعة لله غير منازع فيما يكون من الله سـبحانه، ومن آداب السلوك إلى الله تعالى المسارعة فى تنفيذ أوامره بقدر الاستطاعة، وترك نواهيه سبحانه مرة واحدة . ومن آداب السلوك التخلق بأخلاق الله تعالى . فبنـو إسرائيل خالفوا كل تلك الأحكام والآداب بردهم هذا على نبيهم، ولذلك عاقبهم الله على هذا فحرم أكثرهم من الجهاد فى سبيله كما سيأتى . نسأل الله سبحانه أن يرزقنا الأدب فى سلوكنا والإخلاص فى أعمالنا .

فلما أن أنكروا على طالوت استحقاقه للملك رد علـيهم نبـيهم عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بين الله بتلك الآية الشريفة أن الجاهل بالتوحيد المغرور بنسبه بعيد عن الله تعالى، لايقبل آياته ولا يعقلها، فإن قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَـيْكُمْ ﴾ يعنـى أن الله هو الـملك المطـلق الذى لايـهب خيره وبـره لعلـــة أو نسـب طيـــنى ولـكـن يمـنح قـبل كـل شـىء نسبه العلـى وهـو العبودية لذاته سبحانه، فإذا منح العبد اليقين فى مقام العبودية منحه العلـم الـذى

يهديه به إلى الوصول إلى حضرته اصطفاء منه له . أما الغرور بالنسب الطينى وبكثرة المال والولد والحشم والخول فإنما يكون من أهل الجهالة بأنفسهم وبالله تعالى، وتتره ربنا جل جلاله عن أن يعطى فضله لعلة أو عرض أو سبب . قال سبحانه : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (١) إذن فما هى العلة التى جعلت ربنا جل جلاله يخلقنا ويخلق لنا كل شىء فى محيط العرش ؟ اللهم ارزقنا العلم والأدب .

وفى هذه الآية إشارة إلةى أن الله سبحانه إذا وهب للعبد صحة وعلماً يجب أن يدعو إلى الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويوقن بتأييد الله له ولا يتأثر بغرور أهل المال والسلطة، فإن الله يؤتى ملكه من يشاء كما أنه يسلبه ممن يشاء ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (٢)

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

الوسعة الإلهية صفة من صفاته وليس كمثله شىء فى كل شىء فإن العقول تعجز عن أن تعلم وسعته سبحانه فضلاً عن إدراكها، ولكنا نؤمن ونصدق أنه سبحانه واسع وسعة لايدرك حقيقتها إلا هو من كل معانى الأسماء، فهو واسع فى فضله ورزقه وإحسانه بالعلم والملك والولاية وغيرها مما يتعلق بالشئون الكونية فى الدنيا والآخرة وما يتعلق بالحقائق كلها، فيهب الملك للسقاء والدباغ وللعبد الحبشى، وكذلك يهب الولاية والعلم لمن يشاء فلا تقيده الأنساب والأموال ولاكثرة الجيوش والأحزاب، وهو العليم سبحانه علما أحاط بكل شىء من ذاته

---

(١) سورة مريم آية ٩

(٢) سورة الأنعام آية ١٨

سبحانه وأسمائه وصفاته تقدست، وبما قدره مما كان وما يكون إلى مالانهايـــة، وفى هذه الآية إشارة إلى تفريده بإيجاد كل شيء .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّـــابُوتُ فِيـــهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَـــةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢٤٩)

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَـــكِينَةٌ مِـــنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾

تأويل هذه الآية أن بنى إسرائيل لما أنكروا أن يكون طالوت ملكا عليهم لضعفه فى قومه وفقره، بين الله لهم أن الملك لله ليس لأحد شركة فى الملك مع الله تعالى، وأنه سبحانه يهبه لمن يشاء من عباده لا لأنه قوى أو غنى أوعظيم قومـــه . أراد بنو إسرائيل أن تظهر لهم آية محسوسة تطمئن بها قلوبهم كعادتهم فى الإنكـــار على أنبيائهم، فأمر الله شمويل عليه السلام أن يخبرهم بأن تلك الآية هى مجيء التـــابوت إليهم تحمله الملائكة، وهذا التابوت صندوق مصفح بالذهب طوله ثلاثـــة أذرع فى ذراعين عرض، فيه أوراق من التوراة وعصا موسى وثيابه وعمامة هرون وآثار من بقايا الأنبياء السالفين عليهم السلام، وفيه السكينة، وهى جسم على صورة طـــائر لها وجه كوجه الإنسان .

كانوا إذا خرجوا لقتال أعدائهم قجدموا هذا الصندوق أمامهم فينصرهم الله ويهزم أعداءهم . فلما خالفوا التوراة وأنكروا على أنبياء عصورهم سلب الله منهم الملك وضربهم بعصا الإنتقام فأذلهم وأضعفهم، وسلط عليهم العمالقة فاستعبدوهم وسلبوا منهم التابوت وهم فى قتالهم . فلما أخبروا ملكهم بفقد التابوت التوت عنقه فمات من الغم عليه ومكثوا من غير ملك فلما سامهم العمالقة الذل سألوا شمويل ﷺ أن يجعل لهم ملكا . وقد بينت لك حيرتهم.

وقد ورد أن العمالقة لماأخذوا التابوت عندهم أصابهم المرض فأهلك خمس مدن، فتشاءموا من التابوت وقالوا هذا بسببه . فرفعوه على ثورين وأطلقوه فى الأرض فساقت الملائكة الفحلين حتى أدخلوهما بما عليهما على طالوت فكانت آية تمليك طالوت . وفى خبر آخر أن التابوت رفع إلى السماء ثم أنزله الله إلى بنى إسرائيل آية لصدق شمويل ﷺ فى خبره بأن طالوت ملك عليهم .

وفى هذه الآية برهان على أن بنى إسرائيل نفوسهم عنادية ليست لهم عقول تعقل عن الله خبره، فإن احتياجهم إلى آية على صدق خبر شمويل ﷺ دليل على ضعف إيمانهم . وهذه سيرتهم من لدن موسى عليه الصلاة والسلام إلى زماننا هذا، ومن قرأ أخبارهم الآن فى فلسطين يسأل الله أن يذلهم على أيدى المسلمين هناك وأن يذل سبحانه أمة الإنجليز الذين يمدونهم ليضعفوا المسلمين هناك، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

يعنى تنزهت ذاته أن إتبات التابوت أى الصندوق الذى فيه السكينة وفيه عصا موسى وبعض ثيابه وآثار من هارون ومن الأنبياء السابقين عليهم السلام آية دالة على أن الله تعالى جعل طالوت ملكاً عليهم . وتلك الآية مضـــافة إلى خـــبر شمويل عليه السلام عن الله تعالى، والمؤمنون بالله يصدقون ويسلمون تســـليما ويقبلـــون طالوت ملكاً عليهم، أما غير المؤمنين فإن نفوسهم العنادية تأبى أن تقبل عـــن الله تعالى أخباره أو تصدق بحججه العقلية والحسية .

وفى طى تلك الآية بيان أنه لايسلم بآيات الله ولا يصدق أخبار رسل الله أو القائمين مقامهم إلا أهل الإيمان بالله الذين صاغ الله نفوسهم من نوره، ومن لم يتفضل الله عليه بروح ملكوتية هى بمثابة النور الذى يجعله الله للعبد فإنه لايقبـــل الإيمان ولايتذوق له طعما، ولو أن الإنس والجن والملائكة اجتمعوا لهداية إنسان لم يجعل الله له هذا النور مازداد إلا ضلالاً وبعدا.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَـــرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَـــوْمَ بِجَـــالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾

معنى ذلك والله أعلم أن الحجة لما قامت بإتيان التابوت على بنى إسرائيل بأن الله جعل طالوت ملكاً أجمعوا على أن يخرجوا معه لقتال العمالقة . ﴿ فَلَمَّـــا فَصَلَ طَالُوتُ ﴾ أى بعد عن بلده وفارقها ﴿ بِالْجُنُودِ ﴾ وكان خروجهم لقتـــال العمالقة، أراد الله أن يكشف له خبايا القوم ليعلم من يصدق معه فى القتال ممـــن ينقلب عل عقبيه ليخرج معهم مطمئن القلب، وكان قبل خروجه احتاط لنفســـه

فقال لايخرج معى من يبنى بيته ولم يتمه حتى يتمه، ولا من تزوج ولم يدخل بزوجته، ولامشتغل بتجارة، ولكن يخرج معى الشباب الناهض فخرج معه ممن اختارهم ثمانون ألفاً أو أقل كما ورد، وأراد الله تعالى أن يمحص القوم حتى لايكون مع طالوت إلا من يثق بهممهم وعزائمهم فى نيل ثواب الله تعالى وعلمهم بفناء الدنيا، فقال له شمويل قل لقومك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ خبراً عن الله تعالى بالوحى، وجائز أن يكون أوحاه الله تعالى إلى طالوت على القول بأنه نبى إن كان القائل طالوت .

والابتلاء من الله تعالى ليقيم الحجة للصادقين بصدقهم وعلى الكاذبين بكذبهم وهو كالامتحان والتجارب نسأل الله أن لايدخلنا فى التجارب . وأن يحفظنا من الابتلاء والفتن وأن يعيذنا بجماله من جلاله . وقد ورد أن هذا النهر من الأردن إلى فلسطين، وقال بعضهم : إنه نهر فلسطين . وقال بعضهم : إنهم كانوا فى الصحراء فى شدة الصيف وظمئوا فسألوا طالوت أن يغيثهم الله، فسأل طالوت شمويل عليه السلام فأوحى الله إليه بهذه الآية .

﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ﴾ أى فمن كرع منه ﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أى فليس من دينى ولا ممن ينبغى أن يكون معى فى قتال الأعداء ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من لم يذقه فإنه منى أى من أهل دينى وعقيدتى وممن أطاع الله ﴿ إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ الغرفة بالضم ملء الكف وبالفتح واحدة الغرف، والاستثناء متصل من قوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ﴾ فاستثنى الله منهم الذين امتنعوا عن الشرب حتى أباح الله لكل واحد منهم غرفة يشربها وكانت الغرفة الواحدة تكفى الرجل وتكفى دوابه، لأن الله بارك فى تلك الغرفة عناية منه ورحمة ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ

إِلا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ أى فرجع اليهود إلى عادهم من مخالفة الأنبيــاء والمســارعة إلى أهوائهم وحظوظهم .

وفى تلك الآية سر غامض يتذوقه أهل الورع مــن المســلمين، لأن الله سبحانه وتعالى قد يهب العبد بسطة فى الرزق، ويكون العبد ورعاً زاهدا فيكتفــى بالقليل من القوت مع قدرته على الشهى اللذيذ، لأن تلك الآية الشريفة تدل على أن الله يحب من عباده أهل الورع والزهد فإنه تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾وهو فى أشد مايكون من الظمأ من حرارة الصــيف، فيكون امتناعهم عن الشرب مع توفر الدواعى دليلاً على ورعهم ووقوفهم عند أمر الله تعالى، وتكون إطاعتهم لحظوظهم ونفوسهم الشهوانية دليلا على أهم يحقرون أوامر الله ويجعلون الحكم منهم عليهم، والله تعالى تتره عن أن تــراه الأبصــار أو تدركه العقول .

ولكنه ظهر لعباده فى أمره وهيه فتعظيم الله محصور فى تعظيم أمره، ومــن استهان بالأمر حرم الخير فى الدنيا والآخرة، ولذلك فإن الذين شربوا مــن النــهر حرموا التوفييق والهداية ونصرة الله ونبيه، ومن امتنعوا حظوا بالصديقية وبالنصــرة وبالظفر وبالغنيمة وبالجنة يوم لاينفع مال ولابنون، نسأل الله أن يعيذنا من الابتلاء ومن الدخول فى التجارب.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أى لما أن شرب من خــالفوا الله تعالى، وامتنع عن الشرب من أطاعوا الله من أهل الإيمان القوى . جاوز طــالوت البحر هو والذين أطاعوا الله لأن الله وصفهم بأهم مؤمنون أى مصدقون .

﴿ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾

هذه الآية الشريفة تدل على أن الذين قالوا ذلك هم الذين كرعوا من النهر فسود الله شفاههم ونزع منهم الشهامة الدينية وحسن الظن بالله . فرأوا لضعف إيمانهم قوة جالوت وجنوده فقالوا: لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، ولو أن الله كتب الإيمان وزينه فى قلوبهم لرأوا جالوت وجنوده مقهورين بقهر ذى القوة والعزة الذى قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) فكان قولهم هذا نتيجة ماألم بقلوبهم من ضعف الإيمان ومن وسوسة الشيطان . وجائز أن يكون قال هذا القول بعض المؤمنين استغاثة بالله تعالى وطلباً لعنايته بهم بدليل قوله تعالى :

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

بين الله لنا بهذه الآية أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت من أهل الإيمان بالله وحسن الظن به سبحانه لأنهم علموا علم اليقين بلقاء الله تعالى حتى كأنهم يشاهدون قوته سبحانه وقدرته على إهلاك أعدائهم، وفى قوله تعالى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ دليل على انبلاج الحقائق لقلوبهم حتى تحققوا إطلاق قدرة الله، وكمال ملكه المطلق على عبيده، ودرسوا تاريخ الأنبياء والملوك السابقين من أسفار نوح والخليل ولوط وهود وشعيب وموسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم، فكان العلم بتاريخ الأوائل مع نور الإيمان الذى جعله الله فى قلوبهم يجعلهم على يقين تام بنصرة الله لهم لأنهم قاموا لنصرته سبحانه، قال تعالى : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا

(١) سورة يس آية ٨٢

اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ [١] ومعنى الآية كثير من فئات قليلة العدد والعدد غلبـــت فئـــات كثيرة العدد والعدد، وذلك ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بتقديره تعالى وقوته وقدرتـــه . ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى ونصرة الله وتأييده وقوته مع الصابرين الـــذين مـــلأ الله قلوبهم يقيناً فألقوا بأنفسهم أمام العدو القوى غير مبالين بما يصيبهم فى سبيل الله

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَـــلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢٥٢)

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَـــبْرًا وَثَبِّـــتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

البراز معلوم وهو الوقوف فى الصف أمام العدو، والواو هنا كنايـــة عـــن الذين آمنوا مع طالوت وجاوزوا النهر معه ، وهذا الدعاء يدل على أن القائلين : " لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ " هم بعض المؤمنين، ومعنى دعائهم هذا أنهـــم يسألون الله أن يصب عليهم صبراً تقوى به قلوبهم ويسكن به جأشهم وتضعف به قوة أعدائهم بما يلقيه فى قلوبهم من الرعب منهم.

قوله تعالى : ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أى امنحنا يقيناً حقا نتمثل بـــه نعـــيم الآخرة حتى يكون الاستشهاد أحب إلينا من الحياة فى هذه الدار أذلاء للعمالقـــة،

---

(١) سورة محمد آية ٧

وبهذا اليقين تثبت أقدامنا فى الحرب لما نراه فى أعـــدائنا مـــن الضـــعف والهزيمـــة والخوف، وما نراه فى أنفسنا من القوة والجرأة بتأييدك . ﴿وَانْصُرْنَا عَلَـى الْقَــوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى وامنحنا الظفر والفوز فى ميدان القتال حتى نهزم أعداءنا ونســـتولى على متاعهم غنيمة لنا، ونقهرهم قتلاً وأسراً و ﴿ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ هم الـــذين لم يؤمنوا بالله ورسله وخالفوا أحكامه وقاتلوا رسله وأصحابهم، والكفر فى اللغة : هو الستر . أى القوم الذين سُترت عنهم حقائق الغيب فلم تؤمن بهـــا قلـــوبهم، و لم تسكن إليها أرواحهم ،و لم تقبلها عقولهم .

﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾

ومعنى هزموهم أى استولوا عليهم ففروا من أمامهم ، وكان مع طالوت أيش أبو داود عليه السلام، وكان له ستة أولاد خمسة يقاتلون معه وداود يرعى لهم غنما، فأوحى الله إلى شمويل أن الذى يقتل جالوت هو داود بن أيش، فطلـــب طـــالوت داود من أيش فأرسله إليه . وعند قدومه سمع ثلاثة أحجار تقول : يا داود خـــذنا واقتل بنا جالوت : فأخذها داود ووضعها فى مخلاته ، وكان داود يرمى الســـباع بالمقلاع يردهم عن غنمه، فلما حضر عند طالوت قال : إن شمويل أخبرنى أنـــك تقتل جالوت . قال : وما الذى يناله من يقتله ؟ قال : أنكحه ابنتى وخرج جالوت وجنوده فى عزة وأنفة، فوضع داود حجرا فى مقلاعه ورمى به جالوت فأصابه فى صدره فخرج من ظهره فوقع قتيلا . وكانت أول معجزة لداود . وقيل الحجر قتل رجلاً وراء جالوت . فزوج طالوت ابنته لداود، قيل ثم حسده وخاف أن يأخـــذ الملك منه لأنه من سبط النبوة فأخبر ابنته أن تستر عليه فى أن يقتله . وكانت البنت

تحب داود فأمرته بالفرار ففر ونجا منه ، ولما تذكر طالوت ندم وتاب، والذى كان يخافه وقع فإن الله أعطى الملك والحكمة لداود كما سيأتى .

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ أى قدر الله تعالى قتل جالوت على يد داود فنفذ قدر الله الذى قدره لحكمة ظهرت لأهل المعرفة، ومنها ما بينه الله فى قوله سبحانه : ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ الملك : معلوم، والحكمة : النبوة . ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من تدبير المملكة وإتقان الصناعات كعمل الدروع والسيوف وغيرها من علوم الدين، وعلوم الحقائق الكونية، ومن الحكمة فى إيجاد الله سبحانه لها . وكان داود يرعى لأبيه أيش غنماً .

بينت هذه الآية الشريفة تفريد الله تعالى بالإعطاء والمنع والتفضل والإحسان من غير علة ولا سبب، فهو سبحانه يُعلِّم من يشاء بالوحى أوبالإلهام أو بما يجعله من نور بصيرة أو صفاء جوهر النفس، والعلم الحقيقى هو ما يعلمه الله للعبد . وكل علم تعلمه العبد من العبيد أمثاله ولو كان أمثال الجبال لا ينفع القلوب، ولا تزكو به النفوس ولا تلين به الجوارح إلى طاعة الله تعالى، اللهم إلا ما كان من نبى أو وارث لنبى عليه السلام فإن ذلك فى حكم تعليم الله العبد . ولم يشأ الله تعالى أن يجعل رجلاً عالماً بذاته أبدا، وكل مخلوق يحتاج إلى المعلم ولكن التفاوت يكون فى هذا المعلم، فالأفراد المحبوبون لذات الله يعلمهم الله علما لَدُنِّياً، وأبدالهم وورثتهم يجعل الله لهم نورا فى قلوبهم ويوفقهم لصحبة عارف به، فإذا سمعوا الحكمة كانت مفتاحا للقلوب فيشهدون أنوار علام الغيوب .

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان مكونا من عناصر متضـــادة ومـــن نفوس مختلفة، فعناصره التى هى أركان الوجود الماء والهـــواء والنـــار والتـــراب، والنفوس المختلفة هى النفس الشهوانية والسبعية واللطيفة الملكوتية، فإذا قوى عامل الشهوة وتسلط عامل الانتقام وتحكم كان عبدا لنفسه الأمارة بالسوء ، وإذا هداه الله ووفقه فقويت اللطيفة الملكوتية كان روحاً عالياً فوق ملائكة السماء، وكانت النفس الشهوانيه والسبعية جاذبه له إلى نيل رضوان الله الأكبر بما يقوم بـــه مـــن مجاهدة النفس الملكية لهما، وبما تقومان به من المسارعة إلى الجهاد الأكبر فى سبيل الله وإلى الورع عما يكرهه الله تعالى فيكون أعظم مجاهد، قال ﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾ . رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس)

وليس من قتل بين الصفين كمن قتلت لطيفته الروحانية نفسه الشهوانية والسبعية . وإن المجندل بين الصفين قد يكون نيته الغنيمة والشـــهرة أو الســـيادة، بخلاف الذى يجاهد حظه وهواه فى ذات الله تعالى فإنه مخلصا قلباً وقالبا و ســـالك على الصراط المستقيم، مقتديا برسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وليس بينه وبين ربـــه إلا رسول الله .

فالإنسان بما فطر عليه وكون منه لا يمنعه عن الشرور الفادحة إلا سوط النقمة أو سلطة الظالم وبذلك فإن الله سبحانه إذا منح عبداً سلطة وقوة وتمكيناً فى الأرض ونسى أصله سلب الله منه الراحة والأمن، وسلط عليه ظالماً جباراً يســـومه الخسف حتى يشغله عن ظلم الناس . فإما أن يرجع إلى الله ويتوب فينصره ويؤيده . وإما أن يزداد طغياناً وظلماً فيمحقه الله ويقهره .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ يعنى أن الله تعالى قد يمكن للظالم حتى إذا طغى وبغى سلط عليه من هو أظلم منه، فيسلب ما بيده من قوة وحول ليستريح العباد من ظلمه، ومـــن أراد الله له السعادة ولو صرفه فى ملك السموات والأرض لا يزداد إلا تواضعاً لله، ورحمـــة بعباد الله، وشكرا له سبحانه على ما أنعم به عليه فيزداد إلى أن ينعم عليه بمالا عين رأت ولا أذن سمـــعت ولا خـــطر على قلـــب بـــشر . ومـــن ســـبق فـــى علمه سبحـــانه أن يـــبدل نعمـــة الله كفراً فيستعـــين بنعمـــة الله على غضـــب الله وظلم عباده ، فلا يمكث إلا ريثما ينتقم الله منه بظـــالم غـــيره . قـــال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: (إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) وتأويل هذه الآيـــة أن : (لَوْلا) حرف امتناع لوجود، فامتنع فساد الأرض لوجود ﴿ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ومن نظر إلى حالتنا الحاضرة من تسليط أعداء الله على المجتمع الإسلامى بعد أن كانوا عبيداً يباعون فى أسواقنا، يتحقق أن سلب الله لنا هذا الملـــك كـــان بسبب ظلم من مكن الله لهم فى الأرض . أسأله سبحانه أن يعلى كلمته ويجدد سنة نبيه حتى يعود لنا التمكين فى الأرض كما كان لسلفنا الصالح .

﴿ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ أى لولا أن الله تعالى يحب إصلاح شأن عبـــاده وحالهم لمكن الظلمة منهم فأفسدوا فى الأرض وساموهم سوء العذاب فمحقهم الله محق قوم عاد وثمود، ولكنه جل جلاله يسلط أعداءه على من خالفه كما قـــال ﴿ ﷺ **وآله**﴾. قال الله تعالى : (إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لم يعـــرفنى) وهى سنته سبحانه . ومن قرأ صحائف التاريخ وما كان لبنى إسرائيل من المصائب على يد بختنصر وعلى يد الروم يعلم أن الله تعالى إنما سلط بختنصر والروم والإفرنج إراحة لعباده من ظلم الطغاة المتسلطين .

وعسى أن يتذكر إخوتنا المسلمون ذلك فيرجعون إلى الله تعالى ليعيد الله لنا مجد أسلافنا الصالحين، فإن الله نصرنا سلفاً بالتقوى، ورفعنا بالإسلام والمحافظة على فرائضه وسننه، فلما اختلفنا وتركنا شرائع ديننا سلط الله علينا من كانوا عالة علينا وأرقاء لنا، ومنحهم علم الصناعات والفنون والكيد والخبث إمـــا ليؤدبنـــا ويرحمنا أو لينتقم منا ويمحونا أعاذنا الله بوجهه، وإنا لنطمع أن يجعل الله بعد هـــذا الظلم والظلمة عدلاً ونوراً يملأ الأرض بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، وما ذلك على الله بعزيز.

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

يعنى أن الله سبحانه يدفع الظالم عن ظلم عباده بالظالم من خلقه، لأنـــه سبحانه متفضل على خلقه بماله من أسماء الجمال الكثيرة التى عددها فيمـــا نعلـــم سبعون، وأسماء جلاله وعددها تسعة عشر اسماً، فهو لماله من الجمال العلى يتفضل ويحسن ويغفر ويستر، ويعفو، ويكرم، وبماله من الجلال والكبرياء يعدل فى عبـــاده فينتقم من الظالم بالظالم، ثم ينتقم من جميع الظلمة يوم القيامة . ويحسن إلى اهـــل محبته فى الدنيا بالتوفيق والهداية والسمع والطاعة والصبر على ما قدره ومأمر به أن يتقرب به إليه والرضا بأقداره، ثم يحسن الإحسان الأكبر يـــوم القيامـــة . فينيـــل الرضوان الأكبر لأهل الذكر الأكبر، وهو الفاعل المختار لا شريك له .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

الخطاب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ واسم الاشارة كنايـــة عـــن الآيـــات السابقات فى بيان الأحكام الشرعية والأخبار عن الأمم السابقة والأنبياء . ﴿ تِلْكَ

آيَاتُ اللَّهِ﴾ التى لا يعلمها إلا من سبق له تعلم التوراة والإنجيل والزبور من أخبار يهود بنى إسرائيل، وهى من أكبر المعجزات بالنسبة لرسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، لأنه نشأ بين جاهلية عمياء صماء لا يعلمون أخباراً ولا يحسنون قراءة ولا كتابة، فعلمه ﴿ﷺ **وآله**﴾ بتلك الأسرار العلية الغامضة ــ إلا على من يزاولها مـــن الأحبـــار والكهنة ــ دليل على أنه رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ وبرهان على صدق نبوته .

فقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بعد قوله : ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى باليقين البرهانى المحسوس معطوف عليه، ثم أتى بحرف التوكيد ولام القسم ليدل على أنه هوالرسول العظيم الذى انفرد بأن يترل الله عليه الدين كله كاملاً ختمـــاً للنبوة فلا نبى بعده، و (ألـــ) فى قوله ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لك أن تقول للعهد وجائز أن تكون للاسغراق يعنى أن الله جمع لك ما آتاه جميع المرسلين وزادك ما به كمال الدين كله، أى إنك من المرسلين الذين جمع الله لهم مالم يجمعه لغيرهم كالخليـــل والكليم، وزادك الله مالابد للمجتمع الإنسانى منه مما به السعادة فى الدنيا والآخرة.

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث : (تلك الرسل)

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تفسير قوله تعالى : سيقول السفهاء	
فضل الأمة المحمدية على سائر الأمم .	
حكمة تحويل القبلة	
حكمة تقلب وجه النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى السماء	
واستجابة الله له فى تعيين القبلة التى يرضاها .	
بعد اليهود عن الحق وحرمانهم من نيل الهداية .	
معرفة اليهود للرسول ومعرفتهم لحكم تحويل القبلة .	
كمال العزة الإلهية وكمال عبودية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾.	
لكل أمة وجهة ..	
يبعث الله الناس يوم القيامة على ما كانوا عليه .	
حكم الصلاة قبل تغيير القبلة	
بيان أنواع الهداية .	
كيف نعلم الناس مابه تزكو نفوسهم وتخشع قلوبهم .	
رضا الخلق عن الحق علامة على رضا الحق عنهم .	
الذكر المطلوب .	
المعية بحسب العبد لا بحسب الله تعالى .	
الشهداء أحياء عند ربهم .	
بيان فى مقام المعية والعندية واللدنية .	

بيان فى الخوف والخشية والرهبة والرجوع إلى الله تعالى .
معنى عليهم صلوات من ربهم .
تفسير قوله تعالى : إن الصفا والمروة من شعائر الله .
بيان فى مقام التوبة
بيان فى حقيقة التوحيد .
بحث فى الفرق بين العلم والإيمان
بحث فى الخلق والمخلوق
بحث فى تحديد أماكن الكواكب الكونية
سر اختلاف الليل والنهار
بيان فى تعليم الله للأنبياء
بيان فى علوم البحار
بيان أنواع الحياة .
بيان فى أن من عرف نفسه عرف ربه
الفرق بين الريح والرياح .
بيان فى معنى العقل .
بيان فى أن أهل الكفر بالله قلة مع كثرتهم
بيان فى غامض المحبة
بيان معنى الرحمة والمحبة من الله سبحانه وتعالى .
نفى النفع والضرر عن غير الله تعالى لا يمنع من إثبات الشفاعة لرسول الله
بيان فى معنى عذاب الله تعالى
وعيد الله لأعدائه ومن والاهم .
بيان فى رؤية الأعمال .

بيان فى سبب خلق الكون وتسخيره للإنسان
بيان فيمن يدعون للإصلاح والتقوى ومن اصطنعهم الله لنفسه
بيان أبواب مداخل الشيطان .
الرد على نظرية دارون .
أهل الكفر أناسى صورة لأنهم لا يعقلون إلا بالعقل المكتسب .
الهداية نور فى القلب.
متى يكون الطيب من الرزق عبادة.
بيان فى الأنواع المحرمة من الأطعمة .
حكمة تحريم الدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .
بيان إباحة ما حرم الله أكله عند الضرورة ومقداره.
إنكار اليهود ما ثبت فى كتبهم من صفات النبى ﴿ﷺ **وآله**﴾.
تحريم كتمان الحق وأخذ الرشوة .
دعاة الضلالة وعلماء السوء .
تفسير قوله تعالى : ليس البر أن تولوا وجوهكم
بيان أنواع البر
أركان الإيمان .
بيان فى سبب الإختلاف بين المسلمين .
بيان أن المال سبب الفتن بين الناس
أوجه الإنفاق
العهود والوفاء بها
الصدق من علامات التقوى
بيان فى أحكام الجنايات .

حكمة القصاص .
القصاص حياة المجتمع الإنسانى
الوصية للوالدين والأقربين من صفات المتقين
بيان فى أحكام الوصية .
بيان فى فرضية الصيام
الصيام فرض على الأمم السابقة قبلنا
الرخص فى الإفطار .
الصيام يجرد الروح من ملابسات الهيكل فتؤهل للشهود.
العبادة ليست للمشقة وإنما لتظهر المحبة .
التكاليف الشرعية توجب الشكر على العباد .
الشكر لله عمل لا قول .
معنى الدعاء ووجوه الاستجابة فيه.
رحمة الله بالصائمين .
أحكام الاعتكاف
تفسير قوله تعالى :يسألونك عن الأهلة .
بيان فى أن الأهلة مواقيت للحج ولقضاء مصالح المسلمين .
الجهاد وأحكامه .
الجهاد استرداد لحق المسلمين المغتصب
الكف عن قتال من توقف من المشركين عن القتال
رد الاعتداء مجازاة وليس اعتداء
الإنفاق فى سبيل الله من الجهاد
الإحسان من أكمل القربات .

أحكام الحج والعمرة .
موجبات الفدية فى الحج
بيان أن الصيام بدل عن الفدية .
المحظورات من الحج
بيان فى إباحة التزود فى الحج
الأعمال فى النفرة من عرفات
العمل بعد قضاء النسك
تفسير قوله تعالى :واذكروا الله فى أيام معدودات
ذكر الله وحكمته فى الأيام المعدودات
إسعار الفتنة فساد فى الأرض .
معنى رأفة الله بالعباد .
معنى الدخول فى السلم والنهى عن اتباع خطوات الشيطان .
المخالفة بعد إقامة الحجة توجب شديد العقاب .
الإيمان بمحكم الكتاب والتسليم بمتشابهه عين الأدب .
معنى رجوع الأمور إلى الله .
بيان فى مخالفة بنى إسرائيل بعد وضوح الحجة .
تزيين زخارف الدنيا استدراج من الله تعالى .
اتحاد الأمر والإرادة فى حق العبد دليل على سابقة الحسنى
المؤمن التقى صورة الرحمن .
إنزال الكتاب واختلاف الناس فيه .
سر بعثة الرسل وإنزال الكتاب .
القرآن هو الكتاب الجامع لكل الشرائع .

حكمة الابتلاء انتظار الفرج من الله والالتجاء إليه سبحانه .
السؤال عن وجوه الإنفاق .
وجوه الإنفاق .
القيام بالنوافل بعد القيام بالفرائض وواجب الوقت .
الإذن بالقتال وتعيينه على كل مسلم .
بيان أن النفس مجبولة على حب الملائم وإن كان شرا .
حكم القتل فى الشهر الحرام والبيت الحرام .
بيان أن الفتنة أكبر من القتل .
الحكم بالكفر على من يود الكافرين ويتولاهم.
حكم من ارتد ومات كافرا .
بيان رحمة الإسلام بالعالم وغلظة أدعياء الرحمة ببنى الإنسان .
أحوال أهل الإيمان
تفسير قوله تعالى : يسئلونك عن الخمر .
تحريم الخمر والميسر
مضار الخمر والميسر
بيان الرحمة باليتامى ومخالطتهم
تحريم نكاح المشركات حتى يؤمن
تحريم نكاح المشركين حتى يؤمنوا
بيان الحكمة فى منع نكاح المشركين والمشركات
بيان فى أحكام الحائض
محبة الله للتوابين والمتطهرين
إتيان الحرث وما يتعلق به

تصور النفس لنعيم يوم القيامة
أحكام اليمين بالله تعالى
أنواع الإيمان
حكم الإيلاء
عدة المطلقة
من أحكام الطلاق والرجعة
منزلة الرجل على المرأة
الطلاق مرتان
ما يؤخذ فى الخلع
حكم الرجعة بعد الثلاث
معاملة الأزواج بالرفق والرحمة
النهى عن إمساك الزوجة مضارة لها
النهى عن عضل النساء
حسن معاشرة النساء من علامة الإيمان
تفسير قوله تعالى : والوالدات يرضعن أولادهن
حكم المرضعة بعد بينونتها
أحكام الرضاعة فى البينونة
بيان أن النظرة الأوربية للمرأة نظرة جاهلة بحقيقة النساء
عدة الأيم
أحكام زواج الأيم
بيان أنه لا يحل العقد إلا بعد وفاء العدة
حكم التعريض بخطبة النساء

حكم المطلقة قبل الدخول بها
بيان فى النهى عن نسيان الفضل
المحافظة على الصلاة وأن فيها عبادة كل المخلوقات
كيفية صلاة الخوف
بيان فى أحكام الصلاة الوسطى والوصية للزوجات
تفسير قوله تعالى : ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم
بيان فى حكم متعة المطلقة
قصة النبى حزقيل وأهل داوردان
الجهاد ليس سببا للموت
القرض الحسن ومضاعفته من الله تعالى
الله يقبض ويبسط برهان على وحدة الأفعال
سبب تسليط الأعداء مخالفة الكتاب والسنة
تحقير من عظمه الله دليل على ضعف الإيمان
النسب العلى هو العبودة لذات الله
بيان أن بنى إسرائيل نفوسهم عنادية
الابتلاء من الله حجة للصادقين بصدقهم
تعظيم الله فى تعظيم أمره ونهيه
اليقين الحق يجعل المؤمن يتمثل نعيم الآخرة
الأفراد المحبوبون يعلمهم الله علما لدنيا
بيان أن الله ينتقم من الظالم بالظالم

تطلب مؤلفات الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام

من مكتبة دار الكتاب الصوفى

تليفون **3901030 022 002**

١١٤ش مجلس الشعب

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ وآله﴾.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر.

٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.

٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾.

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج

٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.

٤- السياسى والحكيم والغشيم.

٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.

٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.

٥- من جوامع الكلم.

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب أل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخـــر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

أســرار القــرآن

الجزء الثانى

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030